مملكة الضباب

سما هاني: مملكة الضباب، رواية
الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٥
رقم الإيداع: ٢٠٢٤/٣٢٨٦٠ - الترقيم الدولي: 978-977-806-465-0

جَميـعُ حُـقــوقِ الطَبْـعِ والنَّشرِ محْـــفُوظةٌ للناشرْ
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الـــواردة فـــي هـــذا الكتـــاب
لا تُعبـــر عـــن رؤيـــة الناشـــر بالضـــرورة
وإنمـــا تعبـــر عـــن رؤيـــة الكـــاتب.

© دار دَوِّنْ
عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر
Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

سما هاني

مملكة الضباب

رواية

دَوِّنْ
للنشرْ والتوزيعْ

مقدمة

تـدور هذه الروايـة في مزيج مـن الأزمنة غيـر المحددة، ولا تخاطـب زمنًـا بعينه؛ نظـرًا لما تمر بـه المملكة الـوارد ذكرها في الأحـداث برجعية لا تتناسـب مع التطويـر المنتظر للمسـتقبل أو مـا نحاكيه من واقع، قد تجد تشـابهًا بين أحداث الرواية وأحداث قـد فنَت منذ زمن بعيد ومن الممكـن أن تخاطب بعضًا منها واقعًا نحياه، أو حتى مستقبلًا قد يكون قريبًا أو بعيدًا كل البُعد.

جميـع أحـداث الرواية والأزمنـة التي تدور فيهـا، هي مجرد أحـداث خياليـة من وحـي خيال المؤلـف، ولا تمـت للواقع بأي صلة، حتى وإن تشابهت الأحداث...

لذا وجب التنويه.

إهداء

إلى كل القلوب اللَّينة الحنونة، الرهيفة الحِس والرقيقة
المشاعر، ما أقسى الحياة عليكم!
وما أجمل وجودكم فيها، فلولاكم ما كُنَّا ولا استطعنا...

الفصل الأول

سُئل حكيم: «لِمَ السماء صافية؟»
فابتسم وقال: «لأن البشر لا يعيشون فيها!»

في أراضٍ سحيقة وزمنٍ بعيد، في مستقبل برائحة الماضي تخطو مرجانة مسلوبة الإرادة نحو مصيرها المحتوم، تعلم جيدًا أنه لا مفر من مواجهة ما هي مُقبلة على فعله، أنفاسها تتصاعد وتذرف الدمع الذي ينهمر على وجنتيها كنهرٍ يفيض، فلا تقوى على تجفيفه، ولِمَ تفعل؟ فالوقت قد حان للبكاء والعويل، وآنَ للحزن أن يسكن قلبها وينهشه كضبع جائع دون رحمة. تتقدَّم أكثر فتشعر بصدرها يحترق قهرًا من اللبن المحتبس داخله، والذي لم يذقه رضيعها المسكين بعد. تبلل ثيابها فتبكي، تسأل رجالًا أشداء قد أحاطوا بها: ألا يحق لي أن أُرضعه؟ على الأقل أكون قد مارست الأمومة ولو مرة واحدة في حياتي! ثلاثة رجال عابسون يتسمَّرون أمامها، يريدونها أن تُنهي تلك المسرحية في القريب العاجل، لقد اعتادوا هذا المشهد، لذا فقدوا إحساسهم بمدى فجاعة ما هم مُقبلين على فعله، توسَّلت الأم المكلومة مئات المرات، بل آلاف المرات. تدمع عيناها شلالًا من حدقتَيها الزرقاوَين، ثالثهم يرمقها بشفقة ويومئ لها رأسه بالإيجاب، تبتسم بتفهُّم وسرعان ما بهتت ابتسامتها حينما اعترض ثانيهم بشدة، ونهَرَ ذلك الغبي في نظره، سبَّه بأبشع الألفاظ، وحدَّجه بتحدٍّ:

- أنت تُخالف القواعد! عقابك سيكون عسيرًا.

رد ثالثهم مستشيطًا غضبًا، وعروقه النافرة تكاد تخترق جلد رقبته:

- لا تتدخل فيما لا يعنيك، سأتركها تُرضع وليدها. هذا

قراري وأنا وحدي أتحمَّل عواقبه.

تابعت المرأة النقاش وهو يحتد، ثم انفرجت أساريرها لبرهة من الزمن تناست فيها مرارة اللحظات الآتية، أقنعت نفسها أن تلك الدقائق هي كل إرثها وذكرياتها مع مَن انتظرت قدومه للدنيا قبل تسعة أشهر كاملة، والآن وقبل أن يغيب عن حضنها وينسى رائحتها، ويختفي كأنه لم يولد، أرادت أن تُشعره وتشعر معه بدفء ثوانٍ اقتنصتها من عالمها وقدرها عنوةً، اقتربت بصدرها من فم الرضيع فالتقمه بلهفة، ملأ معدته الصغيرة حتى شبع وارتوى، لأول وآخر مرة، اقتربت برفق من دقات قلبه الرقيقة، تتحسَّسها، وينساب الدمع منها فيبكي وتبكي هي معه، تعلم أن طوال المتبقي من حياتها ستظل تبكي وتندم، ولن ينفع الندم. ليتني ما فعلت، ليتني لم أرَك أو أبصرك يومًا، ليتك مِتَّ في بطني، أو ذهبت أنا للجحيم حتى لا أُسهم في قتلنا معًا!

ارتجفت يداها، ثُقُلت خطواتها، ساقاها لا تكاد تحملانها ومفاصلها تتشبَّث بالأرض كيلا تُقدم على خطوة أخرى، تؤهِّل نفسها لاستقبال ما هو آتٍ، ستكون مُجبرة على وضع رضيعها بصندوق خشبي صغير وتُلقيه بالنهر لتجرفه المياه إلى مصير مجهول!

تتعثَّر تارةً، وتسقط مرات. تشعر في كل مرة بفؤادها يصطدم بالأرض، الأغلال في يدَيها تقبض على عروقها وتقبض هي على صدرها بنفس القوة، ضلوعها تتفجَّر داخلها وتسمع صوتها تتهشم على مهل، تقف مشدوهة أمام النهر، تجفِّف الرياح دمعها

المُنسدل على وجنتَيها وأنفها المحتقن أثر نحيبها، تبحث عن نطفة رحمة داخل كل سجَّان من الثلاثة المتسمِّرين أمامها، يُحدِّقون في الفراغ، تكسو ملامحهم الرتابة والجمود، بلا مشاعر أو خوف لا يُطرف لهم جفن، يصرخون فيها

- نفِّذي الأمر يا ساقطة، ألا تخجلين من فعلتِك؟ يجب أن تخجلي من نفسك، بل ومنَّا! تطهَّري من ذنبك، وتضرعي لغفرانٍ بات الوصول إليه مستحيلًا.

ارتعش جسدها الهزيل بأكمله، ضمَّته وطبعت قُبلةً على جبينه ممتزجةً بالحب والمرارة معًا، همست في أذنَيه؛ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ﴾[1].

أبصرت السماء، وكانت رؤيتها هي إليها مُلبدة بالغيوم، سحابة تهطل مطرًا لا يتوقف من حدقتَيها، أطلقت سراح لسانها:

- كيف لا أحزن؟ إنه لأمرٌ جلل، لا أقوى على تحمله، أنا لستُ بزوجة نبي، ولا أرتقي لهذه المكانة، أنا عبدة فقيرة وبين يديَّ ياقوت ومرجان وهبته لي وعاش داخلي لشهور فصرت أهواه، وتشكَّلت روحه وخرج من رحمي فخرجت أنفاسي معه، احفظه لي أو اجعله شفيعي، وأرجوك أن تقبض روحي فإنه مُفارقي، كيف لا أحزن؟ أهناك تعريف أقسى مما أعيش للحزن والألم؟

شهقت، أسكنت الرضيع على خشبة صغيرة تحمله، ألقتها في

(١) [القصص: ٧]

النهر وحاولت رمي نفسها معه، محاولةً تعلُّم أنها بائسة عجزت عن انتزاع الأصفاد التي تُقيد معصمها بعنف، جذبها الحراس إليهم فلم تستطع الإفلات، غاب الطفل عن عينَيها، خارت قواها وسقطت مغشيًّا عليها، الآن تبدأ مرحلة أخرى في حياتها، تختبر فيها أقسى درجات الألم...

بعد مرور قرابة ثلاث ساعات كاملة، فقدت فيها الأم الشابة وعيها، استفاقت كما لو كانت ميتة تم بث الروح فيها من جديد، لكنها عادت فرخًا مذبوحًا سلبوا منه الروح، فلم تستطع استشعار الحياة مرةً أخرى، لا تريد العيش، تنفر من أنفاسها ونفسِها، غائبةً كطفل يستكشف الأشياء للمرة الأولى، تتفحَّص أناملها بدقة، تحاول لمس جدار استندت بظهرها إليه، خشن الملمس وذي حبيبات صغيرة حادة، حجرة شاسعة تعتمد إضاءتها على قناديل صغيرة وبضع شموع التصقت بالأرض التي بدت وكأنها تربة خصبة تنغرس فيها جذورها.

طالعت بحسرة ما حولها وقد حكمت معصمَيها أغلال حديدية بسلاسل طويلة تسمح لها بالحركة في إطار احتياجاتها فقط، كالذهاب إلى دورة المياه المكونة من إناء واسع للتغوُّط وحفرة بالحائط بها ماسورة مياه جارية مخصصة للتخلص من الفضلات، يتوسطهما صنبور ماء التهم الصدأ نصفه، لا يوجد إلا نافذة واحدة مُوصدة ومُسوَّرة بالكامل، إلا من فتحات تهوية تمنع دخول الهواء بالقدر ذاته الذي من المُفترض أن تُبيح له أن يتسلل إلى رئتيها، وقفت وحيدة وخائفة، تندهش من نفسها لماذا تحس

بالخوف؟ لِمَ الهلـع الذي من المفترض أن ينمحي تمامًا، تُحدِّث نفسها:

– إنـه الهـلاك يا مرجانة، كانت تعلم أن مصيرها سـيؤول إلى هذه النقطة، بل وعلى تلك الرقعة من الأرض. أنفها مُسيج بمزيج من الروائح النتنة، ستتعفن هنا لا محالة.

قطع شرودها صوت الباب يُفتح.

انسـلَّ ضوءٌ طفيف تبصره عن بُعد كما لو كان غبارًا شـطرت توهُّجه امرأة وعبرت من خلاله مثل سحابة في دُجى الليل، هيبتها يخشـاها ملوك خط الشيب رؤوسهم، تمشـي بتؤدة وبطنها منتفخ أمامهـا، تحمـل جنينًـا داخلـه، يعقبهـا ثلاثـة رجال مـن الحراس حفظت مرجانة وجوههم جيدًا، بشـموخ أشـارت لهـم المرأة أن يطلبوا من الأم الشابة أن تقف، فأطاعت الأمر دون أن تنبس ببنت شفة، لا تجرؤ على رفع عينَيها، قطعت المرأة السكون فقالت:

– أنـا أُشـفق عليكِ حقًّـا يا مرجانـة، كنتِ من البنـات اللاتي توسَّمت فيهِنَّ خيرًا، لكن خاب ظني.

لم ترد مرجانة أو حتى تتطلع إليها.

عبثـت بالتاج الـذي اعتلى مقدمة شـعرها الكسـتنائي الغامق المائل للاحمـرار، ورفعت فسـتانها الأزرق الفاتح المنفوش عن الأرض، ثم ألقت به في الوسخ بغتةً!

استطردت بنبرة يشوبها الحزم والعتاب:

– أنتِ بالنسـبة لـي أصبحتِ متسـخة تمامًا كطرف فسـتاني،

غرقتِ في الوحل، ومَن يطمسهن الوحل عقابهن معروف، وصفحي عنهن مرفوض.

شقَّت مرجانة صمتها، فخرج صوتها الباكي محشرجًا ومبحوحًا:

– أنا لن أطلب الغفران، فما اقترفته ليس بذنب يا مولاتي.

اتَّسع بؤبؤ عينَيها حتى بلغ أقصاه، خرجت كلماتها غاضبة، مُسيطرة، مُتعجرفة كعادتها، هي الحاكمة تشعر بالقوة والمجد يسري بأوصالها.

– هل جُننتِ! ألا تُدركين مع مَن تتحدثين؟ أنا مَن بيدي مصيرك، حياتك أو مماتك أحدده بإشارة مني، لا أحتاج حتى الكلمات. لقد ميَّزتك وجعلتك من خادماتي المقربات تمرَّدتِ وعصيتِ وأصبحت مجرد زانية، وعن قريب عاهرة، تعلمين!

انفجرت مرجانة وواجهتها دون خوف، تنظر في عينَيها دون خنوع كما لو أن الرؤوس متساوية.

– أنا لستُ زانية! لقد تزوجت على سُنة الله ورسوله، وأمام الله أنا صالحة، في مملكتك فقط يا مولاتي يُطلق عن مثلي زانية، لأنها لم تتبع القواعد.

تقدَّم أحد الحراس كي يضرب مرجانة، لكن أوقفته الملكة، وخاطبتها بعدم فهم:

– وعدتُكِ أن العام لن ينتهي إلا بزواجك يا مرجانة. تذكرين؟

– أذكر يا مولاتي، لا أستطيع النكران، لكن مِمَّن؟ من رجل

لا أعرفه؟ أنا لا أحبه. ما فائدة وضع اسمي بقائمتك إذا كانت النهاية هي حرماني من حبيبي؟

– هذه قواعد المملكة ولن تتغير! أنا أختار وعليكم الطاعة.

– العقل اختار طاعتك لسنوات، لكن قلبي امتلأ بالعشق فلم يأبه بالقوانين، أرفقي بي، أنتِ ستصبحين أمًّا مثلي!

ضمَّت الملكة شفتَيها وحدجتها بنفور وتقزُّز، عادت أدراجها ثم توقفت وأخبرتها بتحدٍّ:

– لا تقارني طفلي بطفلك! أتقارنين طفل وليد الخطيئة بولي العهد! خسئتِ! أريدك أن تتذكري جيدًا عصيانك لي حينما تفكرين بما سيصير معك ومع حبيبك، أنتِ تعلمين ما هو آتٍ، تعلمين.

تحركت مسرعة تتَّجه صوب عرشها المصون، همست في آذان الحراس :

– إنها لكم، استمتعوا بها متى شئتم! ثم نفِّذوا الأمر!.

غادرت وهي تنظر إلى مرجانة شزرًا، انقبضت جميع أوصال جسد مرجانة وركعت ترجو الحراس ألا يخضعوا للأوامر، ليس ضروريًّا، وأنها لن تَشي بذلك أبدًا لمخلوق، إنها ليست سجينة، ولا تملك حرية التحدث لأي قريب أو غريب، قالت بمرارة:

– أرجوكم لا تقوموا بذبحي مرتين!

اقترب اثنان منهم إليها يسيل لعابهما، وهما يتفحَّصان جسدها، صيدة سهلة، مُباح لهما أكلها وبشراهة!

لم يقترب الأخير، تسمَّر مكانه، هو نفسه الشاب الذي أعطاها فرصة كي تُرضع الرضيع قُبيل التخلي عنه، مزَّق الأول ثيابها الرثَّة وأمسك بمعصمها السجين بالأصفاد، مرَّر أنامله بخصلات شعرها الغجري واشتدَّ بقبضته عليه، تحسَّس الثاني جسدها واستباحه كما يستبيح البشر البهيمة، تنتفض، ترفض وتبتعد، ترفصهما بقدمَيها، تعضهما بقوة حتى أدمت أذن الأول، أبصر الدماء يسيل بسخونة على رقبته مرورًا بظهره، ابتسمت مرجانة بانتصار زائف بطعم الهزيمة، اقترب الشاب الثالث ونهرهما بحِدَّة: :

– كفى! لقد تعرَّت أمامكما ولامستما جسدها، انكسرت بما يكفي. المرأة فقدت صغيرها للتو، وقد نالت من القهر ما يجعلها تُكفِّر عن ذنبها.

تعجَّب كلٌّ منهما وتبادلا النظرات، اقترب الجريح منه وهمس في أذنه، فخرجت أنفاسه ملتهبة حانقة:

– تعلَّم كيف تُخرس لسانك أو ستكون مكانها.

ابتلع ريقه، تراجع بضع خطوات للخلف حتى رحل وهجر السجن، شعرت مرجانة أن الموت يقترب منها، عالقة في الممر العابر بين الحياة والموت، ستعيش أبشع ما قد تمر به أي أنثى، ارتجَّت أوصالها، شهقت وأعلنت الاستسلام لمصير قد كتبه القدر لها سلفًا ولم يبقَ إلا إشارة من الملكة اللعينة، سبَّتها ببذاءة مرارًا وتكرارًا دون فائدة، حبَّات العرق تبلل جبهتها، يعتليها

ثـور في هيئة رجـل، بنيته قوية، يقربها بقسـوة يسـتمتع بها ويتلذذ بصرخاتهـا، بنفورهـا، برؤيتها تتألـم، انتهى منهـا وناوبه الجريح، كان جسـده ضعيفًـا، نحيلًا هزيلًا، عظـام فكِّه بارزة، لكن الشـرر ينطلق كالسـهم من عينَيه، ذئب قد كشَّـر عن أنيابه فنال منها عندما انهارت جميع وسائل المقاومة لدَيها.

سـويعات مضـت كالدهـر، تتنفس فيهـا مرجانـة فيخرج كل زفيـر منهـا مُنهزمًا، مـرارة كالعلقم بفمها، وأخـرى تُفتت روحها، تسـاءلت بقنوط؛ أيكون هذا عِقاب ربها لأنها فرَّطت في وليدها؟ لكنهـا قاتلـت على حياته باسـتماتة ولم يفلح الأمـر، بذلت ما في وسـعها، دعت ربهـا قبل بـزوغ الفجر وبعده، وعقـب كل صلاة، فلو أراد الله له أن يحيا لمنع عنه شـرور العالم، أما ما حدث معها فهـو إرادة الـرب، أو لربما بسـبب إثم ارتكبته ولـم تحظَ بالصفح عنـه، لأنها جرت كما تجري الوحوش في البرية وتسـلَّطت عليها الدنيـا، بالأخير كل عاصفة تقتلع جذورها في النهاية، لكن، أليس من العدل أن يحصد جميع زارعي الشوك، الألم؟ ليس فقط بعضًا منه..

أرادت أن تصـرخ رغـم يقينهـا أنـه لـن يُجـدي الأمـر، ولن يحـل وثاقها، أو يطيـب جراحها ودمها المصفـود، وحريق غائر بالروح لا يطفئ البـكاء نيرانه، ربما أخطأت مرجانة حينما ظنت أنها يمكنها أن تعشـق وتعيش في سـلام مثلها ككل النساء، لكن أين وكيف يُعقل أن يُولد السـلام على أراضي مملكتها المحتلة؟ حينما تُغتصب الأوطان تنكسـر الشـعوب، وتتبدل حروف كلمة

حب حتى يتخللها حرف إضافي لتصبح في ثوانٍ تنطقها الألسُن حربًا، حربًا من أجل العشق، ومن أجل النساء والأبناء، من أجل ألا يُقهر الرجال، ومن أجل البقاء حيًّا. فمن لم يستطع مقاومة الاغتصاب لن يستمتع به أبدًا، يرفضه ويقاومه في كل مرة، حتى وإن باتت هزيمته محسومة فلن يكُفَّ عن الدفاع، وحتمًا سينتصر. فكم من ظالم يمشي إلى كل رغبة، وكم من بريء جاثم خلف القضبان.

في الباحة الشاسعة التي امتدت لتضم كافة شعب المملكة، وقف الجميع كأنهم تماثيل من حجر، صامتين بانتظار الملكة حُرة. كان الخبر عن خطابها قد انتشر في الأرجاء كالنار في الهشيم، فأخرج الناس من منازلهم وجمعهم في هذه الباحة دون أن يجرؤ أحد على التغيُّب. كان الحضور أشبه بأمر واجب، لا اختيار فيه، وتلك المنصة التي ارتفعت عن الأرض، كانت هي مركز السيادة المُطلقة.

من حول المنصة، اصطفَّ الحُراس بوجوه صارمة وأيديهم على مقابض السيوف. يُحيطون بها خناجر حادة، وكأن كل خطوة نحو المنصة قد تكلف صاحبها حياته. في وسط المنصة، كان العرش الضخم، المبطَّن بجلود الحيوانات المفترسة، ثعالب ودببة وثعابين، كلها ذُبحت تكريمًا لعظمة الملكة، وكدليل ولاء لكل من يُقدم لها تلك القرابين، كان العرش شاهدًا على قسوة حكمها وتسلطها، وعلى دماء ضحاياها التي أسقطتهم في سبيل توسيع نفوذها.

الشمس كانت في كبد السماء، حارقة، وكأنها تتآمر مع الملكة لتعذيب من يقف تحت لهيبها. كان الناس يتجنَّبون النظر إليها مباشرةً؛ الأسطورة تقول إن من يطيل النظر إلى الشمس في هذا الوقت سيفقد بصره، وكان الجميع يصدق ذلك. كانوا يرتعدون خوفًا، متيقِّنين أن الملكة هي مصدر كل هذه الأهوال.

عندما قرع الحراس أقدامهم على أرضية المنصة الخشبية، ارتعد الحاضرون وكأن رعدًا قد دوى. وقف الجميع متصلبين، ينتظرون رؤية الملكة التي ستظهر لهم قريبًا. عندما خرجت حُرة أخيرًا، اتسعت العيون وامتلأت القلوب بالرهبة. كانت هيئتها مهيبة، لكنها تجرَّدت من رداء الملكية الفخم المعتاد، وارتدت ثوبًا من الكتان الترابي، فضفاضًا يغطي جسدها بالكامل، إلا أن بعض خصلات شعرها الكستنائي المشوب بالحمرة كانت تتسلل من تحت حجابها.

كان الشعب كله ينحني لها إجلالًا وتقديرًا، ليس حبًّا، بل خوفًا من بطشها. كان حضورها كفيلًا بأن يُجبر الجميع على طأطأة الرؤوس والتزام الصمت. تحب الملكة أن تفرض هيبتها قبل أن تنطق بأي كلمة، وتطمئن أن أحدًا لن يعود من هذا التجمُّع إلا وقد خضع لإرادتها، أو فقد حياته.

بدأت حُرة تتحرك ببطء على المنصة، تسير جيئةً وذهابًا بخطوات محسوبة، كأنها تؤكد سيطرتها على كل شبر في المكان. توقفت فجأة في منتصف المنصة، ورفعت رأسها بشموخ. كانت

تعشق الشعور بالقوة وهو يتدفَّق في عروقها، تلك القوة التي تفوق كل شيء، والتي تمكِّنها من تدمير قبيلة بأكملها بلمح البصر. كانت تعرف أن بيدها مصائر الجميع، وكل ما يتطلبه الأمر هو إشارة واحدة بإصبعها لتسقط رؤوسهم.

بدأت خطبتها بصوت صارم مليء بالتحدي، وقالت:

– أعوذ بالله من شروركم ومكائدكم، الصغرى منها والكُبرى، وأعوذ بالله من أنفسكم الضعيفة الآمرة بالسوء والفحشاء.

ساد الصمت الحاشد، كانت كلماتها ترن في آذانهم كالسياط، فلم يجرؤ أحد على الرد. حتى الطيور توقفت عن الزقزقة، وكأن الطبيعة بأسرها انصاعت لرغبتها. كان كل من في الباحة يطأطئ رأسه، خاضعًا، مستسلمًا.

في ساحة المحاكمة، حيث يحكم الموت والخزي قبضتهما على كل من يجرؤ على العصيان، أمرت الملكة الحراس بإحضار مرجانة للساحة، وخرجت مرجانة عارية مجردة من كل شيء إلا كبريائها الذي لم يستطع الظلم تحطيمه، وقبضت على مقلتيها تحاول أن تحجب عن نفسها نظرات بدت لها وكأنها سهام موجهة إلى جسدها العاري.

كادت الشمس أن تحرق جسدها العاري، بينما تجنَّبت عيناها النظر في أعين المتفرجين، الحشد مكتمل، ورجال المملكة يتفحَّصونها بنظراتهم الجائعة، تلك النظرات التي تمزِّق الكرامة وتجهض الإنسانية، جسد امرأة وقد حُرمت من حمايته، وكأنها

فريسة تنتظر أن تنهشها أنياب الذئاب.

كانـت تعلم أن هذا المصير ينتظرها منذ لحظة خرقها لقوانين وقواعـد المملكة، لكنها لم تتوقع أن تكـون النهاية بهذا القدر من القسـوة والإهانة، لم يكن الزواج في هذه المملكة إلا سرًّا مقدسًا بيد الملكة وحدها؛ هي التي تقرر من يستحق ومن لا يستحق، هي من تقرر مصائر النسـاء والرجال كما تشاء، وكأنها تتحكم بمشيئة الله، بدأ الحشـد يتهامـس، كان الجميع يدرك أن لا أحد يسـتطيع الاعتـراض أو التفـوُّه بكلمة قد تعني الموت. الناس هنا يعيشـون تحت سـلطان ملكـة لا ترحم، ملكة تظن أن القـدر بين يدَيها وأن إرادة السـماء تسـير معهـا فـي كل مـا تفعـل، وكأن مـن يفكـر في الاعتراض على تسلطها فإنه يعارض القدر.

فجأة قطعـت الملكة أحبـال الصمت، صوتهـا القوي يحمل مزيجًا من الشـماتة والتهكُّم، وكأنها تستمتع بتحطيم روح مرجانة أمام الجميع:

– أتخجليـن الآن؟ أيـن كان هذا الخجـل حين عصيتِ أمري وتجرأتي على خرق قوانيني؟! أنتِ عاهرة، لا تستحقين سوى أن تكوني سـلعة يراها الناس، ثم يشـيحوا النظر بعد أن يستمتعوا بما رأوه.

نظـرت مرجانة إليها بعينَيـن ملؤهما الغـل، وأجابت بصوتٍ يحمل في طياته مرارة السخرية:

– إن كنـت مجـرد سـلعة رخيصـة كمـا تقوليـن، لمـاذا إذن

يلتهمونني بنظراتهم، لماذا لا يستطيعون النظر إلى شيء سواي؟

استشاطت الملكة غضبًا إذ لم تكُن تتوقع هذا الرد الجريء. وبنبرة قاتلة مليئة بالحقد، صاحت:

– سوف يتمتع كل رجل بكِ في هذه الساحة دون أن يكلفه هذا شيئًا، ولن تربطك بهم أي عقود، بل ستصبحين متعة مجانية لكل من أراد.

تدفَّقت الدموع من عينَي مرجانة، ليس خوفًا من مصيرها المحتوم فحسب، بل لصمت وسلبية شعب بأكمله أصبح عبيدًا لقوانين الملكة الجائرة، كانت تدرك جيدًا أن هذه هي النهاية، لكنها أبت الاستسلام حتى في لحظة ضعفها الأقصى، اختارت أن تواجه ظلم الملكة بتحدٍّ، وأن ترفع راية الكرامة والكبرياء وتُصر على رفض الخضوع حتى وإن كلفها ذلك حياتها.

لم تتمالك نفسها أو تُراجعها أو تُفكر فيما ستقول. فقد تآكلت قدرتها على الصمت، ولم يعُد لديها ما تخسره. كان الموت يُحلِّق فوق رأسها، لكن الخوف لم يعُد يهم. قررت أن تواجه الملكة، مهما كان الثمن.

– أيتها الملكة، الآمرة الناهية، يا من تظنين أنكِ بامتلاك السلطة تمتلكين العالم بأسره. غرورك أعماكِ عن رؤية الحقيقة. أنتِ لستِ إلا دمية تحركها قوى أكبر منكِ، ممالك ودول تُسيِّركِ كما تشاء. تُطلقين على نفسك اسم «حُرة»، وتظنين أنكِ سيدّة نفسك، لكنكِ نسيتِ أنكِ كنتِ جارية. وربما ملكتِ العرش،

لكنكِ لم تملكي حريتكِ أبدًا.

كانت كلماتها كسياط تنهال على كرامة الملكة، تمزِّق الغرور الذي لطالما أخفى حقيقتها.

– أنـا، التـي عشـتُ حياتي القصيـرة والفقيرة تحـت حكمكِ وظلمـكِ، تذوَّقـت طعـم الحرية أكثر منـكِ. حتى عندمـا خرقتُ قواعدكِ اللعينة، شـعرتُ بأنني عشـتُ حقًّا. ومن أحببتُه، لم ينظر إلى امرأة أخرى سـواي. بينما أنتِ، بعرشكِ وسلطتكِ، لم تعرفي الحب الحقيقي أبدًا.

كانت هذه آخر مرة أبصرت فيها مرجانة ضوء النهار..

في تلك اللحظة، أدرك الجميع أن الحرية ليسـت شـيئًا يمكن أن تُسـلِبه قوة أو ملكة، بل هي شـعور يتغلغل في الروح، حتى لو كان في أشد لحظات العذاب. مرجانة كانت حرة رغم كل ما مرت به من ألم، بينما الملكة بكل ما تمتلكه لم تكُن إلا أسيرة لغطرستها وضحية لغرورها.

وفي أرض بعيدة عن السعادة، والحزن يسكنها، تعيش أرواح تبحـث عن حريتهـا المفقـودة. هناك حيث تعشـق القلـوب رغم الأسـى، وتُحرم مـن الغرام لكن تظل مشـتاقة. فالقلـب لا يعرف قوانين ولا حدود، والهروب من العشق أشبه بالهروب من القدر. وتلك كانت الحقيقة الوحيدة، التي صمدت رغم كل شـيء، حتى بعد أن شُـطبت أسـماء مدينتهـم من خرائـط العالم، وباتوا شـعبًا ضائعًا، تائهًا بين صفحات التاريخ.

مَن يتحكَّم في الهوى وهو الذي على بُساط الأفئدة قد استوى، فـي جُعبـة الأيام نخـط الحكايات، وفـي غياهب النسـيان نُلقيها، لكـن الرُّواة وجدوا كي يغزلوا من خيـوط التاريخ الراوية، وها أنا هُنـا لأرويهـا، كما رويت هـذه الرمال بدمائي ودمـاء أحفادي، ثم شُـطبت من على الخريطة وبات أناسها تائهين ضائعين مُهمَّشين، عاشقين، وتلك كانت الحقيقة الوحيدة.

بعد مرور أكثر من خمسة وعشرين عامًا..

«جواد»

إنها المـرة الأولى التي تطأ فيها قدماي «مملكة غسـق»، تلك المملكة التي لم أسمع عنها قَط، وكأنها وُجدت في أسطورة قديمة منسـية، مدينـة تبـدو وكأنها من نسـيج خيال كاتـب، لكنها حقيقة ملموسـة، يتنفَّس فيها البشـر وتدبُّ بها الحيـاة. وكان فضولي قد دفعني قبل وصولي للبحث عنها بكل الوسائل المتاحة، استنجدت بالتكنولوجيـا الحديثة، فتحت تطبيقات الخرائط، ودخلت عوالم الواقـع الافتراضـي؛ بحثًا عن أي أثر لها. ومع ذلك، لم أجد شـيئًا يقودني إليها، لا إشارات ولا علامات، وكأن هذه المملكة تختبئ عن العالم، غير مسجلة في أي مكان.

تساؤلات كثيرة بدأت تعصف بعقلي. هل تُعتبر هذه المملكة اكتشـافًا؟ هل يجهل العالم بأسـره وجودها، وسكانها الذين رغم قلـة عددهـم لا يظهـرون فـي سـجلات الأرض، ولا فـي تعـداد سكانها؟ هنا، حين يولد طفل، لا تدركه ملفات التاريخ، لا يُسجل فـي أي وثيقـة رسـمية، وحينمـا يموت شـيخ، يُطوى معـه كل ما عايشه في عمره، سواء علم أو عمل، ربما قصة مُلهمة لغيره، حتى يتم حرمانه من تسجيله كمجرد رقم!

هنا أدهشـني عدم وجود أي وسـائل تكنولوجية، فعلى الرغم من كونها مملكة، فإنهم يعيشون على الوسائل البدائية فقط، وكأنه شـعب احتبس داخل بوتقـة حديدية، قبل تركـي موطني ومجيئي

إلـى هنـا، اضطررت إلـى المغـادرة دون أجهزتـي الحديثة، حتى الهاتف المحمول لم يسمحوا لي باصطحابه أبدًا!

بـدت وكأنهـا تصلح مـلاذًا مثاليًّا لمـن يريد العزلـة والتخلي عـن كل وسـائل التواصل الحديثة المزعجة، رغم اسـتحالة الأمر بالنسـبة لأبناء هـذا الجيل، الـذكاء الاصطناعي اختـرق كل بيت، معظم العائلات تسـتعين به، لطهي الطعام، لجلي الأطباق، لشرح المواد الدراسـية للأطفال، أو أن يؤلف لهم قصة قبل النوم، الأمر يصـل ببعض الأطفـال أن ينعت الآلة الخالية من المشـاعر بكلمة «ماما»! حيث تعتبره الأم جليسـة الأطفال الخاصة بهم، لكنه يقوم بأشـياء أكثـر متعة. يفتح لهم مجالات عدة ويقوم بتنفيذ أي شـيء يريدونـه دون تذمُّـر أو تأجيـل، ما هـو الأكثر إثارة ولـذة في حياة الطفـل يمكنه أن يضاهي شـعور تلبيـة رغباته في التـو واللحظة؟ هو لا يريد أن ينتظر، فمثلًا يشتهي حلوى، يطلبها، فيجدها! الأمر بهذه البساطة، وهو ما يستحيل حدوثه مع إنسان حقيقي.

لا أظن أن هناك أشخاص مستعدة للاستغناء عن سُبُل الرفاهية فـي مقابل الحصول على حياة هادئة بطريقة بدائية، إلا قلة يمكنها الاستغناء عن الوسائل الإلكترونية الحديثة لبعض الوقت.

أشـعر أننـي قد سـافرت عبـر الزمـن منـذ وصولي إلـى هذه المملكـة، فأنا من عالم مختلف ومتقدم في كل شـيء على عكس المملكة تمامًا التي تعتمد على أساليب قديمة قد طواها الزمن منذ عقود مضت.

البيـوت عددهـا ضئيل، يـكاد المـرء أن يحصرها بسـهولة دون الحاجـة لإجـراء أي إحصـاءات، ألوانهـا موحـدة، لا يفـرق بينهما إلا أرقـام مدونـة أعلـى الأبـواب، الخضرة نـادرة جـدًّا، الرمال هي المسـيطرة على مملكة غسـق، تحدها من كل حدب وصوب، رمال مسـتوية وملسـاء، آثار الأقدام تلتقطها الأعين بيُسر، الأعشاب جافة كما لو أنها لم تُروَ بقطرة ماء واحدة، أشعر أنني أسير وسط الصحراء، لكن الفارق الوحيد، أنها صحراء تعج بالبشـر، الرؤوس منتشـرة في كل مكان، منهم من يبيع الماء للظمآن، يهتف بصوت عالٍ:

– شـربة مـاء خير لك من ألـف دواء، قليل مـن المال يحييك طيلة النهار.

فالمـاء هنا مصدره الوحيد هو النهر، ومنسـوبه منخفض، ولا يجود على شـعبه إلا بالقليل، المملكة بشـكل عـام تعاني من فقر في الموارد.

هنـاك نسـاء تبيع الأعشـاب التـي يمكنها أن تتحول لحسـاء، وخضـراوات وفواكـه غير طازجـة، وحالتها سـيئة، وتحتاج لبراد ينقذها قبل أن يصيبها العفن!

اسـتقلَّيت عربة تجرها الخيول، فاجتزت مسـافة أطول بكثير ممـا قطعتها سـيرًا على قدمـي، الأجواء الصحراويـة أقل، لا باعة جائليـن، فقـط حقـول زراعية، قليل منهـا جيد، والآخـر في حالة يُرثى لها، بحاجة لرعاية مكثفة وعلاج جذري، لكن يجب فحص التربة أولًا، الحراس يقفون في صفوف متسـاوية. قصر ملكي بدا

وكأنه حصن منيع مُحاط بأسوار شاهقة الارتفاع، تصميمه قديم مماثل لقلعة من زمن بالٍ، حاد كأنما شُيِّد من أغصان الشجر، حجمه عملاق وبه عدد من الشرفات يصعب حصرها، طوَّقته جبال باذخة مكتنفة بضباب حتى في وقت الظهيرة!

العربة تسير بمنتصف ممر هائل من الحرس، حتى بلغت بوابة القصر المهيبة، فتُحت البروج على مصراعَيها بعد التأكُّد من هويتي، وموافقة ملكية كانت كفيلة بأن تكون تصريحًا مروريًّا لهذا الحِصن المهيب، نزلت واصطحبني أحد الرجال حتى دلفت من أول أبواب القصر، كل شيء بالداخل كلاسيكي للغاية، الأرضية سجاد أحمر قانٍ لونه يشبه النبيذ، طُرقاته تُشبه شوارع تحتاج سيارة بالبنزين لتتجول داخله! السير على الأقدام ظلم كبير بحق نفسي ونفس كل من يعيش هنا.

حتى الجدران قاتمة وبها قناديل زيتية قديمة، والديكور ما هو إلا حيوانات محنطة، ثعالب وثعابين وأظن أنني لمحت ذئبًا، يراودني شعور اقتحام رواية فنتازيا أو أنني أصبحت إحدى شخصيات لعبة العروش! على أية حال وقت عرض ذلك المسلسل كان منذ زمن بعيد! أحس أنه من الغباء ذكر كلمة -ديكور- في بلد لا يتحدث أهلها إلا العربية الفصحى السليمة، بماذا أستبدلها يا ترى؟ لا يهم لا داعي لذكرها من الأساس كلانا من عصرين أجهل حقًّا كيف تقابلا أو جمعهما نفس الزمان!

أخيرًا وبعد قطعي لمسافة أثَّرت بشكل سلبي على مفاصلي،

يفصلني عن جناح الملكة باب واحد فقط يدقه الحارس كي تسمح لنا بالدخول، بعد برهه أصبحت بالداخل.

لها طلَّة كملكات الحِقَب العتيقة، التاج في مقدمة رأسها، شعرها معقوص إلا من بعض الخصلات الأمامية البسيطة الكستنائية الداكنة، وجنتان شاحبتان بفعل تقدُّم العمر، لكن ما زال بهما القليل من النضارة والحياة، تتسم بالجمود، أشارت لي بالجلوس، ففعلت.

تنهَّدتْ وقالت:

- مرحبًا بك في مملكتي يا جواد.

من الوهلة الأولى انتابني شعور بأنها ملكة متسلطة، لم تعجبني نبرتها في الحديث، بها غرور وغطرسة مبالغ فيها، استرسلت دون أن تنتظر مني ردًّا.

- آمل أن تكون قد أعجبتك غسق، أنا من أمرت أن تتولى مسؤولية الزراعة في المملكة، بلغني الكثير من الإشادات التي تثني على جُهدك ومثابرتك في عملك؛ فاخترتك بعناية، أنت سعيد الحظ بوقوع اختياري عليك!.

ابتسمت وأومأت برأسي احترامًا لها، مع استمرار قناعتي برفضي لطريقتها.

تساءلت عن أمور ضجَّ بها عقلي طوال رحلتي إلى هنا، وحرصت على طرح الأسئلة بلُطف قدر استطاعتي.

- معذرة جلالة الملكة، أرجو أن تسمحي لي بالسؤال، لِمَ لا

يوجد أي تقدُّم تكنولوجي هنا؟ ولماذا لا وجود لغسق على الخريطة؟

امتعضت وكادت أن تمتنع عن الإجابة، لكنها بالأخير أجابتني فأثارت حيرتي.

– هكذا أفضل للجميع. ستبقى في حمايتي وجوف مملكتي، الجدار الفاصل بين منطقة قصري وبيوت العامة لا ينفتح إلا في الصباح، مسكنك بالقرب من القصر لذا لن تضطر للعبور إلا في حالات معينة، ونصيحة مني لا تتدخل فيما لا يعنيك، اهتم بعملك وبالسبب الذي أحضرتك لمملكتي من أجله فحسب، أنتظر منك الكثير يا جواد، وأنا على يقين أنك جوادي الرابح، فأنا لا أخسر أبدًا!

انتهت وأشارت للحرس أن يصطحبوني خارجًا. تطردني بلباقة! ما هذه المرأة؟! تبدو مصابة بجنون العظمة، تبًّا للكرسي اللعين، يُبدل البشر ويجعل منهم ديوكًا منتفخة الريش، ليتها تعلم كم أتمنى في هذه اللحظة أن أنتف ريشها، كلًّا على حِدة...!

في الصباح التالي دقَّ بابي والمُرقم بباب رقم ١٠، كانت فتاة ربما في سن الخامسة أو السادسة عشر على الأرجح، ترتدي فستانًا مصنوعًا من قماش فضفاض، وشعرها الطويل منسدل خلف ظهرها، تحمل صينية كبيرة بها فواكه وخضراوات وبيض مسلوق ونصف رغيف من الخبز، إفطار لا يليق بمملكة! لكنني كنت أتضوَّر جوعًا، استلمت الطعام وشكرتها، سألتها بفضول:

– أنتِ تعملين في هذا السِن؟ أليس من المفترض أن تكوني

بالمدرسة؟ رمقتني بعينَين تملؤها الريبة، لم تُعقب وغادرت على الفور!

هل كل شعب المملكة صامت ولا يستهويه الحديث؟ أم أنا مَن أثرثر كثيرًا! لا يهم على أي حال سألتهم إفطاري وأذهب لمباشرة عملي.

تعمَّدت السير على الأقدام وأثناء الطريق اصطدمت بأحد المارة، ريثما كنت أطالع الجدار الفاصل بين المملكة والعامة، اعتذرت له ثم لم أتمالك أن أغض بصري عن مدى انبهاري بهذا الحائط، البوابة منفتحة وجنود تحرسها، لا يدخل أو يخرج أحد إلا بعد مروره على الجنود، سد كبير، أو بالأحرى مملكة لها قسمان، ولكن تجمعهما أرض واحدة.

الكثيرون من سُكان القسم الشرقي يترددون على موقع الحقل، وهو وجهتي الرئيسية.

فحصت التربة الزراعية فوجدتها متضررة بشكل بالغ، لهذا السبب تطرح فاكهة لم تنضج بالشكل الكافي، نظام الري أيضًا لا يتناسب مع احتياج الأرض، ليس وفيرًا، والتربة أصابها الظمأ.

– مَن المسئول عن ري الأراضي؟

سؤالي شتت انتباههم، فهُم لا يلتفتون لشيء في وقت العمل أبدًا.

رفع أحدهم ذراعه ملوحًا، ثم ركض لاهثًا، توقف أمامي وأخرج أموالًا من جيبه وأعطاني إياها، بادلته نظرات من البله، ثم

ابتسم بمرح ومد ذراعَيه في دعوة للسلام وقال:

– اسمي نشال، المرة القادمة لا تجعل نقودك مطمعًا لأمثالي، تأكَّد من إخفائها جيدًا.

تحسَّست جيب بنطالي الأيسر، فلم أجد محفظتي بالفعل!

– شكرًا لك! أنا لا أستعمل النقود الورقية منذ زمن، لهذا لم أنتبه.

– من أي مملكة أنت؟

– حسب القواعد غير مُصرح لي بالإفصاح عن موطني، أو التقرُّب من الغرباء.

حك الفتى ذقنه، ضحك وتمتم: بالطبع، كما تحب.

سألته مجددًا عن الأشخاص الذين يهتمون بري التربة وتفقُّد المحاصيل، وفي هذه المرة أشار بسبابته إلى فتاة، وطلب مني أن أتبعه، يمشي بخُطًى مُسرعة، لا تفارق البسمة وجهه، ثيابه فضفاضةٌ، سروال أقرب ما يكون للتنورة. وصدرية مفتوحة تُبرز نحافته.

لكنه توقف عن المشي، تأملني للحظات، ثم قال بتعجب: زيُّك غريب، لماذا ترتدي ملابس بالية؟! لا بُدّ أنك ثري ومن بلاد متقدمة، القماش يعج بالثقوب والحياكة غير المحكمة، يا رجل الخيوط الجلية ألا ترى!

ضحكت بصوتٍ عالٍ، كيف يمكنني أن أشرح له أن ما أرتديه هو أحدث صيحات الموضة؟ وأنني لستُ مجبرًا، بل قمت بشرائه بإرادتي، سيحسبني مختلًا فقد عقله.

أوقفني نشال أثناء السير بعدما ارتجَّت آذانُنا بفعل أصوات

أبواق كادت أن تصيبني بالصمم، هرول الجميع نحو الباحة التي تتوسط المملكة، تركوا أعمالهم وأشغالهم حتى عائلاتهم، فلم أفهم ما السبب؟

- هيا يجب أن نتحرك في الحال!.

غير نشال مسار رحلتنا من منطقة الزراعة إلى الساحة الكبيرة:

- ليس من المفترض عليَّ أن أكون هنا ولِمَ؟.

عندما ترتفع أصوات الأبواق هذا يعني أن هناك إعدام عام على وشك أن يحدث، تأمر الملكة من كل أهل المملكة الحضور، إنها لا ترحم من يرفض المجيء، فكل مبلغها بث الرعب في الأوصال، يثرثر الناس في أوقات التسامر، تتناقل الألسنة قصة شاب خشي أن يشهد إزهاق روح أو تعذيبها أمام عينَيه فلم يبرح بيته، في اليوم الذي يليه أتاه الجُند بأمر من الملكة، نهروه وسألوه عن غيابه، وكان عذره أنه لم يسمع صوت الأبواق، فكان جزاؤه حرمانه من سماع أي شيء طوال حياته، وكان آخر ما سمعه قبيل فقده حاسة السمع هو صوت البوق!

هكذا أرهبت الملكة الأهالي فردًا فردًا، دون الحاجة لإجبار أيٍّ منهم على حضور الإعدام، حتى الأطفال لم تسلم من عنف الملكة، القانون يفرض على الأطفال مشاهدة العقوبات منذ الصِغر كي تتعلم عقولهم الالتزام بالقواعد، وأن مَن يُخالفها تصبح حياته تحت التهديد وقدره بيد الحاكم، إما الصفح أو الموت.

بعد هنيهة اعتلى المقصلة رجل قوي البُنيان، ذقنه طويلة،

وشـاربه أكثر طولًا، يمسـك بسـيف حاد، وباليد الأخرى يجر من خلفه شـابًّا على مشـارف الثلاثين، نحيلًا جدًّا، عظامه بارزة، عارٍ إلا مـن قطعة قماش تسـتر عورتـه، انبلج قفصه الصـدري، كاد أن يشق اللحم والجلد! لم يقُل إلا بضع جمل بسيطة، فهو ينشر خبرًا بين العوام فحسـب، رسـالة يؤديها، والجميع يتابع باهتمام، كمن يشاهد فيلمًا لن يستطيع أن يغير من أحداثه أي شيء، الكل هنا في خانة المتفرج فقط.

– هذا الشاب حاول اقتحام عرش الملكة في الليلة الماضية، وكانـت حُجته أنه يريد كسـرة خبز! كيف أتته الجـرأة لفعل ذلك! فهـو يعلم أن مصيره هو الموت. فليمُت جوعانًا بشـرف خيرًا من أن يزفـر أنفاسـه الأخيرة علـى هذه المقصلـة! العقوبـة المختارة مـن جلالـة الملكة المعظمـة هي قطع رأسـه وتعليقهـا على بوابة المملكـة، ليُصبـح عبـرة لـكل من تسـوِّل له نفسـه الاقتـراب من حصنها المصون.

أنهى كلماته في عجالة وسـحب ذراع المقصلة دون أن يتردد للحظة واحدة، أو حتى يسـمح للشـاب أن يُلقي كلمة أخيرة قُبيل رحيله..

عـمَّ الصمـت الأرجاء لدقائـق، ثم بدأ الناس في الانسـحاب مـن السـاحة رويـدًا رويـدًا، بقيت أنـا وحيـدًا أُحدِّق بذهـول إلى رأس الشـاب المُلقاة على الأرضية الخشـبية اللعينة، والدماء التي انفجرت كنافورة لا تتوقف..

الفصل الثاني

يحلم المرء بعالمٍ خالٍ من الظلم، لكنه يغفل في بعض الأحيان أنه هو صانعه!

لا يـدرك المرء قيمة حياته إلا حينما يسـلبها القدر منه، ولكن مـا هـي الحيـاة؟ أهـي الأنفـاس؟ أم التعلُّـق بالناس؟ أم التشـبُّث بالاسـتمرار حتى لا يفوتنا من جديدها شـيء، تطورها وسـرعتها المرعبـة على التغيير، البشـر والشـجر، البحار والأنهـار، كلها لا تسـلم من عوامل التعرية، لماذا نتمسَّـك بهـا إذًا؟ أهو الخوف من لقـاء المجهـول؟ فلم يعُد أحد قَـط من الموت ليخبرنـا ما إن كان يستحق أن نعتزل الحياة من أجله، فماذا لو كان كل أحبائنا ينعمون بسكينة وراحة نفتقرها نحن؟

كـمٌّ هائل من الأسـئلة تقتحم عقل جواد منـذ البارحة وتفتقر جميعهـا للإجابـة، زارتـه الكوابيـس الليلـة السـالفة حتـى باتـت تلاحقـه، يفيـق من نومـه مفزوعًا حلقـه جاف، والميـاه عاجزة أن تروي عطشـه، ثيابه متعرِّقـة وجبينه رطب وبارد، يُغمض عينَيه فلا يرى إلا رأس الصبي المنفصلة عن جسده، ترجوه أن يساعدها!

ظـلَّ هكذا مرارًا وتكرارًا حتى سـمع الديك يصيح، وبدأ يوم جديد يتعهَّد لنفسـه فيه بأنه سينهي عمله في هذه المدينة في أقرب وقت، يريد الرحيل من هذه المملكة المشؤومة!

فـي البداية، لم يكُن على اسـتعداد للتخلي عن عالمه وسُـبل التواصـل الخارجيـة، لكنه اضطـر للتعايش حتى ينتهـي من عمله ويغادر.

اصطحبه نشـال في رحلة لم يكملها أيٌّ منهما بالأمس، مهمة نشال هي تعريف جواد بالمسؤولين عن متابعة التربة، والتي لاحظ

عليها إهمال شـديد وعدم حسـاب الكمية المناسبة لعطش التربة، هناك تعرَّف على فتاتَين وشاب، فارس، بشرى، وشامة. والأخيرة الحسناء التي كادت أن تسلب جواد عقله من النظرة الأولى.. لكنه احتاج لبعض الوقت حتى فطن ذلك.

فـلا يدرك الحب أبـدًا من يبحث عنه، إنمـا يقتحم قلوب كل من قاتل للهروب منه.

تعلَّقـت عيناه بها، فأشـاح بوجهه بعيدًا، ولـم تبادله ولو نظرة واحـدة، بـات نشـال يحكـي له عن فـارس المسـؤول عـن التربة ورعايتهـا وتزويدهـا بالسـماد والمقويـات، أمـا بشـرى وشـامة، تتناوب كلتاهما على الري وجمع المحاصيل.

اسـتهل جواد كلامـه مع فارس وأفصح عـن انزعاجه من تأثُّر التربة لهذا الحد، حتى إنه وصفها بالتربة الصائمة.

– عن أي مقويات تتحدث؟ لقد أوشكت على الجفاف!.

انزعج فارس من نبرة جواد في الحديث فرد، عليه غاضبًا:

– أنـت المنـوب عـن إصـلاح ذلـك. لـولا فسـاد التربـة لما أحضرتك الملكة إلى هنا!

انفعـل جواد واقتـرب من فـارس، التصقت جبهـة كلٍّ منهما بالآخر، فزفر الأخير وقال جواد بحسم:

– أكثـر ما أتمناه هو الرحيل عن مملكتكـم اللعينة، لذا دعني أنتهـي من الشـيء الـذي أجبرني القـدر عليه للوقـوف معك على أرضك.

هدأ نشـال من روع جـواد وفارس، ليس هنـاك داعٍ ليفرغ كلٌّ منهما غضبه على الآخـر، لكنها تظل طريقة للتخلص من الضغط بإفضائه على أشخاص لا تعرفهم.

عاتبت بشـرى فـارس بسـبب غضبه غيـر المُبرر، فهـي تعلم أن جـوادًا مجـرد شـخص يـؤدي عملـه، ولا شـأن له بما يسـري بالمملكـة، في حين أن فارسًـا نفد صبره وهو علـى يقين بالغمامة القادمـة ويجهلها الناس، تمنَّى أن يصبـح غافلًا مثلهم، ذلك أكرم مـن الوقوف قبالـة العاصفة وانتظـار النهاية وحدك دون مشـاركة معاناتك مع الآخرين..

أبـاح نشـال لنفسـه الإفراج عـن بـركان حنقه، حـدج فارس بنظـرات ذات مغزى، زمَّ شـفتَيه وطلـب من جواد الابتعـاد لتهدأ الأجـواء قليلًا، ثم يعاود ليسـتأنف ما بـدأ، عقله يضج بالكلمات، بـل يهتف ليس هنـاك ثمة فرصـة ليضيعها! ليس اليـوم. جواد هو الأمـل الوحيـد في خنـدق فاصل بين الحيـاة والمـوت، المملكة بأناسـها يعلِّقون آمالهم وأمانيهم بمجيئـه؛ التربة قاربت أن تتلف، كارثة لا يحتملها الأهالي، أو بالأحرى عامة الشـعب الفقير الذي يكابد من أجل إطعام الزاد، أو بعض الفتات البسيطة منه.

نشب شجار عنيف بين فارس ونشال، ألقى اللوم على فارس لإهماله عمله وتفوُّهه بكلمات وصفها بالثرثرة العبثية، مثل مختل لا يفكـر فـي كلامـه قبل أن يخـرج من فمـه، فمـا أدراك أن جوادًا سـوف يبقـى حتى تُحـل مسـألة الأرض والـزاد الـذي ينقص مع

بـزوغ كل فجر؟ بعـد المحاكمة الأخيرة أصابه الذعر من وحشـية ما شـاهده، في عوالـم أخرى خارج حدود مملكتنـا لا وجود لدم مصفود قبل حضور شهود وقضاة، لكن في غسق القاصي والداني ممثلين في امرأة واحدة يتبعها أشباه رجال سخَّرتهم، حتى صنعت منهم جواري بلحية!

أبـاح فارس بما يُخبئه في صدره، وقال بحرقة ثم انهمر الدمع من عينَيه، تحشـرج صوته أثناء الكلام فخـرج مبعثرًا، لكنه ما زال مفهومًا:

– ما أخشاه هو جفاف بطوننا، وليس الأرض يا نشال.

أطـرق الأخير رأسـه فـي غير فهم، شـاركه فـارس ارتيابه من حرمـان أهالي الجدار العازل من الـزاد، أو اختيار الأحق به وترك البقيـة دون طعـام، أليـس هـذا قانـون المملكـة الرئيسـي؟ انتقاء الأشـخاص الذيـن يخدمون المملكة ويسـعون جاهدين في رفعة وسـمو عـرش الحُرة والتمسـك بالقواعد لنشـأة سـلالة لا تعرف المعاناة!

اسـتمعت شـامة لحديثهمـا، حيث وقفـت تتوارى بجسـدها الضئيل خلف أسوار تفصل بينهما، تحركت على أطراف أصابعها وابتعـدت ببـطء، عقلها مُشـوَّش ولا تدري مـاذا تفعـل، أصابتها الحيـرة حينما فكَّرت بجواد، ما الـوِزر الذي ارتكبه ليُلقي به حظه التعِـس فـي مملكتهم الحزينـة، لا بُدَّ أن يغادر ويعـود أدراجه إلى وطنـه، ليـس صائبًـا أن يعانـي بغيـر وطنـه، الملكة سـوف تخلق

الأعذار لتُبقيه حبيسًا مثلما فعلت بكل من خطت قدماه أرضها.

تقف قبالته متلعثمة، تارةً تفرك أناملها التي ترتجف، وتارة أخرى تسكت وتردع لسانها عن الكلام.

لاحظ ارتباكها، اقترب منها بضع خطوات، حينها ميزت أنفه رائحة زهرة اللافندر تحوم في الأفق تنبعث من عنقها، كأنما قنينة عطر قد انكسرت وفاح أريجها، أزاح عنها الحرج وباشر بالحديث:

– تحبين اللافندر؟ إنها زهرة مميزة جدًّا، لا يختارها إلا الجميلات.

تورَّدت وجنتاها خجلًا، فهي لم تسمع مديحًا يتخلله الغزل من قبل قَط، إنها المرة الأولى التي يداعب رجل فيها جزءًا من أنوثتها، أحسَّت أن قلبها يتراقص للحظات طفيفة، سرعان ما عصت الصوت الأنثوي داخلها، تُسيطر عليه؛ لأنها تُدرك أن بهذه الطريقة فقط ستُبقيه آمنًا.

سألها مجددًا، كيف نجحتِ في استخراج الرائحة من الزهرة؟ وأين تعلمتِ ذلك؟

تجاهلت الرد على أسئلته، وألقت بما في جُعبتها دفعة واحدة دون أي تمهيد.

– يجب عليك أن تعود إلى وطنك الذي جئت منه، ولا تسألني عن التفاصيل، حاول أن تحِل مشكلة التربة سريعًا وغادر قبل أن تصبح سجينًا هنا بقية حياتك!

قطَّب حاجبَيه في عدم فهم، ثم توقفت شامة هُنيهة، استدارت وقالت وهي تُطيل النظر إليه.

– قبل أن أنسى، نجحت في استخراج زيت اللافندر؛ لأنني ببساطة أصنع العطور!

ابتسم وأحسَّ بفرحة يجهل مصدرها تتأرجح بصدره، قرر ألا يقطع أحبال الحديث، غازل الشامة التي تقف على استحياء تُزين أعلى شفتَيها الورديتين، فأشار إلى فمه بإبهامه قائلًا بمرح:

– شامة جميلة يا شامة.

هذه المرة فشلت في بتر ابتسامتها فظهرت جلية ساحرة تُذيب القلوب، وتُذهب العقول من فرط براءتها وحُسنها.

بعد آخر مقابلة جمعت شامة وجواد، بدأ يتسلل إليهما إحساس بشيء لم يألفاه، شيء لطالما أنكره جواد ورفضته شامة، حينما يلتقيان يقف الزمان حتى تهنأ الأعين بمتعة النظر للآخر، وإن كانت خاطفة في كثير من الأحيان، فإنها كفيلة بأن يشعرا معها بمتعة الحياة، القلوب تقرع بالضلوع كما الطبول، والدماء تعدو بالشرايين فتبلغ الوتين، مسكين من ظنَّ أنه يستطيع أن ينتصر على فؤاده، في هذه الحالة خصمك هو نفسك التي تتلذذ بهزيمتها على يد مَن أحببت.

ظلا يراوغان ويقاومان عشقهما الذي يزداد مع شروق شمس كل صباح، جواد يحاول أن يُعيد الحياة للمحاصيل والشجر، شامة تجمع الفواكه والخضراوات، وكل ما تجود به الأرض

مـن عطـاء، يعمـلان معًـا، لا يتكلمان إلا فـي إطار مسـتقبل غذاء المملكة، وكأن هذا هو الوعاء الوحيد الذي يسـتطيعان من خلاله إخفاء مشاعرهما الحقيقية، لكن مع كل نظرة كانت الأجواء تتوتر وتفجِّر شـغفهما المخبوء، الأفئدة متى مـا أباحت بما يجيش بها، ضوى صخبها فيُخرس جميع الأصوات حوله.

بمرور الوقت الذي قارب على عشـرة ليـالٍ تقريبًا، أصبحت شـامة ما يدفع جواد للاستيقاظ كل صباح، واحتمال مملكة غسق بكل ما يدور فيها من جنون.

يمازحهـا بملامحه فتضحـك ببراءة ثم تُشـيح بوجهها بعيدًا، ترتابـه الحيـرة، تُرى هل تسـمح لقلبها أن ينجـرف؟ أم تُصر على الفرار دومًا؟ ولم تخشَ أن يراهما أحد متى ما أضحكها أو حدَّثها بود؟

أنهكه ضجيج رأسـه، واختـار أقصر الطُّرق لينعم بالسـكينة، قرر أن يصارحها بأفكاره لعلها تحمل بجعبتها إجابات.

كانـت منشـغلة بجمـع الفواكـه التي يتغيـر شـكلها تدريجيًّا، ملمـس الثمـرات أصبح متجعِّـدًا صلبًـا خاليًا من السـوائل، أهذا محصول تم قطفه للتو؟

احتارت شـامة وهيمـن على وجهها الحزن وهي تُشـاهد كل يـوم ذبـول مملكتها ببـطء، تناثرت خصلات شـعرها الكسـتنائية الذهبية على ملبسـها الأبيض الناصع، فسـتان ريفي بسـيط، يلائم هدوء تفاصيلها، يلاطفها ضوء الشمس لتلمع مقلتاها الخضراوان

بلون الأشـجار التي تنتصفها، تسـتحيل لآية مـن الجمال في هيئة امرأة تنضح منها الأنوثة.

إنهـا أجمل فتاة يمكـن أن تُدركها الأبصـار، حورية من جنان بعيـدة لكن حظها العسِـر أوقع بها بمملكة لا تعتـرف بالحب ولا تقدِّس الجمال.

أصبح جواد خلفها تمامًا ولم تشـعر هي بقربه، هتف باسـمها فخرجـت حروفه عطوفة، ارتجف قلبها واطمأن في آنٍ واحد، كل الأشـياء وعكسـها باتت تمتزج معًا في وجوده ومنذ أن حلَّ ضيفًا على المملكة، وعلى فؤادها أيضًا، انزعجت لهذا الإحساس كثيرًا وأنَّبت نفسـها على أحاسيسـها، تلومها كيف تقع في فخ نصبه لها باحتـراف دون إدراك منـه لعواقـب الأمور، إنهـا خرافات، الحب خرافـة من صُنع البشـر، وسـيلة لإعطـاء الثقة والأمـان بالمجَّان، وريثما ينقض طرف عهده يكون التبرير الوحيد المنطقي هو تحت تأثيـر الحـب! فهل يمكـن أن تلوم شـخصًا لا يعي مـا يفعل على جنونه؟

اسـتدارت وحدجتـه بغضب، عزمـت على الرحيل، أمسـك بذراعها يمنعها، فسحبتها كما لو أنها جمرة تُؤلمها، قال بحنان:

– ما خطبك؟ أريد الحديث معكِ فقط.

ردعته بغتةً بردٍّ قاسٍ لا يشبهها.

– وأنـا لا أبتغـي ذلـك، ولا أطيـق رؤيـة وجهـك، ابتعد عن طريقي!

ما هذه الحِدَّة؟ ولِمَ بدت سعيدة متى غازلها جواد بنظراته؟ ظل في حيرة من أمره لا يفهمها وهي لا تريد التوضيح، انتهى اليوم بغروب الشمس، عادت شامة إلى بيتها بالجهة الأخرى من المملكة؛ فهي تعيش خلف الجدران الغامضة مع العامة.

أثناء سيرها عائدةً إلى منزلها تصحبها صديقتها بشرى، لاحظت عبوس وجهها وسكوتها طيلة الوقت، كانت بشرى قد راقبت شجار جواد وشامة معًا، امتنعت عن التدخُّل فيما لا يعنيها آنذاك، لكنها لا تستطيع الصبر أكثر، أطلقت العنان لفضولها هذه المرة.

- أتحبينه؟

سألتها بشرى دون تمهيد، أحسَّت شامة بصاعقة تهبط فوق سمائها، سؤال تمتنع عن طرحه بين ثنيات عقلها.

وجنتاها تضج بالحُمرة، الخجل والغضب يتصارعان، حتى أصبحا يسيطران عليها بالكامل، برزت عروق رقبتها وبدت جلية بسبب بشرتها البيضاء.

- هل جُننتِ؟ لا وجود للحب، إنه مضيعة للوقت، بل إنه الطريق للنهاية.

اندهشت ملامح بشرى، فما هذه الحِدَّة التي تغلف صوتها؟ إنها مؤشرات النفي، لكنها لا تملك شجاعة الاعتراف إذن.

- أنتِ تكذبين يا شامة، هناك فرق بين الإيمان بالحب قبل أو بعد تجربته، وأنتِ لم تعشقِ لتُصدري حكمًا سابقًا صوب مشاعرك! فمثلًا مَن بالمملكة بأسرها سواكِ يعلم بمدى عشقي

لفارس! أليس هذا دليل على الحب؟.

استنكرت شامة، وضحكت باستهزاء وهي لا تزال تحافظ على نبرتها المحتقنة:

– هذا ليس بعشق يا بشرى، إنه انتحار! تعلمين ذلك أم تودِّين مني تذكرتِك؟ هل نسيتِ ما حدث مع مرجانة؟! أم أنك تبتغين النهاية ذاتها! ما أهمية قيمة حياتي إن سمحت لنفسي التفريط بها؟ أنا لستُ مثلك يا بشرى.

سكتت الألسنة، ثم افترقت عنها بشرى رغم أنها تخشى الظلام كثيرًا، والدروب خلف جدار المملكة لا تُنير إلا بقناديل زيتية عتيقة وشموع صغيرة ينتصفها الليل الحالك، وأصوات الحشرات تشبه الأنين اللعين، أحسَّت شامة بالندم؛ فما ذنب المسكينة بشرى بما تمر به من عبث! هي صديقتها الوحيدة لأنها وحدها مَن اختارتها لتمنحها أغلى ما يمكن أن تقدِّمه شامة لأحد، وهي الثقة.

هي تعي جيدًا أن مملكتها تُعارض الحب، وعقاب العاشق أشد قسوة من عقاب السارق.

غفت شامة هذه الليلة وهي غير راضية عما اقترفت بحق بشرى، من جهة تلوم نفسها ومن جهة تُقدم الغفران لأفعالها، فلا يمكنها أن تقسو على ماضيها وهو الذي صنع منها شامة التي تحيا اليوم بكل ما يحمل بين طياته من فقد وألم.

الفصل الثالث

ما دُمنا لن نستطيع تغيير الماضي، فلِمَ نحرم
أنفسنا من عيش الحاضر، ونضطر
قسرًا لحبس أرواحنا فيه!

لعـدة أيام، خيَّم الصمت الثقيل بيـن الصديقتَين، تعملان معًا في صمت بلا كلمة واحدة، بينما حاولت شـامة كسـر هذا الجدار الصامت الذي شُيِّد بينهما، ولكن بشرى رفضت الانخراط في أي حديث، ولم يُجدِ ذلك نفعًا، فلم تحاول مرة أخرى.

في نهار آخر بينما كانتا تعملان وسـط الحقول انهارت بشرى دون سـابق إنـذار، فاقـدةً وعيهـا وسـقطت أرضًا وسـط الخضرة والمحاصيـل، ارتعـدت شـامة وهرعت لتفقُّـد صديقتهـا، نادتها مـرارًا فلـم تُجِـب، كان فـارس على بُعـد خطوات. حـدَّق بها في ذهـول عاجـزًا عن الحركة أو الكلام انقبض قلبه وارتعشـت يداه، يبتغي الصراخ فيها أن تستفيق، يصيح فؤاده أنه لا يمكنه خسارتها، لا يقوى على العيش في عالم خالٍ من وجودها، وبات يسأل نفسه أيمكـن لصوتـه أن يُحدث فرقًا إن حدَّثهـا؟ أن يبعث أملًا بروحها الغائبة لتعود إليه؟ فلا ضياع وتيه أكبر من العيش بلا حُبٍّ صادق، فما هو احتمال أن يعثر المرء على حب حقيقي! كم من مرة تمنحنا الحياة فرصة أخرى؟ ولكنها حتمًا تسلب شيئًا مقابل ما تعطيه.

لحُسـن الحظ عادت بشرى لوعيها بعدما مررت شامة منديلًا عطريًّـا نافذ الرائحة بالقـرب من أنفها، فتحـت عيناها الحمراوان وهـي مفزوعـة، وضربات قلبها سـريعة تـدقُّ بعنف، لكـن جواد الذي كان قريبًا دقَّق النظر ولاحظ أن بيدها اليسرى زهرة غريبة لم يلحظها أحد في البداية، فتعرَّف على النبتة فورًا.

أحضـر قفـازًا مصنوعًا مـن الخيـش، ارتداه وأمسـك الزهرة

بحـذر، تعجَّـب من وجودها، كيف لم يلحَـظ وجودها طوال فترة مكوثه هنا؟ إنها زهرة الشوكران القاتلة![1]

احتضنت شـامة صديقتها بحنان واهتمام نابع من قلبها بحق، ضمتهـا بشـرى بذراعَيهـا وهمسـت لهـا أنهـا بخيـر، حاولت أن تطمئنها ونظرت إلى فارس المسـكين الذي يتسـمَّر مكانه يصارع رغبة تصرخ بوجدانه تبتغي أن يضم بشرى بين ذراعَيه شوقًا وذُعرًا من شـدة خوفه عليها، ابتسـمت برقَّة تحاول تهدئتـه وإخباره أنها أصبحت على ما يُرام.

سألها جواد باهتمام:

– من أين حصلتِ على هذه النبتة يا بشرى؟ هل تعرفين عنها شيئًا؟

أجابته وهي تجهل ما يرمي إليه:

– لـم أرَ فـي حياتـي أي نبتة تُشـبهها من قبـل، لاحظتها اليوم بالقرب مـن ضفاف النهر، قطفتُ منها بعـض الوريقات ثم عُدت أدراجي.

(١) استعمل الإغريق نبات الشوكران لإعدام المجرمين والسياسيين المعارضين، ويعتقد أن سقراط أُعدم بإعطائه عصير الشوكران، ويُعد الشوكران من النباتات الشديدة الخطورة؛ ذلك أن أوراقه يمكن أن تختلط بأوراق البقدونس (للتشابه بينهما) كما تختلط ثماره بثمار اليانسون. تُمتص المكونات السامة من خلال الغشاء المخاطي للفم عند مضغ النبات، وتظهر علامات التسمُّم بعد نحو ساعتين من التغذي بالشوكران، على شكل عُصاب، يلي ذلك رجف الأطراف، والترنُّح في المشي، ثم هبوط عام، وبطء في عمل القلب والجهاز التنفسي، ثم الموت الناتج عن شلل الجهاز التنفسي، والذي يحدث خلال ٥ – ١٠ ساعات من بدء ظهور الأعراض، ويؤدي التسمم غير المُميت إلى الإجهاض. وتشير الدراسات إلى أن رائحة النبات سامة عند تنفُّسها.

سألها جواد باهتمام بدا على محياه، مما تسبب في ازعاج وغضب شامة، نالت منها نيران الغيرة هذه المرة بالرغم من خوفها على بشرى، إلا أن أسئلة جواد ولهفته تضايقها، داخلها ينفر إحساس الغيرة، ولا تقوى على إخماد لهيب حريقه، تثور وتقاوم في صمت.

– هل دفعك فضولك لتذوُّق أيٍّ من أوراقها؟

أجابت بشرى جواد إجابةً قاطعة:

– لا! لم أفعل، ظننته نبات البقدونس في البداية، لكن رائحته كريهة للغاية، كدت أن أُفرغ ما في معدتي!

انتقل جواد ببصره إلى الجميع لينتبهوا لما هو على وشك قوله:

– إنها ليست كريهة فحسب، بل قاتلة! لا تقربوا هذه الزهرة أبدًا، تناولها يمكن أن يودي بحياة إنسان، رائحتها ولمسها يسبب الدوار والطفح الجلدي والحساسية! هل يسمعني جميعكم؟.

ردد جواد جملته مرارًا وتكرارًا حتى يُصغي إليه الجميع، بالنسبة لجواد أن ينبت هذا النوع من النباتات على ضفاف النهر يُعد مؤشر خطر، فهو قاتل بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فهو يعي تاريخه جيدًا، وقام بعدة دراسات له سابقًا؛ لأنه يصنف ضمن أخطر النباتات على وجه الأرض، ويمكن أن يتسبب في حدوث إجهاض أو مشاكل بالتنفُّس.

ظلت الشكوك تساور جواد، جلس قرابة النهر وتفحَّص الأزهار جيدًا، وصدق توقعه حقًا. إنه نبات الشوكران؛ مما ساعد

فـي تفاقم قلـق جواد، فهو يعلم أن هذا النوع مـن النباتات عادةً ما ينمـو في الغابات، وطرحه بالقرب من النهر يُعد إنذار خطر ونذير شـؤم. يشعر بالمسـئولية حيال المملكة، وماهية المأزق الذي من المحتمل الوقوع فيه.

اسـتدار جـواد ليجد شـامة تقـف خلف ظهـره تمامًـا، تبادلا النظـرات والتـي طالت لدقائـق أهداها لهمـا الزمـان، أبعد جواد عينَيـه عنها بصعوبة، وقـاوم رغبته في التدقيـق بملامحها وحمرة وجهها، كيف يطمس الإنسـان حبَّه بيدَيه؟ يضطر قسـرًا لأن يكبح جموحه؟ ولماذا تحول العشـق في عالمنـا لخطيئة رغم أنه بمثابة حلوى تُحلي الحياة، وتُسـكر المرء عن جميع آلامه، كيف يهرب مما يدفعه للعيش ليسلُك دروب أخرى تؤدي إلى هلاكه!

– تبدو قلقًا، ماذا تعني لك غسق لتفكر وتقلق بشأنها؟.

سألته شامة بنبرة حنونة وحيرة تنهشها.

– لا تعني لي المملكة الكثير فهي ليست موطني، ما يهم حقًّا هي الأرواح التي تسكنها يا شامة، وهذا ما يشغل بالي وفكري.

أثـار كلامـه إعجابها، فهو إنسـان بحق، يهتم بشـأن الآخرين للحـدِّ الـذي يسـلب منـه الراحـة. وأفعال مثـل تلـك اندثرت في المملكة منذ زمن بعيد وعهدها قد ولَّى، الجميع يعيش اليوم لينال مكافأة الغد لنفسه، ومن أجلها فحسب.

ارتجفـت أناملهـا بعدمـا وضعتهـا بحنـان على كتفه الأيسـر لتُربـت عليـه في تأثُّر وتخبـره ريثما تنظر في عينَيـه، تبدَّلت الحدة

التـي في نبرتها بشـكل ملحوظ لتصبح أكثـر نعومة، وتطغى عليها الأنوثة.

– أنت رجل صالح يا جواد، خير ما فعلت أنك جئت لمملكتنا البائسة!.

– يا له من رجل نبيل، سأفكِّر بتعيينك في منصب مساعد كبير المزارعين لإخلاصك وتفانيك في عملك!.

جـاء صوتـه الجهـوري مـن مسـافة بعيـدة وعينـاه لا تنذران بالخيـر، بـل يطلق شـررًا تباين في نبرتـه، واللهجـة المتعالية التي تكلَّم بها، ولمَ لا وهو الأمير شاهر الابن الوحيد للملكة!

سـخر شـاهر من جواد ووصفه بالسـاذج عديـم الخبرة؛ لأنه اسـتمع للحديث الذي دار بينه وبين شـامة كاملًا، أضاف عبارات اخترقت صدر جواد من حدتها.

– ألـم يخبـرك أيٌّ من رجال المملكة عـن عقوبة الوقوف مع فتاة منفردًا؟ أم أنك غبي لا تفهم!.

أوجعت حروفه رجولة جواد وصاح به بصوت جلل تطايرت فيه كلماته كالرصاص:

– مَن أنت لتتدخل فيما لا يعنيك! أنت لا تعرف معنى الرجولة التي تذكرها، أنت مجرد صبي يلعب بألسـنة الكبار، لكنك لسـت منهم.

صـرخ شـاهر بصـوت هادر يهـز الأرض مـن تحتهـم، وكأن المكان بأسره يخشى غضبته وارتجَّ المكان بصوته الجهوري:

– أيهـا الحراس، قالهـا بصوت كالريح العاتيـة التي لا يمكن إيقافها. مَن الذي لا يهاب شـاهر؟ الجبال نفسـها تخشى أن تُقتلع مـن موضعها متى مـا جهر، نبرتـه غليظة، وذقنه عريضـة، ولحيته كثيفـة وطويلـة، سـوداء داكنـة، حاجباه عريضـان، عيناه شـديدتا الاتسـاع، نظراتـه حادة على الـدوام، وحديثه فـج، مُتعالٍ وصارم وقاسـي الطباع، والأهم مـن هذا كله، أنه لا يملـك إلا قلبًا واحدًا وهبه ليعشق فتاة لم تُحبه أبدًا.. شامة!

وصـل الحـراس فورًا ينتظـرون الأوامر واقفين في اسـتقامة، كأن أرواحهم تتعلق بكلماته، مسـح الأخير شـاربه الكثّ بيسراه، ثم بات يُفكر بعقوبة يستحقها جواد لتطاوله على سمو الأمير!

أعطاهم إشـارة يعرفونها جيدًا، أمسـك أحدهم ذراعَي جواد وقيدهما خلف ظهره، ركله آخر حتى سقط بجسده أرضًا ولامس وجهـه الطين الذي يقرب النهر، حـاول جواد المقاومة، لكن دون جدوى، ابتسـم شـاهر بتشـفٍّ وهو يراقب نصـف وجهه يحتضن الأتربـة، راقبـت شـامة في صمـت ما يجـري تنتابها غُصـة تحرق صدرها، تبغض شاهر، وتلعنه أن يُخسف به الأرض لترتاح جميع المخلوقات من شره..

أحنى شـاهر طرفَي شـفته اسـتفاهًا، ووضع قدمـه على وجه جـواد ليدهسـه بنعلَيـه إذلالًا، التصـق فـك الأخير حتى لامسـت أسـنانه السـفلية قطعة خبز متعفنـة تتحلل على مهـل، كان مذاقها لاذعًا وشـنيعًا، أحسَّ جواد في هذه اللحظـة بالمهانة والذل، كما

لـو أنـه جرَّده من إنسـانيته، كاد دمعـه أن يُذرف رغمًـا عنه؛ فهو لا يستطيع الدفاع عن نفسه أو المقاومة. شيئًا بداخله في هذه اللحظة انشـطر إلـى نصفين لن يفلـح بعدها ترميـم أو إصلاح، لقد فسـد تمامًا، وتملَّك منه الإحساس بالعجز.

ضغط شاهر بقدمَيه على عظام فكِّه بقوة أكثر، امتنع جواد عن الانفجار بالصراخ من الألم المبرح، سـهم يصيب جسده والآخر يجتاز رجولته..

– يبـدو أنك لم تتعرَّف إليَّ بعد، أنا الأمير شـاهر ولي العهد، والحاكم القادم لهذه المملكة، أعطيتك نبذة عمَّا يمكنني القيام به ليـس إلا، حتى تتعلم الكلام بأدب مع أسـيادك! أنـا واثق أنك لن تنساني من بعد هذا اليوم وطيلة حياتك.

انفجـرت شـامة بالكلمـات، اندفعـت دون أي إرادة منها، لم تسـتطع الخرس أكثر، كرهت الاستسلام للأمر الواقع والانصياع للقواعد ووحشـية شـاهر في التعامل مع البشـر أجمعين، وخاصةً جواد، لِمَ كل هذه القسوة؟ والأهم لماذا يعتصر قلبها حزنًا لأجله! أليس رجلًا عاديًّا ككل الرجال!

فاض بها وطفح كيلها، لم تأبه بعقابه أو بطشه، قالت ببغض:

– كفـا! يكفـي يكفـي يكفي! كفـاك ظلمًا! ألا يشـبع الوحش الذي بداخلك أبدًا!.

تحـرَّك أحد الحرس صوب شـامة فأوقفه شـاهر على الفور، ظهـرت عـروق نافـرة فـي عنقهـا وهـي تحدجـه بغـل ينضح من

مقلتَيها، رفع حاجبه في إعجاب من جرأتها، ثم أمرها أن تهدأ. أومأت برأسها إيجابًا، لكنها لن تطيع الأمر، داخلها ثورة عارمة لا تخمد، سألها بهدوء:

– ماذا تريدين يا حلوة؟ هل يعني هذا الفلاح لكِ شيئًا؟.

أجابته شامة في استنكار:

– إنه ليس بفلاح أو مزارع، بل خبير زراعي، يهتم بالتربة وبالغذاء الذي أوشك على النفاد بالمملكة بأثرها، يحل المشاكل من جذورها، واكتشف للتو زهرة قاتلة! أهكذا تكافئ من يُحسن التصرف لمصلحة المملكة العامة؟.

أزاح شاهر نعلَيه عن وجه جواد، وأمر الحرس برفعه عن الأرض، وقف مقيَّد الأيدي وغائب الروح كمن طُعن بسكين. الفارق الوحيد أنه لا ينزف، ربما دُمي قلبه، لا يدري..

في قانون المملكة، من يسيء لأحد من أفراد الأسرة الحاكمة ولو بنظرة يكون عقابه هو السجن لمدة عام، لا يرى فيه نور الشمس، أما شاهر فلم يكُن مراده تطبيق القانون، بل أراد كسر جواد في عين شامة، وأن يجعل منه مجرد جرذ ضعيف يمكن هزيمته بسهولة!

طالعها الأمير بخُبث وقال:

– حسنًا، يمكنني تطبيق القانون، ولن ينال حريته إلا بعد عام.

أجابته بثقة:

– خلال هذا العام لن تجد مملكتك الزاد.

– هل تطلبين مني إطلاق سراحه؟

– لا يا سمو الأمير، لستُ أنا من أطلب، بل جلالة الملكة هي التي لن تسمح بسجن جواد، المملكة بحاجة إليه.

– ما هذه الوقاحة في الكلام مع سمو الأمير؟ هل فقدتِ عقلَكِ!.

كان هذا صوت أحد الحراس يُنذر شامة من التمادي في أسلوبها، أشار له شاهر بالتوقف ففعل. سيُطلق سراح جواد، هذه المخلوقة تخبره بالحقيقة، لن تسمح أمه بالتلاعب في شيء يمس المملكة، يلهو ويلعب كيفما شاء لكن دون الخوض في أمور لا تعنيه، لكنه بذات الوقت أراد الانتصار على جواد، وأعطاه درسًا في صميم رجولته، جشعه لم يردعه عن الاكتفاء بما أفسد، ابتسم ابتسامة تنمُّ عن دهاء بالغ، وأطلق جملة أشبه برصاصة استقرت بصدر شامة.

– أنتِ محقة، سأتركه من أجل مصلحة المملكة ولأجل عينَيكِ حتى لا أرها حزينة، لكن تذكَّري، سيأتي يوم تردين لي فيه هذا المعروف، في وقت سأحدده أنا.

غادر هو والحرس، وترك جواد مقيدًا ومُلقًى أرضًا يتملَّك منه شعور أنه هش مثل ورقة شجر، ليته بالخفة التي تجعل الرياح تحركه بحرية من مكمنه، أما شامة فأصابها الضيق والخوف من شاهر وشردت تخشى المجهول، خاصةً مع مخبول كهذا الأمير.

اقتربت من جواد بحنان، فكَّت قيده وبطرف تنورتها مسحت

وجهـه مـن آثار وحل التربـة الذي طالـه، أطالت النظر إليه تشـعر بالأسـى حياله والحـزن يجتاح قلبها، أما عن جواد فهو شـريد في عالـم آخر لعله يسـتطيع تغيير ما حل به من مهانـة، تمنَّى أن يكون كابوسًـا وينتهـي أو أضغاث أحلام، لم يدرك أنـه حقيقة إلا حينما ضغطت شـامة على جبهته لتزيل أثر صخرة ضئيلة أحدثت ثنيات في جلده، تلتئم مع الوقت وثقوب في روحه تدوم للأبد..

«جواد»

مـا أصعب أن يشـعر المرء بالهـوان، وهنا أنـا لا أعني هواني على الناس، بل هواني على نفسي وانعكاس روحي المنكسرة في مرآتـي الخاليـة من الخـدوش وروحي التي تعجُّ بشـذرات. مهما امتلكـت من كلمات لـن تفلح في التعبير، ولـن تصل لمبلغ الألم النابع من روح تذوقت مرارة الهزيمة.

قابلنـي نشـال وأنا في طريـق عودتي إلـى داري التـي أمكث بهـا هنا، كنـت في حالـة مزرية تصطحبنـي شـامة، والتي رفضت أن تتركنـي وتغـادر، خاطرت بالسـير معـي في سُـبل المملكة في حُلكة الليل خشـية أن أصبـح بمفردي، لكن ريثما اسـتندت على كتف نشـال بادلتنـي نظرات حنونـة ظننتها في بداية الأمر شـفقة، لكنهـا حقًّا تهتم بأمري، ودَّعتني وربتـت على كتفي بدفء تغلغل لأوصالي، أردت أن أدفن رأسي بين ذراعَيها، رغبة مُلحة سيطرت على فكري، وهو أمر أشبه بالمستحيل تحت سماء غسق اللعينة!

شـامة فتـاة مختلفة شـجاعة ومتمـردة، وتملك مـن الصلابة مـا يجعلها تواجه بقلب مغـوار يصعب إيجاده بيـن الإناث، اليوم اكتشـفت جانبًا كانت تخفيه عني طوال الفترة السـابقة، إنها رقيقة وحنونـة، لا يمكن لهاتَيـن العينَين أن يكذبا، انبعث منها حُب ملء فؤادي، ربما كانت شـفقة! لا أدري، أشـعر بتشـتت يفتك بنفسي، لربمـا أصـارع رغبـة بداخلـي ترجـو ألا يكـون إحساسـها مجرد

عطف، أريده حبًّا، عشقًا يسبح بالوريد، أريد هذه الفتاة.

منذ الوهلة الأولى التي رأيتها فيها لم تمر ليلة لم تزُر فيها هذه المخلوقة فكري، وأحيانًا أخرى كانت تتسلل إلى أحلامي بلا استئذان، لكن ما جرى هذا الصباح، أظن أنه سيفقدها احترامي كرجل، لقد انكسرت في عينَيها، لن أصبح في نظرها جوادًا الفارس بالحصان الأبيض، حلم الفتيات، بل مجرد نصف رجل يتلقَّى الصفعات والإهانات ويتعرض للمذلة، لم يفلح في حماية نفسه، فماذا عن حماية فتاة مثلها؟ أم هي مَن عليها حمايتي؟

رأسي تدور وألف شعور يجتاحني، يفتك بي، لكن تملَّك مني شعور واحد فقط، توقي للانتقام من شاهر ونثر كرامته في أرجاء المملكة، أود افتراسه وتقطيعه إربًا حتى لا يكرر فعلته مع شخص آخر، ويعاني مثلما أعاني، رؤيته مذلولًا وخاضعًا وحده ما يمكنه أن يضمد جراحي، ولن أترك المملكة حتى أثأر لنفسي مما حل بي، سأدمِّره!

تحسَّستُ فكي، فلم أشعر بشيء. الخدر يسري بجسدي والنعاس يهيمن عليَّ رويدًا رويدًا، استسلمت للفراش، أغمضت عينَيَّ، واستكانت رأسي ورضخت روحي الليلة بعدما قطعت معها عهدًا بحفظ ماء الوجه في القريب العاجل، أو لتغادرني هي بشرف خيرٌ من البقاء مع جبان مثلي!

في صباح اليوم التالي لم أكُن مستعدًا للقاء أحد، أو أن تجمعني الصدفة بالحرس الذين يجوبون المملكة، خاصةً

أولئـك المعتدين علـى كرامتي بالأمس، أشـعر بالخزي والخجل إذا سـرت بينهم، كما لو أنني عارٍ يتجول بين العوام، ارتديت ثيابًا كتانية فضفاضة، هذَّبت شـعري ولحيتـي الخفيفة، وتمعَّنت النظر بالمـرآه إلى الخـدوش المُصـاب بها جلـدي الرقيق حـول الفم، مُلتهب بشكل حارق للغاية، تمنَّيت وضع شيء مُثلج حوله، لكنها أمنيـة بعيدة المنال هنا، غادرت حجرتـي وترجَّلت أجول طرقات المملكة بحثًا عن شامة..

كم أردت رؤيتها، وأحسست بحاجة ماسَّة لوجودها بجواري، تسـاندني وتشد أزري، بحثت عنها في كل مكان محتمل فلم أعثر عليها، سـألت نشـال فأخبرني أنها لـم تأتِ هذا الصبـاح وأبلغت بشرى أنها في حالة راحة، وسوف تباشر عملها من الغد.

انتابنـي الحنيـن، وأخـذ يندفـع بعروقـي واتخـذت قـراري بالذهاب للشـق الآخر مـن المملكة القابع خلـف الجدار، أظنني بحاجة لمسـاعدة نشال كي يسمح لي الحرس بالعبور، قُمت بدق بابه ففتح، بنصف عين يحاول استيعاب من يقف على عتبة كوخه، فهـذا ليـس بيته، بـل مكان مخصص لسـاعة مـن الراحـة يتخذها العاملـون بـالأرض، ومـن المفتـرض أن يقضي الليلـة ولن يعود لمنزله بشفق إلا صباح اليوم التالي، تثاءب بكسل واعترى قسماته البله، حدثته بحماس:

– نشـال، أخبرنـي كيف يمكننـي أن أبلغ الجهـة الأخرى من المملكة؟

فنجل عينَيه في يقظة مفاجأة حلَّت عليه، وقال:

– لا بُدَّ أنك تمزح معي يا سيدي، هذا بمثابة انتحار! لا يحق لأي أحد أن يسلك بوابات الجدار إلا بإذن من الملكة.

– ولِمَ لا؟ إنه الجزء المخصص للعوام.

– ولا يُدرك خباياه إلا العوام يا جواد.

– لماذا قلت لي سيدي منذ قليل، ثم استبدلتها بجواد فقط؟

– أتريد مني أن أنطق سيدي فقط حين أناديك؟

– بل أريد أن أفهم.

– ببساطة، سيدي لأنك رئيسي في العمل، وجواد لأنه اسمك، ولأنني أشعر أننا في طريقنا لأن نكون أصدقاء، رغم أن معرفتي بك كانت بدايتها السرقة، يا لها من صداقة مشرفة!

ضحكنا معًا على سخرية القدر، ولكن لا يمكنني إنكار أن نشال بالفعل أصبح بمثابة صديق لي بغسق، وعملنا معًا أسهم في تقارب المسافة بيننا، لذا أراد حقًّا الوقوف بجانبي، حكَّ شعره وراح يسألني بمكر:

– هل تريد شيئًا من شامة؟ أم تودُّ رؤيتها؟ لهذا تبتغي الذهاب إلى شفق!.

شفق هو اسم الصوب الآخر للمملكة، وهي المرة الأولى التي أتعرَّف فيها على اسمها، لماذا تنقسم المملكة لشقين مثلما لو كانت بلدتَين متفرقتَين؟ ألم تجمع بينهما الأرض ذاتها؟ فلِمَ الفُرقة إذن؟

لـم ترُق الفكـرة لنشـال، وبدى عليه عـدم الاقتنـاع، أخبرني بالرجـوع عمـا يـدور بخلـدي، لكننـي حسـمت أمـري، بالأخير أريد رؤية شـامة، وهـذا أمر لا يحتمل التأخير. لم أفهم مشـاعري حينـذاك، لِـمَ العجلة وأمامي اختيار آخر يخلـو من المجازفة التي لا أدرك عواقبهـا، لكننـي لم أتعرَّض لأن تشـاهد امرأة ضعفي من قبل، ولكن القدر جمعني وشامة في أن ترى نوعًا مختلفًا من القهر والذل أمام عينَيها. ورغم سلبيتي ورضوخي اختارت أن تساندني ولم تبتعد أو تشمئز مني..

وضعنا خطة محكمة حتى نقتحم شـفقًا في سكون الليل دون متاعب أو خسـائر فادحة، سـيطرت عليَّ رغبـة بلكم الحراس في أنوفهم لتتهشـمَّ بقبضتي وأعيد شيئًا من كرامتي التي تناثرت كقطع صغيرة تعبث بها الريح، يملك نشـال عربـة متهالكة يجرها حمار نحيـف، أظنه عجـوزًا ومصابًا بمرض ما، أجهل كنهـه، يؤثر على صحة عظامه، ويسـبب رجفة خفيفـة لا يلاحظها إلا القليل، اعتاد نشـال أن يبيـت حماره وعربتـه جوار منزله كل ليلـة، لذا بدا الأمر عاديًّا، لكن ما أثار شـكوكه حول احتمالية عبورنا بسـلام أو تعثرنا لتـدق المصيبـة ديارنا، هو اعتيـاد الحراس التفتيـش حتى يتأكدوا أنـه وحده، وأنا كنت أقبع خلف نشـال. تهتز العربة الخشـبية وأنا أتسـتَّر أسـفل قطعة قماش من الخيـش السـميك، يخترق جلدي بخشـونته كما الشـوك، تكركبت معدتي، فصـارت تُصدر أصواتًا عالية من حين إلى آخر مع اقترابنا من البوابة، توقفنا فجأة فعلمت أنها اللحظة الحاسـمة، تسـارعت دقات قلبي وخفت بشدة من أن

ينفضح أمرنا، سمعت نشال يتحدث مع الحارس عن مشاجرة دارت في الصباح بين امرأة وبائع اللبن لأنه لا يريد إعطاءها رطلين، رغم أنها سبق وأن دفعت له ما يقابله من المال! يا له من محتال، وأخبره كم تأثَّر ببكاء المرأة، وهنا تغيرت نبرته من الحزن إلى الحذر، وقال بنبرة أخوية ترتقي للعشم غير المُبرر؛ احذر يا أخي إذا كانت لديك أم أو زوجة كما ترى المملكة تتحول رويدًا رويدًا من وطن إلى ساحة كبيرة تلتهم سكانها وحقوقهم!

يبدو أن نظام الإلهاء الذي اختاره نشال بدا يُجدي نفعًا!

انفتحت البوابات الحديدية وعبرنا بسلام. لم تمر ثوانٍ إلا وسمعنا معًا اسم نشال ينطلق من لسان الحارس لترتجف أوصالنا:

- توقف!.

- أليس من المفترض أن تعود إلى ديارك وتترك الكوخ في الصباح؟ لماذا عُدت مبكرًا؟.

أجاب نشال بهدوء مُفتعل:

- لقد أنهيت خدمتي، ولن يلاحظ أحد غيابي يا فتى، سأعود مبكرًا، لا أستطيع النوم إلا على فراشي.

تبادل نشال والحارس الضحكات ليقول الحارس بصوت جلي:

- أنت رجل صالح، ومكافأتك اليوم إعفاؤك من التفتيش يا فتى!.

تنفَّست الصعداء، وتنهيدة نشال تخترق أذني، تبدَّد داخلي الخوف، وبدأت أحس ببعض الراحة.

انفصلنا حتى لا نُثير الشكوك واتخذت الطريق سيرًا حتى بيت شامة كما اتفقنا أنها نقطة الالتقاء، في دجى الليل لا صوت يعلو إلا من همسات رياح خفيفة تدغدغ جسدي، لا وجود لأي أضواء تُذكر، إنه فقط أنا والنجوم تصحبني وتنير لي المسلك من حدة العتمة، لا أدري لماذا شعرت براحة لا أملك لها تفسيرًا؟ كنت مستمتعًا بالسير وحدي وبتعقُّبي للنجوم أُحدِّق فيها ببلاهة طفل يتبعها لعله يبلغ لها نهاية، والهواء عليل ومُنعش، أحسست أنني غادرت المملكة الكئيبة التي تفوح منها رائحة الدماء! بِتُّ أتسائل هل تتغير الأرض بتغيير حكامها وقواعدها؟ هل يغضب عليها مناخها فيتغير كما تغيرت القوانين على أصحابها؟ أيوجد احتمال لتعارض الطبيعة مع قرارات البشر؟ وإن ثارت كيف لنا بالمواجهة؟

أبرمت اتفاقًا مع نفسي أنني سأتحدث باستفاضة مع شامة في كل العوامل التي أدَّت بي للوقوف أمام عقر دارها في هذه الساعة المتأخرة من الليل، دققتُ الباب بهدوء حتى لا ألفت الأنظار أو أفيق النائمين، بعد قرابة الدقيقة فرجت الباب نصف انفراجة بريبة وقلق، رؤيتها لي جعلتها تفغر فاها في تعجُّب واضح.

صمت كلانا للحظات حتى ظهر نشال أخيرًا ليقطع أحبال الخرس تلك، ألقى عبارة مازحًا بعفوية:

- لا وقت للاندهاش، ادخلا وإلا سنصبح جثثًا قبل مطلع

الفجر!، ولأنه محق ضحكنا معًا بعد أن أصبحنا بالداخل.

بيتها كان بسيطًا للغاية، أبسط من المتوقع، أريكة من الحجر مُبطنة بالقطن ومغلفة بقماشة مزركشة، غلب عليها اللون الأحمر، موقد تمثَّل في حفرة كبيرة بها رمال وصاج حديدي يُشعل يدويًّا، وبجواره أواني عريضة خشبية ومعدنية للخبز والأكل، وسرير صُنع بنفس فكرة الأريكة تمامًا، لكنه يحتوي على وسادة، لا يوجد حوائط فاصلة بينها حتى يتسنَّى لنا تحديد منطقة النوم، فلا يوجد حتى أبواب سوى الذي فتحته لنا شامة منذ قليل، وآخر بكل تأكيد هو لدورة المياه، وأظنه لهذا السبب يتمتع ببعض الخصوصية.

تفرَّست فيَ شامة بعينَيها وراقبت نظراتي التي تتفحص بيتها باهتمام وعلى الرغم من كونه بسيطًا، غير أنه يمتلك من الدفء ما يكفي لتغيير نفوس الكثيرين وبعث الطمأنينة في قلوبهم المنكسرة خلف أسوار مملكة بدت وكأنها قفص حديدي ضخم يقهر كل سجنائه.

تنحنحت حتى يفطن نشال إنني لا أريد التكلُّم معها في وجوده، وصلته الإشارة متأخرة، ولكنها خير من ألَّا تصل أبدًا، تحججت بمراقبة الطريق حتى ننتهي وخرج.

– أشكرك على كل ما قدمتِه لي من عون، والمجازفة بحياتك من أجلي.

قلتها بنبرة طفل يتعلم الكلام، خرجت كلماتي ساذجة رغم صدقها.

رفعت حاجبَيها في دهشة واندفعت قائلة:

– أقطعت كل هذه المسافة وجئت إلى منزلي في الليل وأنت تعلم مدى فداحة الأمر إذا فُضح، لتشكرني! كان بوسعك أن تنتظر للصباح!.

اللعنة، إنها مُحقَّة، فأنا نفسي احترت في أمري، ولا أجد إجابة تُريح قلبي أو تجيب عن أيٍّ من الأسئلة التي كانت تدور بداخلي..

خرجت مني الكلمات في شكل أجزاء لا تكوِّن جملة مفيدة، كادت أن تطردني أو تظنني مخبولًا، اقتصرت الطريق وعبَّرت عما أشعر بلا تفكير أو ترتيب، انطلقت كقطار سريع لا يوقف سرعته الجنونية شيء.

– أظن أنني أحبك! أردت إخبارك أنني سأقاتل من أجل محو هذا الشعور والتخلُّص منه، أنتِ الوحيدة التي رأتني منكسرًا، ولا تعشق النساء الرجل قليل الحيلة، كما رأيتِ جعل حراس الأمير الأحمق مني خُرقة بالية وجرحوني في كرامتي جرحًا غائرًا ما زال ينزف، لكنكِ وبشيء أقرب للمعجزة نجحتِ في إيقاف الدماء والزمان سويًّا، ضمدتِ جراح قلبي بحنانك، أنا ممتن لكِ ما حييت؛ لأنكِ جعلتِ قلبي يدق من جديد بعدما ظننته فقد الإحساس بالحب للأبد! لكنني سأضطر آسفًا للابتعاد، لأنني لن أحتمل نظرة شفقة من عينَيكِ الرقيقتَين، فهذا خنجر يطعنني في الروح بلا رحمة.

تـورَّدت وجنتاهـا وابتسـمت رغمًـا عنهـا، حينهـا زقزقـت الفراشـات بمعدتـي وددتُ أن أمزقهـا جميعًـا، وأمنـع سـربًا من الأحاسيس يتدفَّق بعروقي ففشلت، لحظات وجاء ردها:

– نتشـابه فـي رفضنا للعشـق، أنا أيضًا لا أملـك حرية إطلاق العنـان لقلبـي، مملكتي ترفـض الحب، وراح ضحيتـه الكثيرون، أقرب الأقربين.. طوال حياتي أمتنع عنه، أبغضه وأظنه أسرع سُبل الانتحار، أو طريقًا مختصرًا للموت. أما عنك فأنت خير الرجال، وبالنسـبة لي لم أرَ انكسـارًا، بل شـررًا ينطلق من عينَيك وتوعُّد لا يُنذر بالخير. المنكسـر يستسـلم ويرضى للمصير، وهذا ما لم أرَه فيـك قَط. لقـد تكالبت عليـك الأعـداد والقدر والسـطوة، وأنت بالنهاية إنسان، ما حدث معك لم يكُن مهانة، بل ظلم.

ربمـا هـي محقة، بـل الأحـق أن أقـول إنها على صـواب في كل مـا ذكرتـه، كلامهـا منطقي، مريـح وملائم لآلامـي. أصابتني غصـة اعتصرت قلبـي بين ضلوعي كلمـا تذكرت أمـور المملكة وقواعدهـا، والصـورة التـي رسـمتها شـامة للحُب بُنيـت على ما تربت عليه، أصبحت صبية بهية ترفض العشق، إن جاز لي التعبير، إنها تبغضه ولا تخطط لأن تصبح فريسـة تسـقط بسهولة ويُسر في أفخاخه المنصوبة، وكدت أن أكون واحدًا منها.

غـادرتُ وأنـا أجتـر المتبقي من ثباتـي المفتعـل وألملم بقايا مشـاعر سُكبت دفعة واحدة، دهسـتها بقدمي مثلما دُهست أنا من قِبـل ذاك الأمير اللعيـن، أمثاله لا يليق بهم مكانة الأمير، إنه يشـبه

فرعـون فـي طغيانه وقسـوته، أطبقـتُ فمي وأرغمت لسـاني عن الحركـة حرمت عليه الـكلام فذبحتني روحـي بضجيج صراخها وصخبها الذي لن يسمعه سواي.

دخلت خلسـةً مع نشال بيته، والذي لا يختلف كثيرًا عن بيت شـامة إلا في ألوانه والفضاء الذي يعُم أرجاءه، أيضًا رائحته أشـبه بغرفة مغلقة لا تزورها الشمس، أو يتجدد بها الهواء.

النظافة في داره شـيء اختياري أو أحد سُـبل الرفاهية، أمر لا يتحتـم القيام به طالمـا لم يصل الأمر لأن تعبـث الجرذان بطعامه وفراشـه، أتذكَّـر أننـي نمت بصعوبة فـي هذه الليلـة بعدما عاتبت نفسي ألف مرة حينما أصرَّيتُ على القدوم إلى هنا من أجل حوار كان يمكـن تأجيلـه لوقـت وظروف أفضـل، أعطيت عقلـي عذرًا ليشـفق على حالي أنـه ربما كنت مُغيبًا وضائعًـا، أبحث عن درب للنجاة؟ أو أحد أسـتريح إليه وأفضي إليه بما أحويه بصدري دون إصدار أحكام أو توثيق موعظة. أنا اخترت شـامة، هكذا ببسـاطة! مـن الظلم لوم المرء على أفعاله وقت هوانه، فهو لا يعي ما يفعل، معصوب العينين لا يرى إلا عيوبه وضعفه، إخفاقاته وهزائمه.

لـن أبالغ في التعبير، إنني فـي هذه الليلة غرقت في نوم عميق احترت في تفسـير سـببه، فمَن يغفو وسـط هذه الفوضى المُبعثرة والروائح العطنة؟

فـي الصبـاح شـعرت أن ظهـري عبـر من فـوق فقراتـه جرار ثقيل، أسـهم في فصل العظام عن بعضها، ووخز مستمر لا ينقطع

بعامودي الفقري، مع احتقان في الأنف واحمرار بسيط في مقلتي اليسرى. هذا ما تراءى لي، ونجحت عيني في رصده بشوائب تتوسطها مرآة على الحائط.

غادرت مع نشال بنفس الطريقة التي جئت بها، ولكن نهارًا، الأمر أقل تعقيدًا نظرًا للحركة المستمرة للعوام والجنود؛ فلا يدقق الكثير، وينشغل الجميع بأحوالهم وتجارتهم وأشغال المملكة.

الاختلاف الوحيد أنني لم أختبئ بالعربة، بل سرنا معًا على الأقدام، الصباح فضَّاح، يكشف ما تستره الليالي؛ ففي الليل لم أرَ زحام العوام، الجميع كان ينام في مضجعه ساكنًا فلم أستطع التعرُّف على هيئتهم أو مواكبة أحوالهم، والحقيقة أنني ذُهلتُ حقًّا!

النساء وكبار السن تبدو عليهم النحافة، ولا يكسو عظامهم إلا القليل من اللحم، الرجال والفتيات فقط من يتمتعون ببنية جسدية أفضل نوعًا ما نتيجة العمل ولتحمُّل مشقته، الأطفال جوعى. رأيت صبيًّا يعدو بسرعة ويلاحقه رجل أكبر منه سنًّا، قال لي نشال إنه أبيه، تساءلت عن سبب هذا الشغب ولِمَ ترك والده رزقه وركض خلفه؟ والإجابة أثارت فضولي وغضبي معًا.

الطفل تعدَّى على حصة أمه من الطعام لهذا اليوم؛ لأنه دومًا لا يحصل إلا على القليل فلا يفلح في سد الجوع الذي ينهش أحشاءه، قرر بأنانية طفولية أن يشعر بإحساس الشبع ولو لمرة واحدة، يُخرس ذلك الصوت الذي لا يكُف عن طلب المزيد، ولا يفهم أبدًا مهما جاهد الصبي في الشرح، لا يفطن إلى أنه لا

وجود لحصة إضافية، فعلى معدته أن تتأقلم وتنخرس، ولكنها لم تفعل أبدًا وظلت شرهة على الدوام.

كيف مملكة بهذا القدر من الثراء في الجهة المقابلة يعيش أهلها بنعيم، يأكلون ما يشتهون، وعلى الجانب الآخر مَن يُسرق طعامه يقضي نهاره وليله جائعًا!

لماذا أصبح الوفير للقلة، والكثير لا يحصد إلا القِلة..

النساء تبيع ثمرات الفاكهة والخضراوات وأنواعًا من الحلوى المنزلية، الرجال يبيعون الأقمشة، والبهار، وبعض النباتات العطرية التي تُستخدم في الطعام، وروائحها فجَّة تثير أغشية الأنوف، آخرين يبيعون الأرز والخبز، زحام من الجُند يشترون السلع لأجل تعبئة خزانة الجانب الآخر للملكة والجانب المقابل معدته فارغة! كلٌّ في فلكه يسبح.

قُبيل الرحيل بقليل، وبالقرب من أسوار شفق، أبصرت وجهًا نسائيًّا أعرفه جيدًا، ميَّزته من وسط الزحام، أجل أستطيع العثور عليه من بين ألف رأس، إنها ملامح أمي، أمي التي توفيت منذ سنوات طويلة يستعصي على عقلي حصدها!

الفصل الرابع

«لا يروِّض الوحوش سوى الخوف»

إن العيـن لتغفل وتُخطـئ لتعكس ما يـودُّ أن تبصره القلوب. وهذا بالضبط ما صار مع جواد حين راوده بصره عن نفسـه فخُيل إليـه رؤية أمه حية تُـرزق تترجل بين المارة في أبعد نقطة يمكن أن يلقاها بها.

فقـد جـواد أمـه وهي تلده، لـذا لـم يحالفه الحظ فـي تكوين ذكريـات معها، أو الارتمـاء بين أحضانها الدافئة مرورًا بالإشـباع بقـدر كبيـر من المحبـة، وجميـع أركان الأمومـة التي كُتـب عليه الحرمان منها.

صورها عالقـة بذهنه، واعتاد في صغره أن يضمها إلى صدره كل ليلـة قبل النـوم، تمنَّى لو أن يحظى بـأم كزملائه، وكلما أحسَّ بالهوان والخـواء يراها ويتوق الارتماء بين ذراعَيها فيطول العناق حتى يُشفى وتزول آثار معاناته، ما هي إلا ثوانٍ وتتبخر مثلما يفعل الرماد لتندثر معه أحلامه.

عاد لعمله وسـط المحاصيل والتربة مع الطبيعة منها وإليها، فلا يهدأ إلا باهتمامه بما زرع ليحصده فيما بعد شهر أو بعد دهر. لا يهم إنها قناعته التي لن يبدلها الزمان؛ فمن يزرع الشوك يحصد خدوشه، ومن يزرع الورود يحصد أطيب الروائح والعطور وبهاء للناظرين.

وأخيـرًا ظهـرت من لا يقـوى عن غض بصره عنها، جسـدها نحيـل كبقيـة الفتيات، لكنـه لا يخلو مـن الأنوثة التـي وهبتها لها القدرة الإلهية، خصرها مرسـوم بفرشـاة فنان يهوى الدقة ويحترم التفاصيل، شعرها يتطاير فيفوح منه عطرها، تساءل كيف تسير فتنة

مثلها وسط الرجال دون أن يُفتنوا بها؟ يراهن أن كثيرًا منهم قد كفر بقواعد المملكة، والأكثر نقض العهد حتى وإن لم يمتلك أحدهم شجاعة الإفصاح عنه، إنه يؤمن أن حسنها قتل معظمهم دون أن يمسسهم شر.

تحسَّست خطواتها وهي تقترب شيئًا فشيئًا لتصبح أمامه مباشرة، ابتسمت بنعومة وألقت عليه تحية تبدو روتينية، لكن كلاهما يعلم أنها تحية يكسوها الدفء والخجل الذي تورَّدت وجنتاها معه.

يتبادلان النظرات ويتحاشيان بعضهما، تدقُّ الأفئدة وترفض العقول، يقاوم فيضًا من المشاعر يسبح بصدره ويتجه نحوها، ويخشى أن يتبعه فيظن نفسه رابحًا وهو الخاسر الوحيد تحت سماء غسق الملعونة التي تبغض الحب.

بعد اقتراب موعد رحيل الشمس وانتهاء العمل، قرر جواد أن يصارح شامة بنواياه وما يخطط له منذ ليلة البارحة، لم يأبه بالناس أو يهاب أن تفضحه نظراته أو ضربات قلبه المرتفعة وصداها الذي يشبه صوت الرعد، دون مقدمات أو تمهيد انتظرها حتى تلتفت وألقى بما في جعبته دفعة واحدة:

– شامة، أنا طلبت من الحرس ترتيب ميعاد لي مع الملكة، وسوف أُبلغ عن الإساءة التي تسبب لي فيها ابنها المختل.

شهقت شامة فور وقع كلماته على أذنَيها، توارى فزع ملامحها خلف يدها وهي تحاول أن تظهر بشكل طبيعي حتى

لا تلفت الانتباه إليها، تراجعت خطوتين إلى الوراء وطلبت من جواد أن يتبعها، ففعل دون تفكير.

همست وهي تراقب بنظراتها المحيطين بهما:

– هل جُننت؟ تريد الإبلاغ عن شاهر؟! ابنها المدلل المُرفَّه لا يُخطئ، ستجلب لنفسك المتاعب ولن تحصد شيئًا ترد به كرامتك. الملكة تنفِّذ له ما يريد يا جواد، أرجوك لا تفعل!

في تلك اللحظة أحسَّ جواد بهدوء ينتشر في عروقه، مثل ضمة في أشد درجات الوهن وعناق يَمحي معه قسوة الزمن.

اهتمامها ونظراتها المحبان وخوفها عليه بهذا القدر جعله يشعر بالرضى، تغمره السعادة ويعم صدره سرور يسري بفؤاده، لكنه ومع كل هذا الفيض من تدفُّق المشاعر لم يستمع إليها أو يرضخ، لم يتقبَّل التفريط في كرامته مهما كلفه الأمر، لن يرضى بالإساءة أو يتعايش معها، سيحاسبه بالقانون، وإن لم يفلح فهناك طُرق أخرى يسلكها إن اضطر الأمر.

ربت على كتفها بسرعة وامتنان وأطرق رأسه قائلًا:

– شامة، أنتِ خير النساء، لم ولن أصادف مثلكِ أبدًا، أشكرك على نصائحك وعلى كل شيء، يجب أن أذهب وداعًا.

لا تدري شامة لِمَ شعرت بغصة تؤلمها من أثر كلمة (وداعًا)، هي تكره الوداع، لكن القدر اختار أن تفقد أحبابها أجمعين، ولم يتبقَّ لها أحد لتودِّعه، مات أهلها واستشهد قلبها عند رحيلهم، جواد الذي عرفته منذ أشهر قليلة هل أصبحت تخشى فقده؟

لماذا أحسَّت بثقل في خطواتها وروحها، وتمنَّت من صميم قلبها أن يعـود إليها من جديد، وألا تصيبه الملكة بشـرها ومكرها، وألا تطوله كراهيتها..

***

أمـام هيبة القصـر وروعة تصميمه، دقَّق جـواد النظر إلى ذاك الحصـن المهيـب الذي رغم ضخامتـه، فهو مُقبـض وغير مُريح، طاقته تدفع القلوب للانكماش، وأخذ ساتر الحذر ولا تنشرح في حضرتـه أبدًا، طلب من الحراس مقابلتها بخصوص أمر عاجل لا يحتمل التأجيل يخص المملكة، رمق كلٌّ منهم جوادًا بعين يأكلها الشـك، غـاب جندي عـن الأنظار لدقائـق ثم عـاد بموافقة جلالة الملكة على طلبه رؤيتها.

ولـج إلـى القصر بصحبـة الحراس وسـاروا معًا فـي طرقات طويلة وباحة شاسـعة مـرورًا بالجناح الملكي للأمير شـاهر حتى جناح الملكة حُرة، طرق الباب، وسـمحت لهم بالدخول. أخبرها أنه يفضل أن يدور الحديث بينهما على انفراد، احترامًا لخصوصية المملكة وأمورها التي ليس من المفترض أن تصبح على المشاع.

اعترضت الملكة على طلب جواد، وضربت بعصاها الأرض ففـزع الجُنـد، ورغمًـا عن جـواد اتسـعت عينـاه وتراجـع خطوة للخلف، قالت بحدَّة بدت جلية لجميع مَن بالحجرة:

– طلبـك مرفـوض يا جواد، وأسـرار المملكـة لا تغادر إطار جـدران هذه الغرفة، مَن يفعل أقتلـه بيدي دون انتظار محاكمته أو

الاستماع إليه. وليطمئن قلبك، الحراس الموجودون معنا داخل هذه الحجرة لا يسمعون لأنهم ببساطة مصابون بالصمم.

لم تفلح حدتها في رهبته، ظل جواد ثابتًا في مكانه يبادلها النظرات غير منكَّس الرأس، مما جعل الملكة تعتقد أنه يغالبها، فهي تمتعض من فكرة عدم بثِّ الرعب بصدر من يقف أمامها، اعتادت أن الجميع يرتعد منها، وكان جواد أول من كسر القاعدة.

أثار غيظها حينما أطبق فمه ولم ينبس بكلمة، كان الفضول يتغذَّى على صبرها، أراد جواد رؤيتها حانقة وغاضبة وبركانها في أعلى درجات غليانه ليفجر هو ما جاء من أجله ويشفي غليله ولو قليلًا.

– هل ستُلقي بما في جعبتك وأتيت من أجله؟ أم أُلقيك بالسجن لتعطيل مصالح المملكة وإهدار وقتها هباءً؟.

كان تحذيرها صارمًا وواضحًا، كما أنه كافٍ لجعل جواد يستهل كلامه:

– مولاتي، لجلالتك الاحترام والتقدير، أما بعد، منذ مجيئي إلى مملكة غسق المعظمة وأنا أستبشر خيرًا بعدلِك وبقواعدك الحازمة، والتي وضعتِها سابقًا لأجل مصلحة شعبك الأبي وبناء مستقبل أفضل، حتى الزواج لا يحدث إلا بأمرك واختيارك، رغم كونه قرارًا شخصيًّا بحت في ممالك وبلدان أخرى مجاورة، وبالنسبة لغريب مثلي ليس عليَّ إلا قبول قواعدك واحترامها، لكنني اليوم أرجو أن يطول عدلك أهل بيتك، وبالأخص ولي

عهدك الأمير شـاهر الذي تعدَّى على كرامتـي وحريتي وعرَّضني للـذل والتعذيـب دون أحقية منـه للقيام بذلك، وأتقـدَّم لجلالتك بتقديـم بـلاغ تعرُّضـي للإسـاءة، وأرجـو أن تتـم محاكمتـه على جريمته كي يسود العدل أراضي المملكة وشعبها.

تصببـت الملكة عرقًا واشـتعلت وجنتاها حمـرةً من الخجل والجرأة التي تحدَّث بها جواد.

للمرة الأولى تشـعر بخصم يبارزها بهذه الجسـارة، ينظر في عينَيهـا دون خـوف، ويطلب حقوقـه ويتعدى حـدوده في الوقت ذاته!

رغم رغبتها في تهشـيم رأسه وخرسـه للأبد، أُعجبت بجرأته وأدركـت أن العنف مع رجـل مثله لن يجدي نفعًـا، فكَّرت لبرهة تحاول ترتيب كلماتهـا التي لا بُدَّ وأن تكون متقنة ويلزم التلاعب بمفرداتهـا لتسـكين مشـاعره والتصـرُّف بحكمـة، فهـي تحتاجه وتحتـاج خبراتـه في تحسـين جودة التربـة، لذا لن تُشـرع بقتله أو إيذائه، ولن تسمح له بالتطاول عليها أو بخطورة انتشار ما قاله للتو ونقله لأناس آخرين، إنها لا تخشـى شعبها، فهي تعلم أنه جبان لا يقوى أيٌّ منهم على تصويب اتهام ضدها، يخشون الموت أو قطع الألسـنة؛ فلا يسـتخدمونها في حرية التعبير كما فعل جواد، لكنها تخـاف أن يتم تشـويه صورتها أمـام حلفائها وأمـام حُكام ممالك وبلدان أخرى، تسعى دائمًا أن تظهر أمامهم بشكل أقرب للكمال.

قالـت بتأثُّـر مُصطنـع ارتدته قسـمات وجهها وتلعثم لسـانها بالمنتصف:

– أنا... مَدينة لك باعتذار، حقًّا أنا آسفة يا جواد.

أشارت آمرة لأحد الحراس بإصبع السبابة، وطلبت أن يحضر الأمير شاهر في الحال.

غـاب لحظات وعاد وبصحبته الأمير، صُدم شـاهر حينما رآه بجناح أمه وصاح بغرور:

– مـاذا يفعل هذا الوغد هنا؟ أنت تعرِّض نفسـك للموت في كل مرة تعترض فيها طريقي و..

قاطعته الملكة:

– أطبِق فمك، ولا تتحدث هكذا مع من أخطأت بحقه!.

فغر شاهر فاهُ، غير مُصدِّق لما تتفوَّه به أمه أمام غريب!

لم تعطِ حرة لشـاهر وقتًا ليُدرك ما يدور حوله، ألقت بصخرة أخرى في وجهه دون أن تسمعه وبلا مقدمات:

– اعتـذر لجواد عما بدر منك! وإلا سـتُحاكم مثل جميع قوم المملكة.

ضحك شـاهر بسـخرية ومصمص شـفتيه مسـتهزأً، ثم صفَّق بكفَّيه مستعرضًا وهو ينظر في عين الملكة ليتفوَّه مستنكرًا:

– هل انتهيتِ؟ أنا مسـتمتع بالعـرض أحييكِ على هذه الفقرة الرائعة.

انتصبت واقفة من مضجعها وجهرت بسخط:

-إياك وامتحان صبري! أنا هنا أصدر الأوامر، والجميع يمتثل لأوامري. عصيانك ستُحاسب عليه وأمام المحكمة! نفِّذ!.

- لن أتأسَّف!.

- ستُحاكم يا شاهر هذا إنذاري الأخير.

- لا أكترث! الرجال لا تخف أو ترضخ.

احتدَّ النقاش بينهما، وأصرَّ الطرفان على موقفهما. لم يقدِّم أيٌّ منهما التنازلات ورفضا التفريط في حقوقهما. شاهر قاتل باستماتة كي يواصل إذلال جواد وفكرة أن تتساوى الرؤوس كانت بمثابة انتحار لغطرسته وكبره، أما بالنسبة للملكة، فناضلت من أجل الحفاظ على صورة العدل الزائف الأقرب للضلال، حتى وإن كان ذلك على حساب ابنها الوحيد.

شعر جواد برد جزء من اعتباره، حنى رأسه احترامًا لها فأشارت له بالرحيل، غادر بصمت وهو يتبادل نظرات مع شاهر لا تُنذر بالخير، بل تنضح بالشرر من مقلتيهما مع ابتسامة تشفٍّ مبتورة من جواد مفادها ألقاك يوم المحاكمة.

بعد رحيله، ظلَّت الملكة مع شاهر وحدهما بالجناح، وكانت هذه الفرصة الوحيدة لمعاتبته على تصرُّفه الأحمق، وأنه مدلل لا يعبأ إلا بمظهره والسعي وراء أهدافه، وكانت على يقين أن هناك سببًا دفعه لإهانة جواد بهذا الشكل، وأرادت أن تفهم ما يدور،

سـألته فامتنـع عـن الإجابـة، تمنَّى من صميـم قلبـه أن يختفي من أمامها، أو تتحول هي إلى سراب؛ فهو لا يطيق فضولها وإصرارها علـى معرفـة كل شـيء عـن حياتـه، لدرجة أنهـا تراقبـه في بعض الأحيان عـن طريق أعينهـا المتلصصة المنتشـرة بالمملكة، تمثِّل أنها تهتم لشـأنه. والملكة لا تملك إلا سـطوتها وتصارع من أجل الحفاظ على عرشها وصورتها في أعين حلفائها.

لسـان حالهـا لا يكُـف عـن طـرح التسـاؤلات، كيـف له أن يعصيَها ويتمرَّد عليها، ولا يسـتمع لما تقول بهذه البسـاطة؟ أيظن نفسه الوريث لمملكتي وأن سلطنتي قد فنت؟ أهو مخبول ليعتقد أن عهـدي قد ولَّى، وأن بإمكانه الخروج من بِسـاط طوعي لكونه قد بلغ أشده!

لـو كان هـذا ما يدور برأسـه، فعليهـا اتخاذ خطـوات صارمة لإعادة وضع قوامتها على شـاهر، فهي تفطن حقيقة واحدة ولا بُدَّ من أن تترسَّـخ بذهنه أيضًا، وهي عدم تتويجه بالحكم إلا بموتها، لن تعيش لحظة واحدة خالية الوفاض، ويتسلَّم فيها آخر المملكة؛ ذلك كفيل بقتلها!

– لماذا يا شاهر؟ أرح عقلي من التفكير وأجبني!.

خرجت كلماتها يائسـة هذه المرة يشـوبها هشاشة لن تعترف بها قَط.

تنهَّد الأمير ثم رفع رأسه وقال وهو يتحاشى أن تلتقي أعينهما:

– شامة... أريد الزواج منها.

كادت أن تفقد صوابها وارتعشت أطرافها من أثر عصبيتها المفرطة، استطردت بنفاد صبر:

- أنا لا أسألك الزواج، ولا أهتم بعواطفك الآن! لماذا عصيت أمك؟ ولماذا قسيت على جواد؟

- أنتِ لا تسمعين أحد سواكِ! أقول لكِ أحبها، وذاك اللعين جواد يحبها أيضًا، رأيت عشقه لها جليًّا في عينَيه! وفي ذاك اليوم رأيتهما معًا في تناغم، لم أرَ فحشاء تُذكر يستحقا عليها تطبيق القواعد، بل عشق يلوح في الأفق أثار غيرتي وتحفُّظي، انتقمت منه قهرته وكسرت كبرياءه واحترامها إليه، جعلته يبدو كرجل عادي، وليس كبطل أفلاطوني جاء لإنقاذ المملكة.

استكانت حُرة وهدأ بالها بعدما بلغت مقصد شاهر ودوافعه التي تسبَّبت في إثارة الجلبة وتوتر الأجواء تنفَّست الصعداء وضغطت على عصاها التي اعتادت مؤخرًا الاتكاء عليها، فهي ليست مجرد درع يساندها في سيرها ويحميها من السقوط، بل تشعرها أنها تملك الحكم بين يديها وكأنه أصبح بمثابة شيء مادي تمثَّل في هذه العصى، ويمكنها أيضًا ملامسته!

وجَّهت كلامها للأمير وقالت بتأثُّر:

لو أنك تُصارحني منذ البداية لما صار كل ذلك، ولا بلغنا هذه النقطة! على كل حال اعتبر شامة لك وانتهى الأمر، أما عن جواد فله حق يجب أن يُرد إليه، وأنت الذي أجبرتني على محاكمتك.

***

انقشع ظلام الليل ليحل ضوء النهار ضيفًا يعانق سماء مملكة غسـق، اليوم قد أعلن حراس المملكة أن الأمير ارتكب ذنبًا أودى به لساحة المحاكمة، وأنه سيُعاقب جزاء فعله.

تعجَّـب أهالي المملكة مما ينشـره الحـراس، حتى وإن أخطأ الأمير كيف أن يكون حسـابه على المشـاع وأمام الجميع؟ وكيف ارتضت الملكة بذلك؟ إنها خطوة جسـيمة لم ترد في تاريخ غسـق بأكملها من قبل، والتي تحكُمها حرة واسـتمرت لأكثر من عشرين عامًا، ألم يأثم شاهر طوال سنوات عمره؟ بالطبع قد فعل وتستَّرت عليـه مئـات المـرات، لا يصـدق أحـد أن عدوانيتـه لم ينتـج عنها تصرفـات غير عقلانية وأخطاء لا تُحصـى! ظل الجموع في ترقُّب ليُجيب الجلاد على تساؤلاتهم التي لا تكُف أدمغتهم عن طرحها.

قابلت شـامة جوادًا بعدما تفشَّى الخبر كما لو أنه وباء يصيب كل مـن سـمعه فينقله لآخر، اتفقا أن يلتقيا قـرب النهر، في البداية عارضت شـامة الفكرة، لكونها السبب من قبل في جلب المتاعب وإثارة البلبلة، أخشت أن يقع جواد في مصيبة أخرى لوقوفه معها! لكنـه أصرَّ وطمأنها أن كل شـيء على ما يـرام ولا داعي لخوفها، تبعته وقلبها ينتفض رعبًا، لكنه أيضًا يقفز من السـعادة، فقط لأنها تبصر جوادًا وتسـبح في هالة وجوده ويحاوطها طيف رائحته، لم تسـتطع منع نفسـها من الالتفات خلفها ومراقبة المارة، إنها تفعل ذلك مثل سارق محترف يخشى أن يُفشَى سره.

حركاتها وخوفها تسـببا في عدم الارتيـاح لجواد، رغم أنه لا

تتسلل إلى قلبه الراحة إلا برؤيتها، لكن كيف يطمئن وهو يبصرها قلقة؟ مقلتيها تواصل اللف في دوائر لرصد أي غريب، جزع جواد من المفترض أن يكون هو أول من يحميها ويُسكِن جفونها المتعبة، لكن بعض الأشياء ثمن الحصول عليها غالٍ جدًّا، والحرية هنا يربحها المرء بإراقة دمائه ولن يكون ذلك كافيًا.. أبدًا.

– هل ستُعاقب حُرة ابنها المدلل من أجلك يا جواد؟ حقًّا؟ كيف استطعت إقناعها بذلك؟.

كانت ما تزال تلتفت وتتهرب من أن تلتقي أعينهما، أكانت تخشى القواعد أم تخشى أن يرقَّ قلبها متى ما اجتمعا في مكان؟

أمسك جواد يدها برقَّة بالغة، اقشعرَّ جسدها بأسره واستمتع فؤادها الأسير معه ومع لمسته، في هذه اللحظة أرادت أن تركض من السعادة ومن الخجل، تتبخر مع الريح حتى لا يلاحظ ضعفها واستسلامها له، خاصةً وأن قدميها تشبَّثت بالأرض وصار وزنها ثقيلًا كأنها تجتر طنًّا من الرمال، ساد الصمت بينهما لبرهه، ثم قطعه جواد وهو يتحسَّس أناملها الرقيقة بحنان:

– لا تهابي شيئًا وأنا معك، أشعر أن أمانك أنا مسؤول عنه، أحرق الأرض بمن عليها لأجل عينَيكِ، خوفك يقتلني ويُنقص من رجولتي.

قاطعته بخجل وهو ما زال يحتضن كفَّها بين يدَيه.

– أنت رجلٌ حقيقي وأرفض أن يمس حديثنا رجولتك، الأمر ليس كما تظن، العشق مُحرَّم في بلادي، ولا وجود له، من يعشق

يُقتل يا جواد.

– وأنا لستُ مستعد لخسارتِك، والأمير اليوم سيُحاسب لرد اعتباري أمامك، كيلا تنظري إليَّ بشفقة أو أن تقبلي مشاعري بعطف.

انتزعت يدها برفق، ترقرقت عيناها بالدمع وقالت والضيق يخنق أنفاسها:

– الحب في وطني شيء يُفضي إلى الموت، وأنا فقدت كثيرين من أجل الحب، ولا أنوي فقدانك، العشق لعنة يا جواد لعنة. أصدقني القول حينما تتدبر كلماتي!.

أليس هناك شيء أكثر قسوة من جمح عنفوان الحب بداخلنا؟ من حق الجميع أن يعشق وأن يتلذَّذ بذلك الإحساس الساحر السالب للعقول، متى تم تحريمه؟ وأصبح الإحساس به جريمة!

أين العدل في تدخُّل الملوك باختيارات المرء الشخصية كالزواج والإنجاب؟ ألهذا الحد أصبح الإنسان سلعة يُحسب تكلفتها، وعبئًا تتكفل به الأوطان، وثقلًا لا تقوى الأرض على حمله!

دموع شامة كان يصحبها الألم، وهروبها من جواد في هذه اللحظة كان المسلك الآمن، أسندت ظهرها إلى الحائط المقابل لبيتها، وضعت يداها على صدرها الذي يعلو ويهبط ولا تتمكَّن من السيطرة عليه، تحترق ببطء وتتذكَّر أبشع ذكريات مرَّت في طفولتها، ترى مقتطفات تلمحها تهرول منها لتهرب بعيدًا عن

مرمى بصرها، تختفي بنفس السرعة التي يمر بها البرق، تتذكر أن ضريبة العشق هي الموت، والموت هو أكثر ما تخشاه لمن أحبت، فقد شهدت شامة حينما كانت لا تزال مجرد فتاة تبلغ من العمر خمس سنوات العقوبة التي يتم تطبيقها على الرجال، فالنساء مصيرها السجن، وتصبح بين عشية وضحاها من امرأة عفيفة لغانية وخادمة بين أربعة جدران، أما الرجل فيُطعن في أغلى ما يملك، رجولته! لأنها عشقت جوادًا، رفضت أن تعترف بعشقها حتى لنفسها؛ لأنها تعلم المصير المحتوم للذكور.. الإخصاء.

قد يحيا بعده وقد يموت فورًا، والاثنان واحد لا فرق بينهما، فما الفائدة من الحياة إن كان سيعيشها الرجل دون رجولته؟ وكيف سيشتهي امرأة وهو عاجز عن ممارسة الحب معها؟ جواد غريب عن المملكة ويجب أن يغادر صاغًا سليمًا، لا ينتقص من جسده أو روحه شيئًا، ويكفي ما طاله من أذى، ستحميه بكل السُّبل وتصدر له القسوة، ستظلل عليه بأجنحة من الجفاء، هكذا تحفظه وتُبقيه حيًّا، حتى وإن كانت الطريقة الوحيدة هي بتلك الفظاظة والغلاظة التي تحطم قلبها وقلبه.

***

ما هي إلا سويعات قليلة مرت ليحتشد الجموع في باحة المحاكمة، حدث جلل يترقبه كل شعب المملكة، الفتية والفتيات، الرجال والنساء، كل كهل وشيخ، الفضول ينخر صدورهم ولا يصدقون كيف يُعاقب ولي العهد أمام شعبه؟ وهل سيُعاقب هذا

الرجل الذي أطلق العنان لغروره حتى جعله يشعر أنه خُلق ليكون سيِّد مَن حوله؟ اليوم يفقد هيبته ويتعرض للمذلة مثلما تعرَّض لها جـواد، لكن تلـك المذلة كانت أمام أعين شـامة فقط، بينما الأمير شاهر يخسر هيبته إزاء الجميع!

ظهـر الأميـر مُقيَّـد الذراعَيـن، يسـير بخُطـى مثقلـة، ورجال الحـرس على جانبَيه، يحيطونه كأنهـم يقتادون ملكًا مخلوعًا نحو قـدره. لم يصـدِّق الحارسـان ما يفعلانـه، فها هما يجـرَّان وريث المملكـة، كما لـو كان أحد العـوام. كانت قبضتهما علـى ذراعَيه خفيفـة، تمتلـئ بالأسـف أكثـر من القـوة. فـي عيونهما، لـم يكُن الأميـر مذنبًـا، بل ضحية لأمـرٍ أكبر منهما. وبينمـا يتخيلان لحظة المحاكمة، كانا على يقين أن أول قرار له بعد النجاة سـيكون قطع رأسيهما؛ عقابًا على طاعتهما العمياء لأوامر الملكة.

فُغرت أفواه الحاضرين وهم يحدِّقون في الملكة التي اعتلت المنصة الشـهيرة، منصة لطالما اقترنت فـي أذهان الجميع بالظلم والقهـر، حيـث تُنتزع منها حقـوق الأهالي والعـوام بلا رحمة. لم تسلم عائلة من أن تكون ضحية هذه المنصة التي اغتصبت العدالة في أكثر من مناسـبة. وكعادتها، اسـتهلت الملكة حديثها بجملتها المعتادة، والتي أثارت في كل مرة شعورًا متناقضًا بين الاستهجان والخوف:

– أعوذ بالله من شروركم ومكائدكم، الصغرى منها والكبرى، وأعوذ بالله من أنفسكم الضعيفة الآمرة بالسوء والفحشاء. كلماتها

كانـت تُلقى وكأنها دعاء مُفترض، لكنهـا تحمل في طياتها تهديدًا خفيًّا، وقسوة تستعد للانقضاض.

أما بعد قالت:

– أعلـم أن الحيـرة تتلاعـب بأذهانكـم والفضول نـال منكم الكثير، ولكنني اليوم أُثبت لكم بالفعل أنني لا أُفرق في عدلي بين غني أو فقير، من يسـكن داخل أسوار القصر أو خارجه، المخطئ يُحاسـب حتى وإن كان ابنـي والحاكم المنتظـر، القصاص يلحق بالقاصي والداني والجميع سواء في الثواب والعقاب.

انخرسـت الألسـنة وجفَّت الحناجر، عندما قررت الملكة أن تترك للجلاد، ولأول مرة أن يحكم على الأمير خشـية ألا تعدل أو ترفق بولدها، أعلن الجلاد سـبب محاكمته وما اقترفه بحق جواد، مـع الحرص على عدم ذكر اسـمه، حينها ذُهل الناس من وحشـية الأميـر الـذي كانوا يدركـون أنه يحتفـظ داخله بوحش يكشـر عن أنيابه متى ما أراد، كان الجلاد يرتعد قلبه وهو يراقب نظرات شاهر التي تتوعده ألا يرتكب فعلًا أحمق يُشعره بالندم ما تبقى من عمره، حاول أن يستعيد أنفاسه وازدرد ريقه ثم جهر ينطق بالحكم:

– الأمراء لا يتم تطبيق العقوبات الجسـدية بحقهم، فهم أكثر رفعـة وسـموًّا، وما لي أن أحكم على سـموِّك، وأنـا الذي أرتجي عفـوك، لـذا أرى أن عقوبتـك هـي فضح ذنبـك قبالة شـعبك وله القرار بالعفو عنك أو محاسـبتك، يكفي أن خطيئتك سترسـخ في أذهان الجميع.

أومأ شـاهر رأسه موافقًا وممتننًا للجلاد، تنفَّس الصعداء وأيَّد العوام القرار، لكن الملكة كان لديها رأي آخر..

رفعـت الملكة ذراعها فجأة، معترضـةً على الحكم، فانقلبت رؤوس الحضـور نحوهـا في حالـة من الترقُّب والدهشـة. وقفت شـامخة، بثبات يليق بحاكمة اعتادت مواجهـة أصعب المواقف، وتنهَّدت بعمق قبل أن تنطق، موجهةً حديثها إلى شعبها:

– أنا أحترم قرار الجلاد ولا أقلل من شـأن عدالته، فهو يؤدِّي واجبـه بما يـراه صوابًا، لكنه معذور؛ لأنه لا يـزال ينظر إلى الأمير بعيـن الرحمة، مترددًا في أن يُحاكمه كأي إنسـان آخر. أما أنا، فلا أستطيع قبول هذا الحكم أو تنفيذه. العدل الحقيقي لا يعرف أميرًا أو فقيـرًا، الجميع سواسـية، وأنـا الأم لهذا المُذنـب، لكنني أيضًا الملكـة التي سـتُصدر الحكم عليه. العين بالعين والسـن بالسـن، ولا يثأر المرء من خصمه إلا بالقصاص العادل.

أصـاب الصمت الجلاد، وهـو ينظر إليها بتردُّد، غير مدرك ما تقصده. أرخت الملكة جفونها وأومأت برأسـها، وكأنها تهيئه لما هو قادم، ثم واصلت حديثها بصلابة:

– السـارق تُقطع يـده، ومن اعتدى على بـريء وأذلَّه بقدمَيه، عليه أن يتعلَّم درسًا لا ينساه.

أيها الجلاد، آمرك الآن أن تكسر قدمه هنا، أمام قومه، ليذوق ما اقترفته يداه، وليتعلم أن القوة ليست أداة للإذلال.

صُعـق الحاضرون من طلبها، ووقف الجـلاد مترددًا للحظة،

لكنـه كان يعلـم جيدًا أنـه لا مفر من تنفيذ أمرهـا، بينما كان الأمير يحدِّق بها، مذهولًا من قسوة العقاب الذي فرضته عليه أمه.

دهشة الناس تجلَّت واعتلت قسمات وجوههم، إنها مُغيَّبة لا محالـة، أيمكنها أن تكون بهذه القسـوة؟ ألا يليـن قلبها حتى لمن سـكَن رحمها؟ لـم يعتقد أحد أنها تحقق العدالة وتُكمل الرسـالة التي جاءت لتحققها على الأرض؛ لأنها لم تكُن أبدًا عادلة لتصبح بين عشية وضحاها تنصف المظلوم وتقهر الظالم!

همـز ولمز وثرثرة تتنقَّل بيـن الأفواه في همس وخَور حتى لا تصبح همهماتهم الأخيرة وتقديرًا للصمت الذي فرد بسـاطه على كل شيء، حتى الرياح انصاعت وبجلت هيبة ما يجري.

أما شاهر ففقَدَ القدرة على الاحتجاج، صدمتُه أشد قسوة من أن تُحتمل أو يسـتوعبها عقله، أحسَّ أن الأشـياء تُطمس من حوله بسحابة لا تحوي سـوى الغيوم، اكفهرَّت معها الوجوه والملامح باتت ضبابية، هو لا يبصر إلا أمه فحسـب، يسأل مقلتَيه ألا تذرف الدمع الآن. ويحاول أن يفرض سـلطته عليها، يناشـدها أن تطيعه هـذه المرة، لكنها أبـت وامتنعـت، فلم يفلح ترويضها وسـقطت منهزمـة مثلـه تمامًـا، فما بالها بمظهـره وحفظ مـاء وجهه؟ وجهه الـذي احترق بالفعل وتـرك النيران تنهش قلبه، قبول أمه بكسـرته وهوانـه مزَّقـه إربًا مـن الداخـل، لكنه لـم يكُن أمامه خيار سـوى الرضوخ للقدر هذه المرة؛ لأنه على يقين أن الحكم نافذ لا محالة.

كان الجلاد قوي البنية، أسـمر البشرة، بقسمات غليظة وأنف

معقـوف، ظل في مكانه سـاكنًا لا يعلم ما الذي يجـب عليه فعله، ولمـاذا شـعر بالتعاطف مع الأمير إلى هذا الحـد؟ أليس هو الذي يعنِّفـه طوال الوقـت، ولم يرقَّ قلبـه يومًا على أي شـخص اعتلى منصة المحاكمة فلِمَ لا ينفِّذ الأمر فحسب!

حثَّتـه الملكـة على أن ينفِّذ الأمر في التـو واللحظة وأمرته ألا يتردد. تصبَّب الجلاد عرقًا واختار ألا ينال عدم رضا الملكة؛ لأنه حينها يكون حتمًا هو الخاسر..

أمسـك بمطرقة خشـبية ثقيلة واقترب من سـاقه وهـو يطالعه بنظرات معتذرة، رفع المطرقة اللعينة وقال للأمير بأسف:

- أرجو أن يغفر لي سموك، سامحني!.

كان يعلـم جيـدًا ماذا سـيفعل، ضـرب بالمطرقة على سـاقه، وشـنَّ الألم حربًا تسـري بجسـد الأمير وهو يصرخ من الألم، لم يحتمـل الناس المشـهد، فكثير منهم أشـاح نظره بعيـدًا إلا القليل انتصر لفضوله وظل ثابتًا، اسـتعد الجلاد لمغادرة المنصة، وأنهى مهمته على أكمل وجه، ولكن استوقفته الملكة وقالت:

- انتظر! انزع بنطاله لنتأكَّد من كسر ساقه.

أيُّ أمٍّ هـذه؟ بل أي امرأة تلـك التي انتزعت من قلبها الرحمة ولم يتبقَّ منها حتى الفُتات! أسـئلة تفتك بعقل شاهر فجأة، أصبح يـرى أمـه وكأنها شـخص يتعـرف عليه للمـرة الأولـى، أصبحت شخصًا غريبًا عنه بملامح مشوَّهة تشبه أمه.

نفَّذ الجلاد الأمر ورفع عنه ثيابه، كانت سـاقه بها تورُّمًا بسيطًا

أشبه بكدمة، وأن قدمه لم تنكسر بعد، حينها تأكَّدت أن الضربة لم تكُن بالقوة المطلوبة، فهو ما زال مرتعش الأيدي رغم إتقانه لتنفيذ مثل هذا العمل، ويبدو أنه يشفق على الأمير، أو يخاف بطشه مستقبلًا..

نهرته الملكة بسبب ضعفه غير المُبرر أمام المخطئ، وتوعَّدته بحسابٍ عسير، لم تكرر الأمر ثانيةً، بل هذه المرة اختارت التنفيذ بنفسها لتُعلن للجميع عن عدل مُطلق، وأن تصمم مشهدًا أرادت إبرازه للحكام والممالك والدول الأخرى، ليتسنَّى لها الحفاظ على دوام مصالحها الشخصية، حتى وإن كان كبش الفداء ابنها الوحيد.

بكل جبروت وقوة أمسكت الملكة المطرقة الثقيلة، ورفعتها عاليًا، متجاهلةً أنين قلوب الحاضرين وارتعاش أيديهم من هول المشهد. في لحظات خاطفة، هوت المطرقة بقسوة على ساق الأمير شاهر، فكادت أن تشقَّ عظامه إلى نصفَين. صوت الضربة تردد في أرجاء المكان، كصدى حُكم لا رجعة فيه، جاثم على صدور الجميع.

ألقت الملكة المطرقة أرضًا، وكأنها أسقطت معها حكمًا أخيرًا لا يحتمل النقاش، وزفرت طويلًا قبل أن ترفع رأسها بجمود قائلة:

- انتهت المحاكمة... يمكنكم الانصراف.

ثم استدارت وهي تغادر، تاركةً خلفها صمتًا مشوبًا بالرهبة.

مـن قال إن الرجـال لا يبكون؟ ها هو الأمير شـاهر، بكبريائه وسلطانه، يبكي كما لم يبكِ رجلٌ من قبل. كانت دموعه لا تعكس مجرد ألم الجسـد، بل ألم الروح المُهشَّمة. الألم تسرب من قدمه المحطمـة حتـى بلـغ رأسـه، شـعر أن المـوت قـد يكـون رحمة، فالعذاب الذي يمر به قد فاق احتماله.

صرخاتـه عميقة ومريـرة، مزَّقت الصمـت واخترقت الآذان، كعـواء ذئـب جريـح يتألـم مـن خيانـة لـم يتوقعها. بكـى بصوت جهـوري، كأن روحه تطلب النجاة من هذا الألم، هو لم يكُن فقط ضحية لسـاقه المكسورة، بل لخيانتها التي باغتته بلا رحمة، كأنها استبدلته بثمنٍ بخس، دون أن ترمش أو تتردد، كأن علاقته بأمه لم تكُن سوى وهم... وكأنه مجرد دمية، بلا مشاعر أو كرامة.

لا يـزال الأميـر يبكي. دموعه تسـيل بحرقـة، تـزداد غزارتها مـع كل نبضة يتذكر فيها قسـوة الضربة التي أفقدتـه كل ما تبقى له من كرامة. لـم يحاول إيقافها، بل تركها تسـيل بحرية، تبلل سـترته وتصبح شاهدًا على فشله وخيبته. في عقله، تتردد مشاهد ماضٍ به القليل من الحنان الذي عاشـه في حضنها، الكلمات التي همست له بها:

– أحبك. لكنه الآن يتساءل:

– هل أحبَّتني حقًّا؟ أم أنني لم أكُن يومًا مستحقًا لمحبتها؟.

كان رغم كل شـيء يسـير على خطاها، يحاول بكل جهده أن يخلفها فيما تتمتع به من قوة وسُلطة، لماذا إذًا قست عليه كل هذه

القسـوة ولـم تفلـح في أن تحبه بصـدق أبدًا، لطالما مـا وصل إليه إلا حُـبٌّ خافت لا يرتقي لإحسـاس الأمومة الـذي من المفترض أن تُغـدق به قلبـه، يبكي بداخلـه وغضبه يزداد كما لـو كان بركانًا خامدًا انفجر بغتة، جسده يرتعش، تنهار هيبته العظيمة، ينهار معها ما تبقى من صورته التي كان يرسمها لنفسه. لم يعُد أميرًا مَهيبًا، بل طفلًا هائمًا يبحث عن دفء لم يجده.

فـي أعماقه، يتوعَّد بالانتقام، يصرخ بصمت؛ إن الألم لن يمر بـلا عقـاب، لكن في الوقـت ذاته، يتوق إلى عنـاق حقيقي صادق من أم تمنَّى أن تجاوره وتشـاركه ألمه. هـذا التناقض الموجع بين الرغبـة في الانتقام والحنيـن إلى حنان قد افتقده يجعله يتخبَّط في دوامـة لا نهاية لها، يتوق الموت ويشـتهي الحياة، يصبو ألَّا تكون هذه النهاية.

اليوم يمكنه الاعتراف أنه قد مات قلبه.

لـم يتوقع جـواد كم الحزن الـذي أصابه بعدما شـاهد ما حل بالأميـر المتغطـرس، لا يـدري لِمَ أحـسَّ بعكس ما ظنـه، الضربة الأولى من الجـلاد ردَّت إليه جزءًا من كرامته واعتباره، لم يثأر أو يشـفي غليله، لكن ما اقترفته أمه بحقِّـه كان مفزعًا ومفجعًا! لمس ظلمًا مقابل للظلم الذي تعرَّض له، بل أكثر قسـوة وجبروتًا، لكنه لـم يفلح في تسـكين ألمه الذي تفاقم حتى وصـل به الأمر إلى أن يشـفق على شـاهر، وتمنى أن ينـال الفرصة ليعتذر منـه ويرثيه في وجيعته..

لم يخطر بباله حينما طالب بمحاكمته أن الحكم سيكون بهذه الغلظة، وما كان يعلم أن بهذه الطريقة سيُحاسب! لأنه في نهاية المطاف ولدها ولن تقسو عليه، ستقوم فقط بتأديبه مثلما تفعل أي أم، والفارق الوحيد أنه أمام قومه وشعبه لينكشف زيفه، ويسقط قناع إنسانية حبيسة بداخله لم يشهد عليها أحد! المفاجأة تمثَّلت في جبروت هذه المرأة! مفهوم أن تقسو على شعبها في بعض الأحيان، ومن الجائز ألا تطبِّق العدالة في معظم الأوقات؛ فلا وجود لحاكم مثالي يرعى مصالح قومه دون أن يفكر باعتبارات أخرى، لكنها أزاحت غريزة الأمومة جانبًا، كأنها شقَّت صدرها واقتلعت قلبها كيلا يشعر بأي ذنب، انتزعت أحاسيسها منه وجردته من وعيه. لربما تناولت شيئًا أصابها بالهذيان، فلا يمكنها أن تقوم بفعل مماثل وهي في كامل إدراكها العقلي..

ليس هناك ثمة شيء أكثر فظاعة من أن يفقد الإنسان إنسانيته ويتحول إلى وحش يفتك بسائر المخلوقات ويصبح جميعها سواء، فلا يفرق بين حيوان وطفل، امرأة ورجل أو جانٍ وبريء، ما يهمه حقًّا هو بلوغ غايته، كيف لنا أن نمنع ذئبًا من أن يسد شراهة جوعه؟

الفصل الخامس

«غياب الرحمة يغتال الإنسانية، وتفنى معها معانيها»

سارت على أطراف أصابعها في حُلكة الليل وتحت سماء النجوم استترت بعباءة قماشية تلألأت فيها، كلما انعكس ضوء القمر عليها، فأصبح من الصعب التفرقة بينهما، هكذا تتبَّعت بشرى خطوات فارس، وآذانها تسمع دقات قلبها تشبه قرع الطبول من الخوف، ومن عشق يسيطر على جميع حواسها تطارد فارسها الذي لا يملك جوادًا، وكأنها معصوبة العينين وقد استحوذ عليها شعور لا يردعه شيء، ولم يكن لديها خيار سوى الاستسلام له بكل رضا وطمأنينة.

توقفا عند كهف مهجور على أطراف المملكة لا يعلم عن وجوده الكثير، يعرفه البعض وكأنه أسطورة تُروى عنه قصص وروايات مخيفة تجعل الاقتراب منه يشبه المستحيل، إلا لمن يملك جسارة تفوق رهبة الحكايات التي تتنقَّل بين الأجداد كالإرث أو القصة المنشودة الخالية من بطل يرويها، لذا قرر فارس أن يصبح ذلك الكهف مقرًّا سريًّا يلتقي فيه الحبيبان وأطلق عليه كهف العشاق، فهو يعتقد إن كان يسكن هذا الكهف كيان شرير أو قوة ملعونة فهي لن تنتصر أبدًا على قلبَين متحابين يتقاسمان الأنفاس والروح ذاتها.

يحمل فارس شمعة صغيرة يستجديها أن تنير له هذا الكهف المظلم لينعم برؤية وجه بشرى الملائكي، ذي الملامح الهادئة البسيطة، شعرها الأسود يُشبه الليل في سحره، ينسدل على ظهرها بنعومة، يداعبه فارس بأطراف أنامله برقة وتتورَّد وجنتاها مع كل لمسة منه، إنها تعشقه ولا تعرف للقواعد معه طريقًا تستسلم

إليـه تمامًـا ولقلبهـا أحيانًـا، وما الفـرق؟ الاثنان يسـلكان الدرب نفسه، نشـأت علاقتهما منذ خريف العام الماضي، في البداية كانا يتبادلان السـلام ويتعـاون كلٌّ منهما في العمـل؛ لأن فارس انتقل للعمـل بالزراعـة بعدما أنهـى فترة تجنيده، والتـي تختلف عن أي مملكـة أو دولـة أخـرى، فحينما ينتهي الشـاب مـن حصوله على قسـط بسـيط من التعليم ينتقل للعمل مع أطقم حـراس المملكة، ليتنـاوب بينـه وبيـن زملائه على تأديـة مهام محـددة يحددها قادة أطقـم الحـرس بالمملكة لمـدة غير محـددة، وعندمـا يصدر أمر بأنـه أدى الخدمة يتم تحويله للأعمال المدنية، كما أنه يتعين عليه تنفيـذ أي أمر يصدر من الملكة، أو ولـي العهد مهما بلغت غرابته أثناء هذه الفترة الزمنية، لاحقًا يتحول من حرس الملكة لشـخص من العوام يصب جهده كله في رعاية غذاء مملكة غسـق ولا ينوبه إلا الفُتات والعيش في مسـتوى معيشي لا يرتقي إلى أن تعيش فيه حتى الأغنام!

لم تكترث الملكة يومًا لمعرفة مدى الفقر والذل الذي يعيش فيـه أولئك النـاس خلف جـدران قصرها، في النصـف الآخر من أرضها التـي تدَّعي أنها تحكمها بالعدل والسـهر على راحتها. لم تهتـم بالبشـر الذين يحملـون على عاتقهـم كل شـؤون المملكة، أولئك الذين لولاهم لتوقفت عجلة الحياة في مملكتها، ولم يكُن ليهنـأ أيٌّ من حلفائها بنـوم هانئ لولا الجوع الذي ينهش بطونهم. كلمـا تعمَّقت حفرة البؤس، كانت تقف علـى حافة القصر، غافلة عـن أن تلـك الأيـدي العاملة هي التـي تحمي عرشـها وتُبقي كل

شيء قائمًا، بينما هم يلهثون من أجل مجرد البقاء على قيد الحياة.

تذمَّر فارس مئات المرات، لكنه لم يعلن ذلك قَط، ولا حتى كانت لديه نية للإفصاح؛ فهو لا يملك شجاعة المواجهة، لكنه عندما دقَّ قلبه واستكانت بشرى بصدره، لم يعُد قادرًا على الرضوخ لرغبات وقواعد المملكة المجحفة، لم يشعر أن عليه السمع والطاعة في اختيار لا يلائمه أي مُسمَّى سوى أنه حق وحرية، من الظلم أن تمتثل للقواعد، بل من الهراء أن يستجيب الجميع دون انتفاضة مستحقة، لكنه أعطى عذرًا لنفسه كما أعطاه للآخرين وهي قصة مرجانة التي أرهبت القلوب وقضت على الحب، أو ربما صنعت منه شيئًا عتيقًا خالدًا في الأذهان وأمنية بعيدة المنال كأن يتمنى المرء أن يلامس النجوم رغم استحالة أن تبلغ الأنامل عنان السماء، لكنه ما زال يأمل أن يصل..

لذا احتفظ فارس بحقه في اختيار حبيبة الروح، ولم يكترث إن فقد روحه بعدها، شغل عقله بحمايتها فهو لا يريد أن يلحق بها الأذى إن كانت نهاية عشقه لها موته، ليمُت رجلًا فليس هناك ثمة شرف قد يناله الرجال أسمى من الفداء بروحه لأجل أن تحيا حبيبته، لكنه يدري مدى وحشية القوانين، وكيف تُعاقب المرأة على وحشة الغرام.

ضمَّها إلى صدره، فمالت لتشتد بقبضتها الصغيرة على ظهره لتنكمش ثيابه بين أناملها، اقتربت من عنقه بلطف وطبعت قبلة بحنان، كانت نيران العشق تضرم الأفئدة، ينكوي الشوق

بداخلهما، ولا يستطيعان معه سبيلًا، كيف المقاومة لقلب قد انتصر عليه الهوى؟

تبادلا النظرات والعيون تعلن الموافقة، ريثما الأجساد تستمر في المعارضة، يا إلهي زفرها الاثنان معًا وأنفاسهما في تلاحق، والأبدان تتعانق، ولا يفرق بينهما إلا قواعد تتعارك للنيل بالفراق والحسم بالعذاب، فهل من مخرج؟ وهل يجوز الانصياع لرغبتهما، أم أنه اختيار في نهايته انتظار لانتحار حتمي!

اقترب منها واستطرد بأنفاس تُحرقه:

- أخشى أن أقربكِ فنصبح على ما فعلنا نادمين.

أطالت النظر لعينَيه العسليتين وردت بخجل وخدر يسري بعروقها ويُذهب بعقلها:

- إن كان مقدرًا لي الموت، فدعني أجرِّب لذَّة الحب معك للمرة الأولى، وإن أصبحت المرة الأخيرة، فقد نال جسدي شرف ملامستك له.

أرخى حاجبَيه في حنو، ثم قال لها وهو يكاد لا يصدِّق ما يتلفَّظ به لسانها:

- أي شرفٍ تناليه وأنتِ على أعتاب أن تفقديه يا بشرى؟.

ردَّت بغرور:

- بعض الأشياء لذَّتها تكمُن في فقدها يا فارس.

تعانقت شفاه فارس وبشرى وغرق كلاهما في بحر من

المشـاعر، حب ممزوج بالنـدم، وموج يصطـدم بقلبَيهما لتختلج أجسـادهما بفعله، وتنتشـي عقولهما معه، لحظات اقتنصاها عنوةً من الزمان، لم يشـهدا لها مثيلًا، طمسـت معها إحساس الندم، أو هكذا ظنَّا..

تلك الليلة عادت بشـرى وفارس شفق مفترقَين بالطبع، لكن بقـت قلوبهما متصلة برباط لـن ينقطع. التحمت الـروح بالروح، والجسـد بالجسـد، وانتهـى الأمـر، ولا عـودة لنقطـة البداية، بل عليهما تدوين نهاية لقصتهما معًا، قد لا تفضي إلى الموت.

دقَّت بشـرى باب شـامة قبل أن ينبلج الفجر، فتحت لها شامة بملامـح يغلـب عليها النعـاس، حاولت تمييز الوقت واسـتيعاب سبب وقوفها صوب دارها. سألتها بقلق:

– هل أنتِ بخير؟ كل شيء على ما يرام؟

أجابتها بشرى منكسة الرأس وصوتها مغلف بطبقة حزينة:

اسمحي لي بالدخول، وسأحكي لكِ بالتفصيل.

أدركت شـامة أنهـا تركت صديقتهـا وتحدثا مـن على الباب كالغربـاء، أدخلتهـا واحتضنتهـا بحنان، حرَّكـت راحتيها لتلامس ظهرها بلين وطمأنينة فانفجرت بشرى بالبكاء، توجَّس قلب شامة وانقبـض لرؤيـة صديقتها في هـذه الحال، لقد حلَّـت مصيبة على سماء الرفيقتَين لا تفقهان كنهها.

– ماذا بكِ يا بشرى؟ لا تصمتي، أخبريني ما المسألة؟.

سألتها وهي تتفحَّص ردة فعلها وتغيُّر ملامح وجهها، أصابعها

ترتجف وقدماها تهتزان بعصبية، إنها مؤشرات لا تنذر بالخير..

قررت بشرى الإفراج عن صمتها والإلقاء بما في جعبتها دفعةً واحدة:

– لقد كنت مع فارس اليوم، كأي زوج وزوجة، منتهى الرضا والندم أيضًا على ذنبي.

سقط الخبر على شامة كالصاعقة، انفرج فاهها واعتصر قلبها ألمًا، ضربت بيديها رأسها مرة واثنتين وثلاث، تطالع بشرى، فهي بمثابة أخت لها وليست مجرد صديقة لم تثق بأحد بالقدر الذي وثقته بها، تبكي وتضمها ثم تبكي من جديد، ثم بغتة صفعتها كفًّا دوى صداه أرجاء البيت.

استطردت بعصبية تستحوذ على كيانها حتى إنها في بعض اللحظات لم تستطع خفض صوتها:

– هل جننتِ؟ أنتِ فقدتِ عقلك بالفعل لتتمادي معه إلى هذا الحد، أنتِ غبية ستموتين ألف مرة، ستصبحين غانية يطؤك الرجال متى ما اشتهت أنفسهم! لماذا طاوعتِه؟ كيف هانت عليكِ نفسكِ؟ ادعي الله في كل حين ألا تحملي في أحشائك طفلًا يتسبب في هلاكك.

صرخت بشرى معترضة:

– كفى! جئت إليكِ كي ترحميني، لا أن تقسي عليَّ وتذبحيني بسكينٍ بارد، أنا نادمة على فعلتي وأعلم مدى فداحتها، لكن ما عشته اليوم هو أفضل ما قد تشعر به امرأة طيلة حياتها، أن يلمسها

الرجل الذي تحبه، ألا تتوقين لأن يلمسك جواد ولو مرة؟ ألم يخطر في بالك هذا أبدًا؟.

– ابتلعي لسانك فورًا ولا تتفوَّهي بهذه الترهات مرة أخرى!.

أومأت رأسها إيجابًا، ثم أكملت:

– لم آتِ لتعلميني الفضيلة وسبُل الحفاظ على حياتي، أعلم أنني ربما على مشارف الموت، لكن هذا في مملكتنا فقط وطبقًا لقواعدنا اللعينة، أنا أريد الهجرة للشمال، أو لأي جحيم آخر العشق فيه ليس بخطيئة!.

ضحكت شامة بسخرية، ثم صفَّقت بيدَيها في استعراض وأردفت بمرارة:

– تريدين أن تضاعفي عقوبتك، هنيئًا لكِ الموت في سبيل فارس.

وثبت بشرى وهي تهمُّ بالرحيل وحاولت صديقتها إيقافها، ظلَّت مستمرة في إلقاء عبارات اللوم، عروق رقبتها برزت كأنها ستنفجر، لا تستمع إلا لصوتها ولم تكُن لديها القدرة لتضمد جراح بشرى، أو حتى الإحساس بها، الدرس الوحيد الذي تعلمته شامة من هذه الحياة هو أن نهاية العشق موت حتمي، وكل ما كان يفزعها حينئذ أنها لا تريد أن تنتهي حياة بشرى.

قبل أن تغادر الأخيرة بيت شامة تأملتها للحظات ثم استطردت:

– أنا أشفق عليكِ، أنتِ لا تملكين التعاطف ولا تعترفين

بالحب، سأنصحك لأنني أحبِك، قدمي لنفسك ولو قليلًا، أحبيها يا شامة لربما تعذريني حينها.

غـادرت وعقل شـامة يعتصرها بالأسـئلة والمخاوف التي لا يمكنهـا مواجهتهـا وحدها، ومـن جهة أخرى تندم علـى توبيخها لصديقتها وفشلها في مساندتها وهي في أمس الحاجة إليها..

أحيانًا السبيل الوحيد لإدراك النعَم يتمثَّل في فقدانها.

***

فـي الصبـاح الـذي تلا ليلـة أمس بـكل غبَـش وقتامـة وثقل أصـاب القلوب، التقـى الجميع في العمل، فهو المسـتقر الأوحد الجامـع لفئات وأناس مختلفـة ينصب كل طرف منهم ليعمل بكد لصالح غسـق، تلك المملكة التي تصيب قومها بالسقم دومًا، ولا تتعافـى منه أبـدًا. تظـل المصدر لكل الجـروح الغائـرة والقلوب المنهزمـة، لم تتحدث الصديقتان كعادتهما، بل تحاشـتا اختلاس النظـرات وانشـغلتا فـي العمل، أما فـارس فاقترب مـن جواد في الآونة الأخيرة، وأصبح يشـاركه في جزء كبيـر من اهتمامه بالتربة وصحتهـا، مما أسـهم في نشـأة علاقة طيبة بينهمـا أثاثها الاحترام المتبـادل، يتَّسـم فـارس بعصبية حميدة، عـادةً ما تكـون إيجابية، يستطيع التحكُّم بها كيلا يتأذَّى المحيطون به، بل ويوجهها بشكل يمكِّنـه من تفريـغ طاقته إما بسـاعات إضافية بدوامـه يحصد فيها أعـدادًا أكبر من المحاصيل أو يحمل شـكائر ويوصلها للمملكة، وأحيانًـا أخـرى يصطاد الأسـماك مـن النهر، ولا يعـود إلا بعد أن

يتخلـص من غضبه، بخلاف جواد الذي اتسـم بالهدوء والحكمة واحتماليـة أن يتحـول لهـذه الدرجـة من الهيـاج يتطلـب تعرُّضه لضغط هائل يؤدي لحتمية إفراغه، ولا يبالي حينها ما إذا كان ذلك سـيصيب أحدًا سواه بالضرر أو حتى يحطم شـيئًا ثمينًا بفعله، لذا انسجمت شخصيتاهما التي كان فيهما شيء من الكمال للطرفين.

لـم يمـر اليـوم مـرور الكـرام، حينمـا حـان وقـت جمـع المحاصيل، اكتشـف جواد الكارثة لقد ماتت الزهور والأشـجار، جفَّـت تمامًـا كما لـو أنها صبار يتوسـط صحـراء! ذبُلـت ثمرات الفواكـه والخضـراوات، وبـدأت تهـوى علـى الأرض وتفتقـر للحياة، أصبحت فاسدة وقد تغذَّى الدود عليها بما يكفي ليصيبها بتجويف عميق يستحيل معه أكلها..

صُعـق الجميع وأحسـوا أن شـيئًا مهيبًا سـيحدث، وسـيخيِّم الحزن على مملكتهم قريبًا، لكن جوادًا كان يدري أن تلك الكارثة ليسـت سـوى عاصفـة تحذيريـة لإعصار آخـر يأكل بطـون القوم ويتغـذى علـى جوعهـم، ما حدث ليـس إلا بداية ظهـور لمجاعة أصبحـت وشـيكة، رمق تسـاؤلات الرؤوس من حولـه، ثم نكس رأسه وأردف بحزن:

- يجب أن نُحذِّر ونُخطر الملكة لعلها سنوات عجاف.

الفصل السادس

«الخوف هو الوجه الآخر للبقاء»

- مملكة غسق داخل جناح الملكة.

تغيرت ملامح الملكة حُرة حينما بلغها ما صار صبيحة اليوم. ارتبكت بعض الشيء وابتلعت ريقها بصعوبة، جفَّ حلقها وأحسَّت أن دوارًا شديدًا يحاوط رأسها، غير قادرة على تحمُّله أو تخطِّيه، بحثت عن الحل بأعيُن جواد كغريق يتعلق بقشة واحدة، ظن أنها وحدها قادرة على نجاته، جواد لم يحرِّك ساكنًا رغم أن صدره يرتج والذعر يملؤه، أثارت حركاته من فزعها، فراحت تسأله عن المدة الزمنية التي بحلولها ينصلح الحال، فلم يعطها إجابة تريحها، وأبلغها أن الخضراوات والفواكه المتبقية لن تستمر طويلًا، وقريبًا سينقطع الطرح. التربة في طريقها للموت والأرض ستصير بورًا، على المملكة أن تتحرَّك لتوفر الزاد لشعبها وبدائل صحية تؤهله للتعايش حتى انصلاح الحال، جل ما دار بخلدها هو سؤال واحد ألحَّ كحشرة مزعجة تئز بلا توقف، متى تعود الأمور لأصلها ويزول الخوَى؟

وقف جواد أمامها عاجزًا عن الإجابة؛ نظرًا لأن تساؤلاتها تخص عوامل قدرية لا شأن له بها، مَن منَّا سيختار الموت إن وُضع في خانة الاختيار سوى اليائس من رحمة الله.

طلب منها الاستعانة بالصبر، وأخذ الاحتياطات اللازمة لحماية المملكة التي تقع تحت كاهلها وبضرورة خروجها لتخاطب الناس وتبعث الطمأنينة بقلوبهم وتزيل القلق قدر المستطاع، بدا كلامه منطقيًّا، وفلح في إقناع حُرة، وختم جواد

حديثـه بوعدهـا ألا يغادر إلا بعد أن يعثر علـى حل، وإعادة الأمن الغذائي للمملكة.

لـم تعُد حرة تملك رفاهية الاختفـاء، عليها الظهور ومواجهة الكارثة التي حلَّت بأراضي غسق.

أعلنت عن موعد تجمع فيه الناس ودُقت الأجراس، واصطفَّ الحـراس في انتظـار حديثها اليوم الذي يحمل بين طياته مسـتقبل أُسـر يتعلق في عنقها، رقاب أطفال ونساء كُثر، تردَّدت وارتجفت حُـرة للمرة الأولى قُبيل صعودهـا المنصة التي لطالما اعتلتها بثقة وغـرور، اليوم حارت وتحيَّرت في طريقة تسـتهل كلامها بشـكل يقلل من وطأة المشهد، ويحد من وقع الداهية.

تنحنحت وبدا صوتها يخرج بصعوبة محشرجًا:

– شـعبي العظيـم وأهالي مملكة غسـق، عصب هذه اليابسـة وأعمدتها الشـامخة. أخشـى اليـوم أنني أقف أمامكـم عاجزة عن تقديـم حـل يعفينـا من الفاجعـة التـي أصابتنا، لكنه أمـر قدري لا شـأن لي به، ولا صلاح بيـدَيَّ يمكنني إمدادكم بـه وامتنعت عنه، يجـب علينـا التكاتف حتـى تزول الغمامة وينقشـع النـور، أتمنى منكـم أن تحافظـوا على مخـزون الطعـام لديكم ولكننـي أعدكم بأن أعوضكم سـريعًا بالمخزون الموجود في مخازن المملكة من طعام لينال منه المقتدر والفقير، أمراء وملوك وعوام، سـينال الزاد بالقـدر الـذي يمكنه من العيش، أوصيكم بادخـار البقوليات، وما تبقى من الثمرات للضرورة القصوى، وأطالبكم بالصبر والصلاة،

والالتحام لمواجهة الأزمة، وأنا أثق بجواد وأعلم أنه سيجد طريقة تنتشلنا من مجاعة محتملة، حفظكم الله، وإلى لقاء قريب.

صفَّق العوام ثم انصرفوا، ولم يتبقَّ أحد سوى شامة وجواد، وكانا في أشد الحاجة لمساندة بعضهما، أشار إليها كي تتبعه، ففعلت دون جدال حتى وصلا إلى النهر.

بللت شامة يدَيها بالماء ومسحت به وجهها، كانت تفتقر لأن تشعر بشيء ينعشها وتستفيق معه من هول ما سمعت وما هو آتٍ، التفت جواد إليها وأنحى شروده جانبًا، ازداد جمالها سحرًا مع حيرتها وخوفها من المجهول، جلست في مقدمة النهر وتركت المياه تداعب تنورتها الوردية الناعمة، احتضنت ساقَيها وضمتهما إلى صدرها، اقترب جواد وجلس بقربها وسألها باهتمام:

- ما هو أكثر ما يُقلقِك؟.

اعتدلت في جلستها ورمقته بينما عقلها شارد في ملكوت بعيد، أجابته وهي تتأمَّل حركة الماء:

- أخشى أن تكون النهاية.

- عن أي نهاية تتحدثين؟

- المملكة يا جواد، الظلم السائد بها سيقضي عليها.

راحت تجهش في البكاء لعل من خلاله تنفذ بعض الراحة لصدر أثقلته الهموم، لم يفكر جواد مرتين، اتخذ قراره ولم يحمل عقباه؛ ضمها إليه بتلقائية وحب بلغت قوتهما عنان السماء التي تظلل عليهما، والشاهدة على عشق باتا يفرَّان منه، لم تبتعد شامة

أو تصدر ردة فعل عدائي كعادتها، استسلمت كالطفلة التي أرهقها اللعب فراحت تستريح بحضن يبعث إليها بعض الطمأنينة التي حُرمت منها منذ الصغر، لم تنعم شامة بطفولة هادئة أبدًا، تسببت في أن تقسم ألا تقع باسم الحب أسيرة في يد رجل يودي بحياتها، ويضيع كل ما قاتلت لأجله فيذهب مع الريح.

حكت شامة لجواد عن عائلتها وذكرياتها المؤلمة التي لم تتناسب مع طفلة عمرها خمس سنوات، أبوها وأمها أحبا بعضهما حبًّا جمًّا مثل الحكايات الخرافية التي تُذيب القلوب من عذوبتها وقررا الزواج، وبالطبع كما هو متوقع رفضت الملكة زواجهما وارتأت أنهما لا يصلحان أن يكونا معًا، انهارت الأم وأحس الأب بقلة الحيلة، وفي ليلة باردة تسللت الأم تحت أمطار غزيرة يكسوها ليل كاحل اتفقا أن يهربا سويًّا تاركين المملكة بقواعدها لتحترق في الجحيم، أبوها كان مزارعًا، عاشا معًا على أطراف حدود المملكة وسط الصحراء وفي الخلاء تشاركا في بناء بيت صغير يحميهما من برودة الشتاء وأشعة الشمس، وزرع الأب بعض المحاصيل لتصبح مصدر غذائهم خلال عام، وفي تلك الأثناء استطاعا النجاة بالصيد والشواء كما كانت هي حياة الإنسان البدائي، هكذا استمرت الحياة بينهما، تزوجا وأنجبا شامة حتى أصبحت عمرها خمس سنوات، ظلَّت الحياة مستقرة ويعيشان في سعادة وينعمان بسكينة تلائم عائلة صغيرة، وكانت شامة تساعد أباها في الحصد والزراعة وعلمها الكثير عن النبات وأسراره، وذات يوم حدثت الكارثة بعدما أصدرت الملكة قرارًا

تأمـر فيه حراسـها أن يجوبوا أطراف المدينة بحثًا عن شـابة هاربة اسـتطاعت أن تفلت من العقوبة. بعدمـا رآهم جندي مُقرَّب لحُرة أبلـغ عن مكانهمـا فانطلق جيش من الحـراس يبحث عنهما حتى وجدوهما، جمعوا الحصاد الذي زرعه أبوها طوال هذه السنوات ثم أحرقوا الشجر كله وعادوا بهم للمملكة، ترقرق الدمع في أعين شامة، رفعت رأسها بحنو تنظر إلى جواد وبضعف بالغ أردفت:

– هـل تعلـم ماذا فعلـت بأبـي وأمي تلـك المرأة السـاقطة؟ سأحكي لك.

***

أدرك قلـب شـامة ذات الخمسـة أعـوام أن هنـاك أمـرًا جلل يحدث، ولا تفهم لِمَ هي تجلس بحجرة مظلمة وحدها لا يتسللها إلا بصيـص ضوء نهاري بسـيط، ولِمَ فرقتها هذه السـيدة عن أبيها وأمها؟ إنها تشـتاق إليهما ولرائحتهما الطيبـة، وتتوق احتضناهما كي تطمئن. لا تعلم كم من الوقت قد مضى وهي على هذا الحال، خائفـة ووحيدة، لكن بغتـةً انفتح البـاب وكان يقف خلفه حارس قـوي البنيان، فارع الطول وأسـمر البشـرة، أصلـع وهيئته أفزعت الصغيرة، لكنـه اقترب منها بحنان وربت على كتفها برفق وهمس بصوت أجش:

– لا تخافي أيتها الجميلة، لن يؤذيكِ أحد.

جـاءه رجل من خلفه يأمره أن يُحضر الطفلة للمنصة، تعجَّب لطلبه وقال بضيق:

– لا ينبغي أن ترى شيئًا! سيترسَّخ في ذاكرتها، لن تنساه أبدًا، ألا يمكن إقناع الملكة، لا ذنب لتلك البريئة!.

رد باقتضاب:

– هل نسيت أننا هنا للسمع والطاعة فحسب يا مستنصر؟.

سألته شامة في براءة:

– مستنصر، أهذا اسمُك؟.

أومأ رأسه إيجابًا، فعادت تسأله:

– هل يمكنك أن تأخذني لأبي وأمي؟ أرجوك اشتقت إليهما.

ذرف دمعة جففها فور سقوطها، ضم الصغيرة إلى صدره وحملها حتى لامست قدمَاها موضع المنصة، أنزلها من بين ذراعَيه وهمس بأذنها:

– تذكري يا جميلتي الفقد يُولِّد الصلابة، ودونه لن تتعلمي كيف تواجهين الحياة. الفزع تعقبه الشجاعة، والوهن يتبدل لشدة، سامحيني لو كان بيدي الأمر لمنعته، آسف!.

لم تفقه شامة حرفًا مما نطق به مستنصر في ذلك الوقت، لكنها ستفهم لاحقًا ما تحويه باطن الكلمات، أبصرت والدَيها، فراحت تجري وتغمرهما في شوق بالغ طوَّقتهما بذراعَيها الصغيرَين، للمرة الأولى لم يستطيعا ضمها، نظرت إليهما، رأت الأغلال تحيط برسغ الاثنين، حاولت بسذاجة الأطفال أن تفك قيدهما لكن دون جدوى، بكت واستنجدت لعل أحدًا يساعدها وينتشلها من مصيبتها، وكأنما صُمت الآذان جميعًا، فجلست جوارهما في استسلام.

حُـرة لم تخاطب قومها حينئذ كما تفعل، وجَّهت حديثها كله للطفلة المسكينة بجبروت لا تتقنه سواها:

– شامة، يعجبني اسمك، هل تعلمين أنكِ تقفين على أراضي وطنك التي إليها تنتمي؟.

أرخت الصغيرة عينَيها وأطرقت رأسها، لا تعلم بماذا تجيبها. استمعت إليها فحسب، وجل ما يدور في ذهنها متى ينتهي كل شيء وتعود لديارها بصحبة والدَيها؟

استرسلت حُـرة الحديث دون توقُّف وهي تداعب وجنتَي شامة:

– في وطنك يا شامة، الزواج دون إذني عقوبته القتل، وأبواكِ تزوجا بعد رفضي، هربا خارج البلاد وعصيا أمري، وكانت نتيجة غبائهم وغفلتهم أنتِ، دعيني أيضًا أخبرك أن الأطفال تُقتل إذا خالف أهلهم القواعد، وأهلك اقترفوا ذنبًا جسيمًا بحقك وبحق أنفسهم.

بكت وانتحبت، توسَّلت وركعت تطلب العفو حينما وقع على مسامعها سيرة القتل، لا، لا يمكنها أن تفقدهم هي لا تعرف أي شخص سواهما، ولا تملك عائلة غيرهما، كيف تعوضهما، فهي لا تعرف عنهما بديلًا، لا بديل ولا عوض يمكنه أن يرمم ما يُحدثه فراقهم بالروح.

وكأنها حجر بلا مشاعر، لم يطرف لها جفن أو تحرك كلمات الطفلة الباكية بها ساكنًا، التفَّ حبل المشنقة حول عنق والدتها

وارتفعت عن الأرض، لم تحاول المقاومة، استسلمت للقدر وللموت. نظرت إلى طفلتها تستجدي القدر أن يمنحها وقتًا أطول للنظر إليها؛ لأنها تعي جيدًا أن الفراق قد دقَّ بابها، وكم تمنَّت أن تأخذ شامة معها لترحمها مما ينتظرها من ألم سوف يُطبع في روحها حتى تلقاها، ولوم سيلحق بها ليُفسد صباها.

تمتمت بحرقة:

– أحبِك استطاعت شامة قراءة شفاه أمها بيُسر ولطف وغُصة تعتصر قلبها الصغير. انتزعت الروح من جسد الأم عنوةً، راح بدنها ينتفض ويختلج، انتفض جسد شامة معه، ارتجفت دون توقف، تنهنهت وارتعشت من قُبح ما ترى، بدن يترنَّح في الهواء لوهلة صور لها عقلها أن أمها امتلكت قوة خارقة جعلتها تطير كالتي تُروى في الحكايات، اقتربت من ساقها ببطء، وقفت على أطراف أصابعها ومطت جسدها الضئيل لتصل أخيرًا، لامست طرف ثياب أمها وراحت تحركها يمينًا ويسارًا لعلها تستجيب، صرخت وأجهشت بالبكاء، داخلها نار تحرقها بلا هوادة، دارت حول نفسها، أحسَّت بالسخط وراحت تضرب حُرة بكفَّيها الصغيرَين بكل قوة أُوتيت بها، وترجوها أن تُعيد إليها أمها، توسلت واحتقن صوتها تارةً، وزأر تارة أخرى، قلبها يتأوَّه كأنه سيشقُّ صدرها ويخرج الألم الذي لا يُحتمل، قدَّمت نفسها قربانًا، حاولت استعطافها مثل كلب وفي دؤوب لا يكل، عرضت كل شيء أملاه عليها عقلها، هوت أرضًا واستسلمت بعد هذا كله..

عُوقبت الأم بالشنق أمام ابنتها لهروبها خارج غسق.

أخـذوا الأب بعدمـا فارقـت زوجتـه الحيـاة وتمَّـت عقوبتـه بالإخصـاء، جسـده لـم يحتمل اسـتئصال جـزء حي مـن رجولته قسـرًا بمنتهى العنف، كأنه حيوان بري خطيـر يصطادونه ويقوموا بتعقيمه ليتقوا شـر انتشـاره، كان آخر ما رأته عيناه هو جسد حبيبته المتخشِّـب الشـاحب، كيف نازعـت روحها التي أبـت الخروج، فلم تجد سـواه سـبيلًا، اقتلع فراقها قلبه وشامة المسكينة ستواجه الأيام بمفردها فلم يعطه القدر فرصة ليُلقنها دروسًا تتعايش بها مع مرارة الواقع، الحسـرة انضرمت بصـدره، انطلقت كما تلتهم النار الهشـيم، ثم بعد ذلك كله لم يشعر بالنصل الذي يستأصل رجولته ويهتك كرامته التي لم يعُد لها قيمة بعد هذه اللحظة، الخدر يسري بجسـده، أبصر الدماء تنبثق من أسـفله فلم يُعيرها اهتمامًا، أرخى جفونه وهدأت نفسـه، استكانت روحه، سيرتاح من وجعه ربما.. لن يفلح في التنصُّل من أخطائه، لكنه على الأقل لن يضطر العيش مع عواقبها.

حينما اسـتيقظت شـامة أبلغوها أن أباها قد لحق بأمها وفارق الحيـاة، وأن كل مُخالف للقواعد سـيُلاقي بشـاعة هـذا المصير، وعليهـا ألا تقتـدي بهـم فـي فعـل أو عمل فيكـون جزاؤهـا بعده المـوت، ينضـج المرء في صبـاه حينما تُدنس براءته بمدى قسـوة العالم وظلمه.

كانت تلك أول مرة تختبر فيها شـامة إحسـاس الفقد، ولسوء

حظهـا اختبرته بأقسـى الطُّرق، لقد قادها قدرهـا أن تخطو قدماها على الشـوك وهي مـا زالت تتحسـس أولى خطواتها فـي الحياة، لكنهـا بكل يقين قد تعلمت الدرس الـذي ترك ندبات بروحها لن يقوى الزمان على محوها.

***

لم يسـتطع جواد إيقاف دمعه الذي انهمـر ليبلل وجنتَيه، ضم شـامة لصدره وحاوطها بذراعَيه فغمرها الإحسـاس بدفء عميق يشـبه الـدفء الأبوي، بالاحتواء الكُلي كأن كفَّيـه بمثابة حنو يملأ ثقـوب الخواء داخلها، كما لـو أن روحها الغائبة قد رُدَّت إليها من لمسة حنون وعناق حقيقي.

أدركت أن قلبها يفتقد الكثير من الأشـياء، أهمها أن يشعر أنه على قيد الحياة، أن تشعر بضرباته ترج صدرها، والأهم أنها كانت بحاجة للإيمان أنها تستحق ذلك كله، وربما أكثر.

لـم يكُن بمقدورهمـا البقاء معًا لوقت أطـول، وجب الرحيل لأن الحـراس تتجـول لتفقُّد جميع جهـات المملكـة قبل غروب الشـمس، وهـا هي تُعلن عـن غروبها وفـراق العشـاق، لكن هذه المـرة أعطى جواد شـامة ورقة مطوية، وطلـب منها قراءتها حينما تصل إلى بيتها سالمة.

لم تقوَ شامة تحمُّل الانتظار أكثر، وفور عودتها فتحت الورقة وراحت تقرأها بشغف وحماس طفولي، فكتب جواد:

– أريـد رؤيتك، لـم يمهلني الصباح فرصة لتأمُّـل عينَيكِ، لم

أكتفِ بعـد، أريد الغرق والقدر يدفعني للطفـو على الدوام، أعلم أنهـا مخاطـرة، لكنني لا أملـك إلا المخاطرة بحياتي أو بعشـقي، وكلاهما خيار واحد، قابليني ببيت نشـال سيحضر فارس وبشرى أيضًا، سأنتظرك ولديَّ يقين أنك ستأتين.

انتفـض قلبهـا وسـرى الخدر في جسـدها، حلَّقت فراشـات بصدرها تحمل من الحمـاس والطاقة حتى خُيِّل إليها أنها يمكنها التحليق بخفة كالطير، لكن ما من ثوانٍ حتى باغتها الخوف يندس بيـن ثنايـا فرحتها ليطفئ بريقها الوهاج، رغم أنها تسـللت خلسـة أكثر من مرة في الليل لتذهب إلى دار بشـرى ولم تنكشـف، لكنها الآن تشـعر بمضاعفة الخطورة كما لو أن جبينها قد كُتب عليه كل مـا يخططـون لفعلـه، سـتنفضح لا محالة، أو هكـذا ظنت فهي لا تسـتطيع السـيطرة على هذا الكم من المشـاعر داخلهـا، والتي لم تعتـد على أيٍّ منهـا، كيف يمكنهـا الكتمان وعيناهـا تُصران على الاعتراف والإفشاء؟

حسـمت أمرهـا وانتهـى الجـدال مع قلبهـا وفي دُجـى الليل اتبعـت ما أملاه عليها فؤادها الذي يتوق لرؤية جواد، ذلك الرجل الغريب نجح في إعادة شـعور العائلة إليها، فما هي العائلة سـوى الأمان والطمأنينة؟ أن تطمئن بجوارها، تنام قرير العين بوجودها، فيهجـرك الخـوف ولا يفلـح في سـكنك، أن تتعـرى بضعفك في حضورها دون خجل؛ لأنك تملك من اليقين ما يكفي لبقاء الحب رغم الهوان، ليُحسن ويُتم الناقص رغم الحرمان.

ما إن وصلت ودقَّت بحرص، فتحت بشرى الباب بحذر وترقُّب، منذ عدة سنوات اتفقت الصديقتان على صوت بعينه لدقِّ الباب لا يعلمه سواهما، لذلك تعرَّفت على صوت دقة أناملها بسهولة، سمحت لها بالدخول ثم راقبت الأجواء لتتأكَّد من عدم تتبُّع أيٍّ من الحرس لشامة، أو أن يحوم الجنود حول بيت نشال لسبب أو لآخر، ربما صدفة بائسة قد تتسبب في إفساد لحظات يقتنصونها عنوةً من الزمن، وانتهاء حيوات لم يعيشوها قَط.

بالداخل اجتمع الأصدقاء والعشاق في أجواء تملؤها البهجة، خافضين أصواتهم، يتحدثون في همس، ولكنهم سعداء بحق، ضحكات صادقة ترتسم على الأوجه، ومحبة خالصة تنبثق من الأعين وهدوء ينتشر بالنفس ليمحي ضجيج الصدور التي أرهقها التمنِّي، وأهلكتها الوحدة.

تصالحت شامة وبشرى بعد خلافهما الأخير، فما صار مع شامة ومشاعرها المتدفقة لجواد جعلها تتفهَّم تصرفات بشرى، وأن الحب لا يخلو من الحماقات التي نقترفها بكامل رضانا وإن عاد بنا الزمان لربما نكرر الخطأ نفسه من جديد دون تعلُّم الدرس، فقط كي نشعر بذاك الشعور الممتع مرة أخرى، وليحترق العالم بعدها، فأي غرام بلا جنون لا ينضم لقانون العاشقين، الحب إن كان حقيقيًّا قد يدفع المرء لارتكاب أفعال تبدو لمَن حوله بلا منطق، لكنه يُصر أن يُبصر بعينَيه فقط، لا يمانع بأن يضحي بروحه ويرتضي ضياع نفسه لأجل الفوز بمن يُحب عن استحقاق، أليس هكذا تُحسب الانتصارات؟

نشال كان يراقب نظرات شامة وجواد باهتمام وابتسامة بريئة، كاد يقسم أن هذه المملكة لم تشهد من الحب حبًّا كالذي نشأ بين جواد وشامة، رغم عدم إفصاحهما، إلا أنه لم يكُن بحاجة للتخمين، بدا جليًّا، نظرات طويلة يختلسها جواد تارة ويتبادلانها كلاهما مرات والأعين لامعة، ينضح بها بريق الهوى، وسكينة بلغت حدود قلب نشال فأدفأته بأمان.

لقد خلقنا الله بفطرة تميل للحب، حب العبادة، الدعاء، الصلاة، التوق لرؤية الله، حبه وحب ما يحبه، لماذا أفسد البشر بهاء ونقاء ذلك الشعور، أي عادات وأي قواعد تغتصب عذرية قلب أراد الخروج عن القطيع وبتر أحبال المألوف ليوصلها بمَن حار واحتار حتى يقع عليه اختيار مشاركة قسوة الحياة معه وتستحيل دونه وعما سواه!

تلك الليلة قصدها جواد ليداوي بها جراح شامة التي نفضت عنها الغبار بين ذراعَيه في الصباح، أراد أن يعوِّضها عن الفقد بعائلة، ويحاوط عقلها ليُخرسه عن التساؤلات، ويعفيه من اللوم، ويُعصمه من نقاش كاد أن يفتك برأسها ووحدة اعتادت أن تؤنسها وتنهشها، تخبرها أنها ستمضي الباقي من عمرها وحيدة، يتبدَّل صباها بالهرم، ويشيخ قلبها دون أن يتذوَّق حلاوة الموت بجوار مَن أحب وصادق وانتمى.

مرَّت الليلة بسلام ودفء وأُنس يسري بوريد الجميع، وثِقت المحبة وازداد رباطهم قوة. غادر جواد وشامة سويًّا، ترجلا حتى

بلغـت الأخيرة بيتها، لم يكُن هناك وجود للحرس أو حتى ظلّهم، أمسـك جواد بيد شـامة، لم تسـحبها أو حتى تعبِّر عن اعتراضها. داخلها شـيء ارتضى الفعل وتمنَّى تكراره، لكن الحب والخوف متضـادان لا يجتمعـان، كيـف تمنـع نفسـها عـن الالتفـات يُمنـةً ويسـرى، وترقب أي حركة أو ظل عشب قد يسبب لها أزمة قلبية، بينمـا هو لم يكتـرث، وطبع قُبلةً حانية تحمل بيـن طياتها اعتراف صادق، ألقى جواد بها بسـهام عشقه وهو على يقين من أنه أصاب الهدف، قلبها يتراقص ويكاد يسـمع صداه وأناملها قد اسـتكانت بيـن راحتَيه، لـن يعطيه القدر فرصة أفضل من هـذه، لذا كان عليه اقتناصها، أدام النظر إليها وبصوت أجش يتذوق الكلمات ويحس مكنونها:

– يا ذات العيون السـاحرة والروح اللينة والقلب الماسي، لم أقابل في حياتي فتاة تنافس جمال حُسـنِك، أو اعتزازك بكبريائك رغم التذلل في بلادك، أنا أحبُّك يا شامة، وأريد أن تتعطَّر أنفاسي كل صباح برائحتك البهية التي تغمر الروح، أريد الزواج بكِ، هل تقبل امرأة مثلك بي؟

الفصل السابع

«يتحوَّل العشق في بعض الأحيان إلى أقصر الطُّرق المختصرة للموت»

بشـرى لم تكتـفِ بلقـاء حميمي واحـد مع فـارس، ازدادت مقابلاتهمـا بالكهف المنعـزل على أطراف المملكـة، في كل مرة يغمرهما العشق ويتناسـيان الأذى والقسوة المصاحبَين لعالمهما إلا أنه شـعور لا يخلو من الندم والإحسـاس بالذنب، فما يفعلانه ليـس فقط مُخالفًا للقواعد والأعراف، بـل أيضًا مخالف للعقائد، إثـم كبيـر يحملانـه، ولا يعلمان كيفيـة التخلُّص منـه، فكَّر فارس بالزواج سـرًّا، كي يخفِّف من وطأ الخطيئة، وتكون توبة نصوحة، عسـى أن يغفـر لهما اللـه ضعفهما وقلـة حيلتهما، ويرفـع عنهما سـخطه وغضبـه. ربما إذا توقفا عـن فعل المعصية باسـم الحب، يتوقف الظلم والفسـاد السـائد في أرض المملكة، لعل حرة تردع عـن المقاتلة باسـتماتة لتطبيق عدالـة زائفة، من الممكـن أن يرقَّ قلبهـا وترفق بشـعب أهلكـه الانتظار، فقـط إذا رضـى الله عنهم، فسيقول كُن فيكون.

بشـرى أصابهـا الذعـر إذا انفضـح أمرهمـا، ولكنها لـم تبتغِ الاسـتمرار فـي إغضـاب الخالـق لأجل إرضـاء مخلـوق، قدرها مكتوب وما سـتؤول إليه النهاية سـوف يحـدث لا محالة، يمكنها فقـط أن تنسـج من خيـوط الحكاية سـطرًا يُحسـن مثواهـا، والله قريـب مجيـب يجيب دعوة الداعـي إذا دعاه، والمغلـوب يومًا ما سـينتصر، إن وعـد الله حق، بـاب التوبة لم ينغلـق وعليها القبول والتسليم بالمصير.

بعـد ثـلاث ليالٍ، نجـح فارس في إقناع شـيخ صالـح، يدرك جيـدًا أنـه يعارض تحريـم ما حللـه الله، لكنـه لا يملك شـيئًا إلا

النصح والإرشاد، وعدم إلقاء أنفسهما بالتهلكة وهو ذنب كبير، في النهاية عقد القران وبارك للزوجين، وطلب منهما الحفاظ على السر، وحفظ أنفسهما وإن صار وكانت نهايتهما الموت، على الأقل لا يلقيان ربهما وهما على معصية. غادر بعد أن ربت على كتف فارس بحنان، وطلب منه الاعتناء بزوجته.

***

التعافي من ألم إصابة جسدية يحتاج بعض الوقت للالتئام والشفاء، أما آلام الروح فلا مهرب منها، والتعافي أمر عصيب يتطلب ذاكرة توقفت عن التخزين وقلب باتت مسألة التأثير فيه مستحيلة، هكذا قضى شاهر فترة نقاهته بين صراع مع آلامه التي ينبغي التخلص منها، سئم من رقدته بالفراش ومن تحسُّنه الطفيف وتفكيره الذي يعمل كترس لا يتوقف، يبغض أمه بعد الحادثة الأخيرة، فما اقترفته بحقه لا يُغتفر، لا يستطيع محو المشهد من مُخيلته ولا يستطيع أن يمنع عرضه كل ليلة، لكنه أبدًا لم يعتَده، ففي كل مرة يشجي صدره وتفجع نفسه من قسوة الأفعال ومدى براعة حقيقتها، بين الفينة والأخرى يحاول عقله نصب فخ، أن ذاك اليوم لا يمت للواقع بصلة، بينما هو مجرد أضغاث أحلام عليه فقط الاستيقاظ منها، ولمدة ليست بالقليلة ظل شاهر محتجزًا بين إغماءة وإفاقة، ولا يبلغ أيًّا منها.

الشيء الوحيد الذي ساعده على التخطي وأعطاه الصبر والقوة ليسترد صحته من جديد هي شامة، قابلها آلاف المرات في

أحلامه التي تراوده أثناء يقظته، يتذكر براءتها وحركاتها وتمردها، عنادها وإصرارها وشجاعتها، ليست كأي فتاة نشأت في أراضٍ مظلمة تُربي أجيالًا على قبول الذل، وإن خالفت الأوامر رغباتهم فقط عليهم السمع والطاعة، شامة الوحيدة التي تحلَّت بجسارة وثبات رفض الأمير، مما جعله يهيم بها عشقًا، ومن النفس أنه حتمًا سيفوز بقلبها يومًا ما بالرضا لا الإجبار.

بعد أن استرد صحته وعاد يمشي على قدمَيه بشكل شبه طبيعي من جديد، أول ما ود فعله هو أن يرى شامة، فهو قد اشتاق إليها، ولم يكُن ليجعلها ترى عجزه أبدًا. لا يبتغي أن تعامله بشفقة أو أن تمصمص شفتَيها تعاطفًا معه، ذلك كفيل بقتله في الحال، أما الآن فلا مانع للقاء، ولا مبرر للانتظار، وكانت تلك هي أول مرة يستدعيها الأمير، وألزمها بالحضور لجناحه الليلة مساءً، وإن رفضت لن ترى شمس اليوم التالي، لم يتخيَّل أن يبتز الفتاة التي يحب، ويصبح في نظرها وغدًا لهذه الدرجة، لكنه يمتلك من اليقين ما يكفي ليعلم أنها لن تأتي إلا بهذه الطريقة، وقد فاض الشوق واستحال معه التحمُّل والانتظار.

***

وصل الأمر لشامة، تبدَّلت ملامحها وأحسَّت بغصة تحتل صدرها وتفرض نفسها فلا تشعر بسواها، لا تدري ماذا تفعل وكيف يمكنها الهرب، حارت وتحيَّرت، ثم مكثت لبرهة وفكرت في جواد، نعم ستذهب إليه وترجوه ليفعل شيئًا يمنعها من هذا

الطلـب الغريب، كأنما يدعوها لخلـوة، وطبقًا للقواعد التي تنص علـى عـدم الاختلاء بفتاة، يسـقط طلبه لأنه غيـر قانوني، ولكن.. اللعنة تذكرت العداوة التي تجمعهما، وأنها لن تكون الطرف الذي يشـعل فتيل الحرب التي لطالما أرادها شـاهر، لن تحقق له مطلبه بهذه البسـاطة. خشيَت شامة العواقب والتي على أقل تقدير ستثير بلبلـة بالقصر ونتائجهـا غير مضمونـة، عقدت العزم أنها سـتبذل قصـارى جهدهـا ألا يصل الخبر لجواد، عسـى أن تنفلت أعصابه ويرتكـب حماقة ما لا يُحمـد عقباها، باتت تفكر في طريقة تعتقها من الذهـاب أو طريقة تنقذها إذا ضاق الخنـاق عليها، واضطرت قسرًا أن تذهب إلى القصر.

انقضت السـاعات النهارية في سـلام ليحل الليل ضيفًا ساكنًا ويحيـن الموعد مـع الأمير، قررت شـامة المواجهة، ولا بأس من تلبيـة النداء أو خرق القواعـد والأوامر، ارتدت شـامة ثوبًا طويلًا بلـون الرمـال، فضاضًـا، مصنوعًـا مـن الكتان ويناسـب بشـرتها القمحية السـاحرة، تركت شـعرها مبعثـرًا منسـدلًا ليغطي نصف ظهرهـا بنعومة، اصطحبها الحراس لجناح الأمير وتركوها وحيدة صـوب الباب، ترددت شـامة للحظات ثـم دقَّت البـاب بأناملها، سمح لها بالدخول، أصبحت بالداخل وأغلقت الباب.

كان الأمير قد اعتلى فراشه الحديدي الضخم وقد تزيَّن بثوب أحمـر من الحريـر وتعطر بأطيب الروائح، أشـار إليهـا بالجلوس وأقام من مجلسه وجلس بجوارها على الأريكة المقابلة للفراش، ابتعـدت بعـض السـنتيمترات البسـيطة حتـى بقت علـى الطرف،

ضعفها لن يجدي نفعًا، بل سيعطيه إحساس بالقوة وانطباعًا بالرضا عما تحويه نواياه التي تجهلها، رمقته بتحدٍّ ورفعت رأسها المنحني على الدوام، ثم أردفت:

– سموك قد استدعيتني اليوم، هل لي بمعرفة سبب مجيئي بالليل؟ ألم يكُن الصباح أفضل؟ وهل جلالة الملكة على علم بتلك الخلوة؟

أثارت جرأتها في الحديث معه إعجابه، إنها لا تهابه رغم خوفها وأناملها التي ترتجف، توبخه، ولكنها تحترمه. تلعثم وخرجت الكلمات من فمه مبعثرة، ثعبانية وغير مرتبة:

– إنها ليست خلوة و....

قاطعته شامة:

– أعلم أنها ليست خلوة، سموك أدرى بقواعد غسق، وتعلم جيدًا أن ذلك لا يجوز، وحتى الأمير لا يحق له الاختلاء بفتاة إلا بموافقتها، وأنا جئت إلى هنا بالإكراه.

أجابها بلين وهو يحاول أن يهدِّئ من روعها ويشرح لها الحقيقة:

– شامة، أنا أردت محادثتك على انفراد، ذلك كل ما في الأمر، أرجوكِ اهدئي واسمعيني.

قالت باقتضاب وقد قامت من مجلسها:

– وما الذي يجمع بيني وبين سموك لتحدثني به في الخفاء؟.

أحسَّ شـاهر بمـدى عنادهـا وأدرك أن الاعتـراف بحبه ليس بالشـيء الهيِّـن كمـا تخيـل، أراد التمهيـد ودراسـة الخطـوات والاقتـراب منها أكثر، أن ترى قلبه الذي لم يعشـق سـواها وتحيد بنظرهـا عن كونـه الأمير، فهو على اسـتعداد للتخلـي عن الحكم وعن كل شيء من أجلها.

ألقى بثيابه الملكية أرضًا وأمسك بيدها ومن الصدمة لم تشعر شـامة بيده تلامس يدها أو تفطن أن عليها سحبها، تخدَّرت جميع حواسـها غير مصدقة لما يقوم به ذاك الأمير، مَن يصدِّق أن شـاهر المتعالـي الذي يمشـي رافعًا أنفه للسـماء بغـرور يرجوها فقط أن تسمعه؟

استرسـل شـاهر وأصر أن ينتهـز الفرصة، فهي بيـن يديه ولم تنهره حتى هذه اللحظة.

– شـامة، أنا منذ وُلدتُ وعيناي لا تبصر جمال امرأة سـواكِ، فتيات المملكة كلهن بكفة وأنتِ وحدك بالكفة الأخرى، أحببتك كمـا أحـب المجنـون ليلـى، راودتِني فـي أحلامي وعن نفسـي، اشـتهيتك وكان بإمكانـي أن أحصـل منـكِ علـى مـا أريـد بأقصر الطُّـرق، لكننـي اختـرت أطولهـا، مقامُك عـالٍ، أميرة تسـتحقين الدلال، أنا أحبك وعلى استعداد لأن أفعل أي شيء إن كان مقابله الوصـول إليكِ، هذا يكفي اليوم وهذا سـبب مجيئك، وإن أردتِ الرحيل تأكَّدي أنني لن أمنعك.

تسـمَّرت شـامة مكانها بينما تحرك شـاهر إلى الشرفة، بقيَت

وحدهـا بالغرفة تتصبب عرقًـا وقلبها يثور، كاد أن يخترق صدرها ومعدتها، كادت أن تنفجر من الخوف. عقلها يضخ الأسئلة لرأسها حتى شـعرت بثقـل في دماغها، مـاذا دهاه؟ أتناسـى أنها من عامة الناس؟ فتاة فقيرة عاملة لا تملك أي شـيء غير جمال غير مكتمل وحرفـة صناعة العطور، لا عائلة أو مال أو ذكريات طيبة، كيف لم يدهس قلبه بقدمَيه حينما فكر أن يدقَّ إليها ونهره على بشاعة ذوقه وتدنِّيه، والشـيء الآخر الذي يسـتحيل معـه علاقة كتلك، هو قتل أمه لعائلتها وتحويلها لفتاة يتيمة هشـة ووحيدة كغصن هزيل بقيَ صامدًا رغم اقتلاع جذور الشجرة.

اسـتدارت شـامة إليه وحاولت أن تتمالك نفسـها وألا تسقط من عينَيها قطرة دمع واحدة، أردفت بثقة:

– مولاي الأمير، إنه لشـرف لي أن يقع شخص مرموق مثلك بحبي، لكنني أخشـى أنك لا تعلم ما حل بي بسبب طغيان مُلكك وقواعد والدتك، هل بلغَ سـموك أن الملكة قد قتلت عائلتي أمام عينَيَّ؟ حرمتني من حضن أمي ريثما تشبعت أنت من حنانها طوال عمـرك، علمتنـي الوحـدة وأحاطتك بالونـس، أذاقتنـي الحرمان وأغدقـت عليك بالنِعم، عِشـتُ بسـببها في جحيـم وتمتعت أنتَ بالنعيـم، ثم مـن أجل القواعد كسـرت قدمك وكرامتـك ولم تأبه بمظهرك، لا تحدثني عن الحب ما دُمت لم تنشأ عليه يا مولاي.

لم يكُن شاهر على علم بما صار مع شامة في طفولتها، أحسَّ بسـخونة تجـري بأوصاله، تصبغت وجنتـاه بالحُمرة من الخجل،

انخرس فلم يستطع الرد، رحلت شامة دون أن تنبس ببنت شفة، وجففت دمعة خانتها وسقطت للتو..

***

دائمًا ما تأتي الرياح بما لا تشتهي السُفن، لقد وصل إلى جواد خبر وجود شامة بجناح الأمير شاهر. الحراس لا يكفُّوا عن الثرثرة طوال الوقت، ونشال هوايته المفضلة هي التنصت، لذا حينما وصله النبأ راح يذيعه على الفور لجواد الذي فارت دماؤه واشتعل الغضب بعروقه. حطَّم كوبًا زجاجيًّا وانتشرت شذراته بالأرض، ترجَّل في اتجاه القصر فأوقفه نشال ونهره على حماقته. تواجده بمحيط القصر في هذه الحالة تعني انتحاره لا محالة، سوف يطلقون عليه النيران أو يصيبونه بسهم أو أي سلاح يمكنه أن يقتل، سيقتلونه به دون تردد، وبلمح البصر فهو بالنسبة لهم إما لص أو عدو، والاثنان مصيرهما الموت.

عقل جواد لا يرفق به، يُخيل إليه شاهرًا بصورته القذرة يحاول لمسها وهي تتصارع لتنفلت من بين قبضته فلا يعطيها فرصة، تصرخ فلا يسمعها أحد، تركل بقدمَيها فيُثقل جسده الذي يشبه الثور فوقها أكثر ليُقيد حركتها، أنامله تعبث بشعرها وشفتيها، يريدها لنفسه وأن يضع بصمته عليها وأن يكون أول من يسكن رحمها، ويدمرها كما دمرتها أمه من قبل فالخراب يأتي تباعًا من تحت رأس هذه العائلة اللعينة التي احتلت المملكة بفكرها الوضيع وبقواعدها الظالمة، ينفض جواد عن رأسه الأفكار

السيئة، وما هي إلا ثوانٍ وتعاود دكَّ عقله من جديد، يضرب نشال بمعدته كي يتوقف عن محاولة ردعه ليستمر الأخير ويتجاهل آلام بطنه، لماذا لم تخبره؟ سؤال يطرق رأسه كمطرقة حديدية تصيبه بألم غير محتمل بمؤخرة رأسه، ودوار حاد كاد أن يفقده وعيه، شيطانه ظل يتلاعب بعقله ويلح بخبث، ربما أحبَّت أن تصبح مع رجل ذي سُلطة يغنيها عن فقرها ويعوِّضها شقاء الأيام وتعسر الأحوال، ألا تطمح كل فتاة بفارس على حصان أبيض أو أمير كالحكايات؟ ما بالك بأمير حقيقي بإشارة منه تنتهي حيوات أناسٍ آخرين، وبإشارة أخرى يعتق رقابًا، ويجمع شمل أُسر صغيرة كاد أن يقتلها الفراق، وماذا إذا أرادت شامة الانتقام منه وإعادة حقها الضائع، من المحتمل أن تبتغي شقَّ صدره لتُقهر حُرة على ولدها الوحيد، وأن تذيقها من العذاب كما سقتها هي منه كؤوسًا طوال سنواتها بالمملكة، أو أن تتزوجه لتصبح حينها من أفراد العائلة الحاكمة، وقد تصاب الملكة بالشلل عندما تصبح فتاة فقيرة من العوام قادرة على التلاعب بأفكار وقرارات ولي العهد، وحينها قد يسحب بساط الحكم من أسفل قدمَيها دون سابق إنذار.

أسئلة ووساوس كثيرة ظلت تجتاز روح وفكر جواد وجميعها تُشعره بالعجز، بمدى ضآلته وقلة حيلته تحت أسقف هذه المملكة الحزينة، توقَّف بغتة عن المحاولة وافترش الأرض، ثم انفجر بالبكاء ليحتضنه نشال مواسيًا، يربت على ظهره وكتفَيه ويبذل قصارى جهده ليهوِّن عليه المحنة، ما أضعف الإنسان أمام مشيئة الخالق، عجبًا لإنسان يحارب من أجل أشياء لن تصبح له

أبـدًا، تلتهـم من روح المرء حتى يصبح خاويًا من الداخل كريشـة تقذف بها الرياح لتنال من ضعفها وخفتها.

سـويعات قضاهـا جواد فـي تفكير مظلـم وبكاء، ثـم انتفض متجهًا لبيت شـامة الفضول ينخر عقله، يريد أن يتأكد من عودتها، وبما جرى خلف جدران ذلك القصر المشؤوم، حاول نشال إيقافه هذه المرة أيضًا، لكنه لم يسـتطع الانتظار حتى شـروق الشـمس، كيف يمكن أن تغمض جفون عينَيه وهو لا يدري أين تبيت حبيبته وبأي فراش تمكث؟

بعد محاولات بائسـة من صديقه خرج جواد ومشـى مسـرعًا متخفيًـا يجاهـد كيـلا يـراه أحـد المـارة أو الحـرس يتجـول بين الدهاليز والطرقات التي كسـاها ظلام ليل حالك، وصل إلى بيتها أخيـرًا ودق الباب ثم جلس أمام بيتهـا، عصف به الإحباط، يرتعد من فكرة أنها ليسـت بالداخل، كان قلبه يرتجف بشـدة وارتعشت قدماه خشـية ألا تفتـح ويبرح مكانه طـوال الليل منتظـرًا عودتها، مـا هي إلا دقائق معدودة وسـمع حسـيس خطـوات تقترب وفُتح الباب، وانتصب واقفًا غير مصدق، احتضنها بتوق وشـوق ولهفة، لـم يكُن ليظن أنها بداخلـه، لم تحاول دفعه، لكنها تسـاءلت تُرى هل علم بذهابها للقصر؟

زفر بضيق:

– لماذا لم تخبريني؟ هل فعل ذاك المختل بكِ شـيئًا؟ شـامة أجيبيني!

لم تنطق بحرف وأشارت له بالدخول كيلا يراهما أحد في دُجى الليل، بدى عليها التوتر وبدأت تعبث بأناملها، ويوقفها عقلها كلما حاول لسانها الكلام تبتغي البوح والتخلص من هذا الثقل الذي تحمله فوق عاتقها، لكن يقف خوفها حائلًا بينها وبين مصارحته بالحقيقة، ألحَّ عليها بالأسئلة، تدفَّق الكلام منها رغمًا عنها لتتخلص من اتهاماته وتحاول طمأنته:

- أنتَ أول من فكرت أن ألجأ إليه حينما دعاني ذاك الوغد لقصره، لكن كيف أستغيث بك وأنا أعلم أنني بهذه الطريقة أعرِّضك للخطر! إذا أبلغتك بالحقيقة لكنت قمت بفعل جنوني أعلم جيدًا توابعه، لقد ذهبت وعُدت في سلام، لم يمسسني بسوء.

- وماذا أراد؟

سألها بترقُّب وينظر إليها عن كثب، احتارت بين إخباره أو كتمان السر، لكن ليس هناك وجود لأسرار لا تُفشى وهي لا تريد الكذب ولا تحبه، لذا ستخبره وتحتوي غضبه:

- أراد الاعتراف لي بشيء خاص به لم يكن ليقوله أمام العوام.

- العوام التي أنتِ واحدة منهم؟

قالها مستنكرًا كلامها ومعترضًا على تلعثمها الجلي لأي كفيف، كان يمتلك من اليقين ما يكفي ليجعله واثقًا أنها تُخفي شيئًا.

- إنه يحبني يا جواد، وأراد الاعتراف لي بذلك.

هو لم يكُن غبيًّا أو ساذجًا، كان يشعر أن ما فعله شاهر معه لم يكُن رد فعل طبيعي وقسوة مبالغ فيها، وأن حدته حملت بين طياتها شيئًا خفيًّا، وهو عشقه لشامة، انهال عليها بالتساؤلات واحتوته هي بالإجابات التي لم يكُن غرضها التوضيح، بل أرادت شامة بها الإثبات لجواد أنها لن تختار سواه أميرًا لتعشقه مرات ومرات، وحتى تفنى بها الدنيا وينتهي العمر.

ضمته إلى صدرها وهمست برقة:

- أنا أحبُّك، أحبك يا داري وأجمل أقداري، أنت الأمان في عالم كبير من الحرمان، أنتَ أيها الغريب أحسست معك معنى الوطن ودفء البيت وونس الروح، أنتَ يا كل روحي بك أتنفس وإليك أنتمي.

تسمَّر جواد ولم يحرِّك له ساكنًا، سيطرت شامة على جميع حواسه بحسنها واعترافها وصدقها المنبعث من عينَيها وأوصالها، أحسَّ لذة الهوى وقلبه بين ضلوعه قد لان واستوى، أي سحر تمتلك؟ أي براعة تلك التي تخمد بركان من الغيرة كاد أن يشق أوتاره ويحرقه بناره الكاوية، قوة شيطانية بملامح ملائكية، إنها له ويجب أن يظفر بها، همس في أذنها برقة وحنان:

- ما رأيك في أن تصبحي زوجتي الليلة؟.

انتفض قلبها وقفز يتراقص داخلها بفرحة تعتريه فقط، أومأت برأسها إيجابًا فلم يستطع جواد الانتظار، وطلب من نشال استدعاء شيخ ليبارك الزيجة، فاستعان فارس بالشيخ الذي عقد قرانه على

بشرى لم ينتظرا طويلًا حتى نجح فارس ونشال بالاتفاق مع الشيخ وإحضاره إلى بيت شامة خلسةً في سكون الليل ليعقد زواجهما في الخفاء بعيدًا عن أعين المملكة المتلصصة، وفي حضور أقرب أصدقاء شامة وجواد، بدت بشرى سعيدة من أجل شامة تبتسم بحب، وتربت على كتف صديقتها مطمئنة، في غضون دقائق بوركت الزيجة وأصبحت شامة ملكًا لجواد، غادر الجميع وبقيَ الزوجان وحدهما ببيت شامة.

يا الله، الشامة التي تعتلي شفتيها تغازله، تختبر صبره، تصرخ بوجهه أن يقترب وهو يتبعها مسلوب الإرادة، تقابلت الأنفاس، الأفئدة تتراقص بالصدور والقوى تتهاوى رويدًا رويدًا، شامة وجواد يستسلمان لمشاعرهما ويتلاعبان بالنار، وتنهار المقاومة. دنا منها وقبَّلها في لحظة توقف عندها الزمان احترامًا وتقديرًا لمدى قدسية هذه الليلة، إنه له وزوجته كأنما أخيرًا بات يلمس أحلامه بيدَيه، ما بال القمر غدا بدرًا متشرِّبًا بالحمرة، كأنما خفت توهجه في خجل وإجلال خشية أن يُفسد ضوؤه الساطع سحر تلك الأمسية.

لم تدرِ شامة بنفسها إلا وهي تذوب بين ذراعَي جواد وقد أسكرها الحب، أذاب جليد خجلها وخوفها، بل إنها صارت ليِّنة كقطعة من الحلوى يشكِّلها كيفما يريد، رفعت راية الاستسلام وتركت الأجسام تلتحم لتعزف مقطوعة يتذكرها كل عصر وأوان، وتدوَّن على أرفف الأزمان وتُخلَّد بين أذهان كل حبيبَين كقصة ملحمية لم ينتصر عليها الطغيان.

هدأت أنفاسهما المتلاحقة وتبادلا النظرات، شامة تنظر تارةً وتحيد بعينَيها للجهة الأخرى تارة أخرى، لو أقسم لها مِئة عراف وألف خبير ممن يدعون أنهم يرون المستقبل، أو حتى أُتيحت لها فرصة التطلع إلى قدرها، لما صدَّقت أنها يمكن أن تصبح ذات ليلة بين ذراعَي شاب وتسلِّمه نفسها، أغلى ما يمكن أن تقدمه أي فتاة لرجل.

كيف انصاعت خلف رغباتها وسارت معصوبة العينَين، استمعت لصوت قلبها وأخرست صوت عقلها، فما عادت تسمع له حسيسًا، رباه، أهذا هو الحب الذي يُقتل في سبيله الناس؟ مقطوعة تعزف لحنها أوتار مصنوعة من سيوف حادة تطعن برقة وعطية بهية ولعنة مباركة بها تهب محبة بها شفاء للصدور ومشقة للنفوس في بلادي العاشق يخط نهايته بخط يدَيه، ترى هل تلك هي نهايتي؟ وكم من الأسطر يمكنني الكتابة حتى ترتخي جفوني للمرة الأخيرة، هكذا باغتها الندم وقضى على لحظات سعادة لم تدُم طويلًا، وبات صوتها الداخلي يبثُّ بأوصالها الرعب، غمرها جواد بحنان وهو يكاد يسمع تناقضاتها. فرحة يكسوها حزن دفين وسرور يتبعه الأنين، قبَّل رأسها وربت على كتفها بنعومة. لم يخطط جواد لأي شيء صار هذه الليلة، إنما تكالب عليه قلبه وسعى لامتلاكها، قاده إلى حافة الهاوية، ولم يخمد حتى بلغ ما ابتغى.

همس بأذنَيها بصوت أجش:

– شامة، أنا لن أتخلى عنكِ أو أفقدك، لأموت أنا فداء أنفاسِك.

هبـط الدمـع مـن مقلتَيهـا، السـعادة التـي أضفاها قربـه منها علـى قلبها لم تكُن لتشـعر بها إلا معه، شـبهته بإحسـاس قادم من الفردوس. ولحسن حظها قد هوى على أرضها، ولم تمتلكه امرأة سـواها، لكن هوس فقدان كل شـيء يطاردها كشـبح خفي يجثم علـى صدرها، فلا تجـد منه مهربًـا، حاولت التمسُّـك بنعيم تلك اللحظات، وألا تسـمح لرهبتهـا بإرهابها، ربما عليها أن تسـتمتع بارتخـاء جسـدها وشـعورها بالطمأنينة رغم كل مـا يحيط بها من ذعر، بادلته نظرات ذات معنى ثم همست:

– هل تستمع لصوت دقات قلبي الذي يتراقص في حضرتك؟ أشعر كأنني أمتلك العالم لأنك بجواري وأشعر لأول مرة بأنوثتي التي خبأتها من وقت ما اشـتدَّ عودي، أنـا أحبك حبًّا جمًّا يا جواد يعجز لساني عن لفظ وصف يليق به.

عقـدا اتفاقًا أن ما صار هـذه الليلة لن يتكرر حتى يعرف الكل بزواجهما، وبعدها غفت بسكينة دافنة رأسها بصدره.

حل الصباح ضيفًـا ثقيلًا على الحبيبَين ليُفصح عن انتهاء ليلة قـد أصبغ فيها العشـق أفئدتهم بسـخاء لا مثيل له، اسـتيقظ جواد وشـامة بفـزع على صوت طرقـات متتالية تدقُّ بـاب دارها، ها قد عاد الخوف من جديد، أو بالأحرى، إنه قد بدء للتو!

الفصل الثامن

«التضحية هي أن تمنح دون أن تنتظر المقابل،
وأن يغمرك الرضا مهما بلغ ثمن عطائك»

انتفـض الاثنـان وارتـدى كلٌّ منهمـا ثيابـه علـى عجل، شـلَّ الخوف حركة شـامة، احتـارت بين فتح البـاب أو تجاهله، تمنَّت أن تنشـق الأرض وتبتلعها في الحال، هدأ جواد من روعها واختبأ تحت الفراش، حرص على ألا يظهر من جسـده أو ملابسه شيء، طلب منها أن تتحلى بالهدوء وترى من الطارق وماذا يريد، ابتلعت ريقهـا وهندمـت ثيابهـا وعقصـت خصـلات شـعرها، جاهـدت لتبـدو طبيعية، وأتقنت رسـم ملامح النوم علـى محياها، ثم أخيرًا تشـجعت وفتحـت الباب صُعقت مـن هول المفاجـأة، وحاولت أن تـواري ارتباكها وتنحـي ذعرها جانبًـا، كان أحد الحرس يقف أمامهـا بترقُّـب وهو أمر لم يحدث من قبـل أن تدق الجنود أبواب العوام ببكرة الصُبح. تسـاءلت عن سـبب مجيئـه وطرقه المزعج، أخبرهـا أنـه أمر طـارئ لا يحتمـل التأجيـل، ثم أجحفهـا بصدمة أخـرى ارتجـف لها قلبهـا، أبلغهـا أن الملكـة تبحث عـن جواد، والـذي لم يبِت بغسـق البارحة، اختفى كما يذوب السـكر بالماء، فأمرت بالبحث عنه في كل بيت من بيوت العوام لعله يبرر سـبب مبيته أو غيابه، وترى الملكة ماهية حُجته.

انخرس لسـان شـامة وأومأت برأسـها إيجابًا متفهمة. باغتها الجندي بالسؤال:

- هل رأيتِه أو زارك ليلة أمس؟.

حركت رأسها بالنفي وقالت:

- لا، لم أره منذ صباح اليوم الماضي.

سألها بمكر:

- ولماذا تبدين متوترة؟.

لم تجِب وبنفس اللحظة أجابه نشال الذي وقف خلفه مباشرةً بنبرة ساخرة:

- هل تبحثون عن جواد وتدقُّون أبواب الفتيات؟ ما علاقتهن بأمور كتلك! عار على المملكة الطاهرة، ولِمَ لَمْ تطرقوا بابي أولًا، فأنا على دراية بالكثير من الخبايا.

نهره الحارس على استخفافه وألزمه بالإلقاء بما في جعبته، فأخبره نشال أنه سوف يصطحبه للمكان الذي رآه فيه آخر مرة، ثم غمز لشامة في إشارة منه لخروج جواد من بيتها في الحال؛ لأنه على دراية بمبيته عند شامة، فهو من أوصله إلى هناك. فذهب مسرعًا بعدما انتشر خبر البحث عنه، أغلقت جفونها بامتنان فقد خلصهما نشال للتو من موت محقق.

خرج جواد يتحسَّس خطواته ويحاول ألا يصطدم بالحرس الذين انتشروا كالجراد في أراضي المملكة بأثرها، تتبع نشال والجندي حتى وصلوا لبيت نشال فتظاهر بالوقوف شاردًا بجواره دفعه الجندي فانتفض محتجًّا عن الطريقة التي عامله بها، سأله عن سبب غيابه عن غسق ووجوده بشفق، فأجاب أنه لم يغادر من الأساس منذ البارحة، وبقيَ مع نشال بعد انتهاء فترة العمل، واضطر للبقاء قسرًا وتحجَّج أنه أصابه مغص فتك بمعدته فلم يستطع العودة، وبقيَ في بيت نشال، نهره لكونه تصرَّف من تلقاء

نفسه، وأبلغه أن الملكة تأمره بالحضور للقصر فورًا.

عنـد وصـول جـواد بدت حُـرة منزعجة مـن غيابـه المفاجئ ومبيته خارج حدود غسـق، وهو ما استغربته وأثار حفيظتها لكنها لم تعلِّق، لم يكُن هناك أهمية لأمور بسيطة كتلك. الحدث الجلل يفرض نفسـه على الجميع، توتر جواد وبدا قلقًا لأنه لا يفهم لماذا حرة تطالعه بنظرات غاضبة والحراس منكِّسين الرؤوس وخرس تام يحوم بالأفق، بادر جواد بالكلام:

- جلالة الملكة بلغني....

قاطعته حُرة باقتضاب:

- بلغـك ماذا؟ هـل أنت واعٍ لما يدور حولك من الأسـاس؟ أين كنت البارحة، ومَن سمح لكَ بالمبيت بالجهة الأخرى!.

سكَت ولم يُعقِّب، كظم إحساسه بالغيظ منها، فهو لم يعُد يطيق النظر إليها بعدما سـقط عنها قناع العدل الزائف، ومدى جحودها على طفلة صغيرة لا تعي أيًّا من ترهاتها، بسببها قاست شامة الكثير في طفولتها حتى باتت ذكرياتها مشوشـة متناثرة وحلوها مصبوغًا بالمُر، لوهلة أراد جواد تهشـيم رأسـها، ولم يستطع السيطرة على قسماته النافرة من ظلمها الذي فاحت رائحته، إنها مثال حي لقبح الإنسـان وشـره، نخـاف دومًا مـن الحيوانات والظواهـر الخارقة للطبيعة وأشـياء أخرى، وربما مخلوقات لكنها أبدًا ليست ببشاعة إنسـان قد فقد إنسـانيته وخسـر فطرته التي خلقه الله عليها، مسخ مشـوَّه عالق بين البشـر والذئاب الفارق الوحيد بينهما، أن الذئاب

تهـاب وتهـرب، لا تهاجم إلا إذا جاءتها الفرصة، أما الإنسـان فلا يردعه شيء، ويتقن الفتك بالآخرين بلا ندم.

عـاد صوتهـا يحدثه مـن جديد بنبـرة تحذيرية وخائفـة في آنٍ واحد:

– النهر ينحسـر منسـوبه لدرجـة قاربت علـى الجفاف! أتعي ذلك؟ أنت المسـؤول أمامي عن إصلاح كل شيء، لقد أحضرتك إلـى هنا كي تزدهـر البلاد، وما صار هو أنهـا تقهقرت أكثر وأكثر، نحن على مشـارف الموت بسـبب مجاعة قد تدفع البلاد للهلاك. أوجِد حلًّا وإلا ستكون نهايتك بمملكتي، أعدك بذلك.

تعجَّب جواد وباغتها في استنكار:

– هل تطلبين مني تغيير إرادة الله؟ انحسـار المياه يُعد ظاهرة طبيعية ليس باستطاعتي أنا أو غيري منعها!

ضربـت على عصاها بقوة وهمَّت بالوقوف بغتةً لينتبه كل من بالحجرة:

– أنـا لن أسـمح لأي مخلـوق بتدمير مملكتـي، ولا تخبرني أنهـا إرادة الله، هل يهلك الرب شـعبًا بأكمله دون حتى أن يرتوي جوفه!.

– وهل يهلك الله أرضًا إلا بعد أن يعيث من عليها فسادًا؟.

قالهـا جواد دون تفكير، لم ينـدم بعدها لقد طفح كيله وضاق خلقـه، أي امرأة تلـك وأي جبروت تمتلك؟ إنهـا تطالبه بإصلاح إرادة إلهيـة! كمـن يقف أمـام الإعصـار ويظن أنه حتمًا سـيوقفه!

نظـرت له والشـرر يتطاير من عينَيهـا، لا تنوي خيـرًا ولا تُدرك ما تفعل أو تقول. يبدو أنها تفقد صوابها بالبطيء..

قالت بحزم وهي تتوعَّد جوادًا:

– لن أحاسبك على كلامك الآن، نحن بالمركب ذاتها، وأنت نوح وستنقذ تلك السفينة شئت أم أبيت.

أمرتـه بالذهـاب مـع الحـرس للنهـر ومراقبـة ما وصـل إليه منسـوب المياه، وهل يسـتطيع أن يتوقع متى بالضبط من الممكن أن ينحسر ويجف تمامًا، بالفعل رافقه الحراس إلى هناك، بالوهلة الأولى، اقشـعر بدنه وفغر فاه ممـا رأى، فما أبصره لا يُقر الأعين، إنه هلع بالفعل ورائحة الخوف والموت تتفشَّى بالمكان..

مـا تبقَّى مـن النهـر كان بمثابة ارتفـاع خمسـة أذرع، والعمق خمسة أخرى، سبب شُح الماء من البداية وقلة وفرتها كان سدًّا قد تم بناؤه منذ سـنوات طويلة، ورغم وجوده لـم تختفِ المياه بهذه الدرجة وبهذه السرعة..

مـن المحتمـل أن يجف المـاء بحلول عـام، أو ربمـا إن كان الحظ عسرًا أشهر قليلة، وتلك كارثة حقيقية ونكبة قاتلة.

***

حـذَّرت الملكة من تفشِّـي الخبر في البـلاد، ونهت الحراس عـن أن يتناقلوه، وأي شـخص يخالف ذلك ويتجـرأ بالبوح حتى لأمه سـيكون عقابه هـو الموت لـه ولعائلته، لتضمن عـدم انتقال الخبر للآخرين.

شددت حُرة وظنت أنه أمر لن يلاحظه العوام، فهم قد اعتادوا مشهد شحيح الماء، وليس هناك جديد يُذكر تراه العين من مجرد مطالعة النهر أو العبور بقربه، لا سيما أن المنسوب بالفعل قد ازداد انحساره، لكنه لن يبُثَّ الذعر في نفوس الناس مثلما بثَّه في أعين الخبراء والمتنبئين على حد قولها.

جواد لم يكُن متأكدًا من التاريخ الصحيح أو الفترة المضبوطة التي يمكنه من خلالها تنبُّؤ الانحسار، الملكة اعتبرت كلام الدجالين مقدسًا، كما لو أنهم يرون المستقبل من كُراتهم البلورية، جواد أعطاها من ستة أشهر إلى سنة، ليست مدة لتحديد وقت الجفاف ذاته، إنما مُهلة للبحث عن بديل وإيجاده، أو بالأحرى إنه وقت تستعد فيه المملكة للنجاة من هلاك محتمل.

الإحباط قد أحاطه من جميع الاتجاهات ولا يجد مفرًّا، يشتاق لوطنه، لقد قارب صبره على النفاد بمملكة غسق، فترة طويلة لم يرَ أو يتواصل فيها مع أحد، وكانت شامة هي الشيء الوحيد الذي يدفعه للاستيقاظ كل صباح ويحُثُّه على استكمال ما بدأ، بعدما امتلكها أمس، أحسَّ أن فكرة العيش دونها تمثِّل خنجرًا نصله حاد، يخترق ويقطع قلبه إربًا لمجرد التفكير فيها، والوضع في المملكة بالفعل لا يتحرك إلا من سيء إلى أسوأ. لم يطرأ أي جديد منذ أن خطت قدماه أراضي غسق، وها هو ابتلاء آخر على مشارف الوصول، يجب أن يرى شامة الليلة رغم خطورة الاختفاء مرة أخرى، لكنه قرر المجازفة خاصةً بعد ما صار بالقصر اليوم، الملكة لا تكترث لشيء سوى المصيبة التي حلَّت على سماء

بلادها، سيراها لبعض الوقت ويعود أدراجه، إنه في حيرة، هل يخبرها بما آلت إليه أحوال البلاد؟ إنه يثق بها، ويعلم أنها ستصون السر، لكنه لا يضمن كيف ستتعامل مع تلك المحنة ومدى تأثيرها على مشاعرها، إنه ليس بهيِّن أن ينتهي عالمك بأسره من حولك ولن يُجدي القتال أو الصراخ نفعًا، فقط الانتظار، ذلك الوحش الفتاك يتغذى على الخوف، ويتجرع القلق ثم يتركك عاجزًا تشاهد وقدماك مثبتتان بأرض النهاية دون حراك.

تحت سماء ليل دامس اجتمع العاشقان، وفي هذه المرة وقع الاختيار على بيت بشرى، احتضنت شامة جواد فور رؤيته وطوَّقته بذراعَيها، غمرته واشتمت رائحته بشوق، ما أقسى عذاب البُعد عمَّن تُحب، المسافة تُعد فراقًا يحياه كل عاشق كلما اضطرته التخلي عن أحضان حبيبه، الخطوة الواحدة مقدارها ألف عام، حينما يبتعد عنها تشعر أن قلبها قد اقتُلع من بين حنايا صدرها، وأن روحها أعلنت الرحيل، فتغادر معه ولا تعود إليها إلا بعودته.

من فرط شوقه سأل جواد الحاضرين أجمعين:

– ألم تشعر تلك المرأة قَط بحلاوة الحب؟ ألم تتذوق جماله أو انكوَت بنيرانه؟ مَن هي لتفرض سيطرتها على أفئدة ليس عليها بسلطان!.

تنهَّدت بشرى وشامة، وامتعض وجها فارس ونشال، يعلمون جميعهم أصل الحكاية ولكثرة ترديدها باتت باهتة ومملة، ومصدرها كان رجلًا رحالة هو من أحضر حُرة للبلاد؛ لأن غسق

ليس موطنها الأصلي، ويُقال إنها تخلَّصت منه لأنه فضح أمرها، وكشف حقيقتها. وعذرها كان أقبح من الذنب الذي تسبَّب في تشكيل هذا الكم من البغض والظلم.

توسَّطت شامة المجلس، تنهَّدت مرة أخرى وأخبرته أنه أصبح فردًا من العائلة، وأنها سوف تروي له قصتها وحكاية امرأة حكمت عهدًا بالتعسُّف والطغيان، أردفت وهي تنظر إلى الشرفة بأعين شاردة.

الغرام كأس ما إن سُقي منه المرء ذاق سائغ الأشياء، حلاوة السكر وكذلك مرارة العلقم، وحُرة تخشَّن قلبها بسببه، حتى تحولت إلى صنم بلا مشاعر، سأحكي لك.

الفصل التاسع

«فقدان الرحمة يجعلك غريبًا حتى على نفسك،
وفقدان الثقة يحطّم كل جسور العودة»

نشأت حرة بالشارع دون أب أو أم، وُلدت بقبيلة صغيرة بقرية مجهولة نتيجة زيجة غير شرعية، وأهالٍ ألقوا بطفلتهم لتتربى بين أحضان الطبيعة، اعتنت بها في الصِّغر سيدة عجوز حتى صارت بالخامسة، وتوفت هذه السيدة وكان اسمها حينذاك «الطفلة»، لم تُسمِّها العجوز وفضَّلت أن تناديها طفلة حتى تكبر وتختار هي اسمها بنفسها، تشرَّدت الطفلة بالطرقات تبحث عن لقمة العيش كيلا تموت جوعًا، وبين البحث عن بقايا طعام ومنح وعطف من الجيران مرَّت الأيام على الطفلة حتى بلغت الخامسة عشر، بلغت ولم تعُد تمتلك جسد طفلة، بل امرأة مكتملة الأنوثة رغم صغر سنها، صبية فاتنة للرجال على الرغم من بعثرة شعرها والطين العالق بين أظافرها وملبسها الذي تعود ملكيته للمرأة العجوز، إلا أن بدنها الفائر وقوامها الممشوق أضفى لها جمالًا خاصًّا لم تملكه أيٌّ من فتيات القرية، تعلَّمت حُرة بعد اختلاطها بالناس باحثةً عن الطعام أنها تمتلك وسيلة يمكنها من خلالها الوصول لكل ما تريد، وهي ببساطة جسدها، أول مرة تدرك فيها تلك الوسيلة كانت عن طريق رجل في عقده الرابع عرض عليها الحصول على قطعة دجاج ورغيف خبز مقابل أن يُقبِّلها، في هذه اللحظة كانت تتضوَّر جوعًا ولم يدخل جوفها شيء منذ ليلتَين، وافقت، وبالفعل أعطاها الزاد، لكنه لم ينفِّذ اتفاقه بكل الحذافير، وأخلَّ بالاتفاق حينما مرر أنامله بخبث على جسدها رغمًا عنها، ولم تستطع حُرة الدفاع عن نفسها، لم تتذكر تلك الليلة إلا مذاق شاربه المبلل بلعابه ورائحة شنيعة تطفح من أنفاسه كادت أن

تُفرغ ما في معدتها إثرها، لكنها لم تكُن على استعداد للتفريط في وجبة كتلك، وتضحي بها لتأكلها القطط والكلاب بهذه البساطة بينما تتضور هي جوعًا!

كانت أول مرة تتعلم فيها حُرة حنكة بلوغ ما تريد، وأنها تمتلك هبة أنثوية وعطية كبيرة ستُسهم في تغيير حياة التشرُّد والجوع التي تعيشُها. قررت أن تستغل جمالها بأكثر الطُّرق بشاعة، دنَّست براءتها وشوَّهت جوهر الأنوثة الحقيقي بجهلها عن كيفية حمايته والحفاظ عليه وعلى نفسها.. كل ما كانت تسعى لأجله هو الطعام فحسب، ولا يهم الطريقة أو الثمن، حتى وإن كان باهظًا..

تغيَّر مسار حياتها وانحرف تمامًا، وجدت أن تلك الوسيلة هي الأيسر دون مجهود أو إذلال من أجل كسرة خبز، بدأت تسير وسط الجموع وتعرض على الرجال في الخفاء طلبها بميوعة، مَن يقبل تستفيد منه أقصى استفادة، ومن يرفض تبحث عن غيره فورًا، استمر الحال لمدة عام، وهي لا تزال عذراء تتصرف بسذاجة، لا تفقه ما تفعل، ولكنها كانت تخشى أن تفقد أعز ما تمتلك، ما يميِّزها برقة ويتهامسن الفتيات به سرًّا، لأنها دونه ستصبح مجرد خرقة بالية طالها الدنس، أو غانية ترقص بالمجان.

حينما أتمَّت عامها السادس عشر، عثر عليها رجل رحالة ينطلق في القرى والبلاد باحثًا عن أجمل الفتيات وأبهاهن، لم يكترث لرائحتها أو مظهرها غير المهندم؛ لأنها بدت حسناء رغم فقرها. تصرَّفت معه حُرة بحماقة وعاملته مثلما تعامل أبناء قريتها،

فعرضت عليه لكنه يمتلك الدهاء والحكمة ففهم ما ترمي إليه، طاوعها، ولكنه فرض شرطًا، أن تأتي معه وهناك ستحصل على ضعف حصتها من الطعام، وأيضًا مسكن آمن ومياه نظيفة، ومكان لتستحم فيه وتتخلص من الوسخ، أغراها ما قاله وبدى صادقًا أو هكذا ظنَّت.

ترجَّلت معه على عربة فارهة بأربع عجلات مميزة بمقعد جلد مُبطَّن بإسفنج قطني مريح ويجرها اثنان من الخيول العربية الأصيلة، سألها عن اسمها فتهرَّبت من السؤال وقعدت تُفكِّر طوال الطريق في اسم لنفسها، كانت تلك المرة الأولى التي تطأ فيها قدماها أراضي غسق.

بلغت مقصدها وحصلت على حصة كبيرة من الطعام، لحوم وخضراوات وفواكه، وكل ما تشتهي الأنفس، عندما انتهت طلبت قارورة مياه، سألته ببراءة:

– لم تخبرني من هو الرجل الذي سوف أُقبِّله؟.

لم يُجِبها، وبعد قرابة الساعة حضر رجل إلى الخلوة، عريض البنية ببشرة قمحية، عيناه ثاقبتان وفاتنتان، له رهبة تجعل وجوده شيئًا موتِّرًا للأعصاب، صوته غليظ بنبرة رجولية جلية، انتفض قلبها وأحسَّت بألم مفاجئ يضرب معدتها بفعل ارتباكها، اقترب منها وتحسَّس خصلات شعرها بلُطف، أصابع يدَيه عريضة مكتنزة باللحم، ابتلعت ريقها ومظهره وحده قد أصابها بالفزع، أرادت أن تفر هاربة وارتجف جسدها من لمساته.

لاحظ الرجل خوفها فتوقَّف، ربت على كتفَيها بحنو وهمس بصوت أجش يستحيل أن يخرج من فيهِ رجلٍ مثله:

- لا تخافي، أنا لن أؤذيكِ، أو حتى أقوم بشيء عكس إرادتك.

هدأت المسكينة وافترشت الأرض حينما استدار الرجل وأمر حسن -الرحالة- بحُسن معاملتها، وأن تحضر الفتيات مساعدتها، وغمر جسدها بالماء وتعطيرها بأطيب الروائح ثم غادر دون أن يلتفت، وكانت هذه أول مرة تحصل فيها تلك الفتاة على طعام وفير بالمجان.

عاشت حُرة أجمل ثلاث ليالٍ بحياتها، وفَّر لها الرجل الزاد والمياه ونومة مريحة ونظيفة، علمت فيما بعد أنه الملك الحاكم لهذه المملكة، وأنها هنا بصفتها جارية عنده، لم يتَّضح لها مفهوم الجارية، ظنت أن وجودها مقترن بعمل شاق ستقوم به، أو ربما جارية تعني أنها يجب أن تظل حبيسة هذا القصر، ربما شفقة! ليكُن ما يكن إنها لم تكترث أبدًا وستبذل قصارى جهدها كيلا تعود لحياة التشرُّد بكل ما فيها من ذُل وجوع ووسَخ.

تلك الليلة وبعد بزوغ الفجر طلبها الملك بجناحه.

اختلى بها وتأمَّل ثيابها الأنيقة، وجمالها الذي توهَّج بالاهتمام، استحال لامرأة مكتملة الأنوثة ونُزعت عنها عباءة الطفلة، والتي لم تلائم منحنياتها وجسدها البض أبدًا! قلبها يخفق بعُنف، فطِن الملك مدى شعورها بالخوف، وقرر ألا يروِّعها. عادةً لا يفعل الملك ذلك مع فتياته، إنه يُفضِّل قضاء ليلة

تُمتعـه وتُرضي رغباته دون الحاجة لبـذل مجهود ليظفر بما يريد، لقد عاشـر كثيرات وهو يجهل أسماءَهُنَّ، وكل معرفته بهنَّ في أي بقعة من الأرض قد وُلِدن، يُقدِّر النسـاء، ولا يطؤهُنَّ كالبهيمة، بل يرفق بهِنَّ ويُتقن فنَّهُ الخاص الذي يجعل النسوة يتمنَّين قضاء ليلة أخرى بين ذراعَيه، فهو يمتلك لمسة سحرية يطبعها على جلد كل امرأة ولجت جناحه، كان دمث الخلق، وليِّن القلب؛ لذا لم يُرِد أن يؤذيها نفسـيًّا أو جسديًّا. كل ما سعى لتحقيقه في تلك الأمسية أن تطمئن بجـواره ولا تهابه، قضى الليل يتسـاير معها ويذيب جليدًا مـن الغُربة بينهما، كان لا بُدَّ أن يزول. سـألها عن ماضيها فحكت له كل شـيء بعد أن أحسَّـت بالأمان والسـلام، وأنه لا يشـكِّل أي تهديد، بل على العكس هو مُسالم وحنون، ولم تكذب في حرف، وضـجَّ عقلها من الاحتمالات التي يطرحهـا بين الفينة والأخرى، فالتمست أن يجيبها أي مصير تنتظر؟

تحسَّـس وجنتيها بأنامله الغليظة، وبدى على محياه الاسـتياء مما رَوت، همس وقد أخشوشن صوته:

– تسـتخدمين أنوثتك لتسدِّين جوفك! بعدما قصصتِ سبب وجودك هنا أنت جاريتي فحسب.

أقـام مـن مخدعه واسـتكان بالطـرف الآخر مـن الغرفة وهو يتحاشى النظر إليها، شـعر بالغيرة تسري بشرايينه أسرع من البرق حين يضرب السماء، أهانت عليها نفسها أن تعرضها على المشاع كأنما تبيع سلعة! من أجل سد جوفها بخست من قيمة نفسها، لكنه

كان في حيرة من أمره لأنه من المنطقي بصفتها جارية أن يكون لها ماضٍ مع رجال آخرين، الملك أحبَّ فكرة كونها عذراء وهو أول من يمسسها، ربما طمع في أن يصبح أول مَن يُقبِّلها ويداعبها هو فقط عمَّن سواه، استدار إليها وعانقها بحرقة فاختلجت بين يدَيه من فرط قوة مشاعره صوبها، والتي لم ترد عليها من قبل، قبَّل رأسها وضمها إلى صدره وغفت حتى مطلع الصبح بقربه، ولأول مرة يسمح الملك لجارية أن تبيت بجناحه الخاص.

مرَّت ثلاث ليالٍ كاملة بنفس الحال، وهي تنام جواره وتنعم بأُنسه. اطمأنَّت واستكانت معه ونجح في إعطائها الأمان وعوَّضها عن حرمانها منه، وفي الليلة الرابعة لانت واستسلمت للمساته ليظفر بها أخيرًا، ويصبح أول من يدُكُّ حصنها المصون، شعر بسعادة عارمة تجتاحه، وأحسَّ ناحيتها بمسؤولية، دللها واعتبرها فتاته المفضلة، وهنأت هي بأيام رغدة وحياة لم تحلم بها قَط، وبعد مرور ما يقرب من الشهر، زار القصر شخص لم تتوقع حُرة مجيئه، وهي زوجة الملك التي عادت من سفرها للتو.

ذُهلت حُرة من أنه متزوج، كيف وهو لم يذكرها ولو مرة في ليالي الأُنس التي جمعتهم!

وكيف يحطِّم قلبها بهذه البساطة بعدما أحسَّت بامتلاكها الكامل له، غضبت وامتنعت عن رؤيته، لفترة اختلقت الأعذار، تدلَّلت وتفهَّم الملك الغضب، وطاوعها هو على تصرفاتها الطفولية، غيرتها جعلت قلبه يقفز بين ضلوعه، ثم باغتتهما مفاجأة

لـم يتوقعها الطرفان وهو طفل ينمو بأحشـاء حُرة، أذاعت له الخبر بفرحـة يغلبهـا الحزن، كانت قد فطنـت أن فتور العلاقـة بينه وبين زوجته هو تأخُّرها في الإنجاب، وكم تمنى ولي عهد يُكمل مسيرته من بعده، أقنعته في جلسة واحدة أن يتزوجها ويطلق زوجته.

وبالفعل طلقها الملك وطردها خارج القصر، أو هكذا ظنَّت حُرة.

عشـرة أيـام وعتقهـا الملك لتصبـح حُرة، وذلك كان الاسـم الذي اختارته لنفسـها لتصبح أمام الجموع زوجة الملك، تعلَّمت حُـرة أسـاليب ماكرة تحصل مـن خلالها على ما تريد ببسـاطة لذا امتلكت الشجاعة الكافية لتشترط على الملك أنها -إلى أن يحين قدره وينتهي عمره- ستكون المرأة الوحيدة في حياته.

أنجبـت حُرة ومرَّت سـنة ثم تغير حال الملـك، وبات يقضي فتـرات طويلة بعيدًا عنهـا، وفي بعض الأحيان تسـتيقظ من نومها فلا تجده جوارها، وساوسـها اسـتحالت لحقيقة حينما اكتشـفت خيانتـه لها، مـع زوجته الأولى! والتي اكتشـفت فيما بعـد أنها لم تكُن الليلة الأولى التي يحضر بها تلك المرأة إلى القصر.

سمعته وهو يقول:

- لم أستطع عشق امرأة سواكِ وقلبي لم تفلح امرأة غيرك في امتلاكه.

اختنقت أنفاسـها وأحسَّـت أن روحهـا تحترق وقلبهـا يتفتَّت مـن الألم، تجمَّد الدمع في عينيها لعنته مئات المرات بصقت على وجهه من بُعد وهي تبصره مُضطجعًا على نهدها العاري ويغطُّ في

نومٍ عميق، توعَّدته وأقسمت أن تقهر قلب زوجته، وأن تذيقها من العذاب كؤوسًا، أما هو فلن تجعله يبصر ضوء الشمس مرة أخرى.

استدرجته وقضت معه ليلة لا تُنسى، سلبت بها عقله وأحاطت حواسه ببراعتها في الاستحواذ على قلب وذهن الملك، غطس في نومه وتعالى صوت شخيره والذي يُفصح عن درجة عدم إحساسه بما يدور حوله، أمسكت حُرة بسكين واقتربت من الملك، بكت بحرقة؛ إنها تعشقه بجنون لكنه لم يبادلها الحب أبدًا، ارتعشت يدها ثم تذكرت الليالي التي ترك فراشه ليعاشر تلك الملعونة، حُرة لم تكُن سوى رحم سخَّره لينجب طفلًا من صلبه، غرست السكين بقلبه، فتح عينَيه في ذُعر، رآها تعتليه وتضغط النصل بجسده بقوة أكبر، أبصر دماءه وهي تسيل وأحسَّ قلبه يتمزَّق. ابتسمت بتشفٍّ ثم أردفت:

– قتلتني بخيانتك، واليوم جاء دورك لينتهي عرشك على يد المرأة التي جرحتها، التي أحبتك بصدق وذبحتها بضلالك.

مات الملك وعاشت حُرة، وقرَّرت أن تتخلَّص من الاثنين معًا بضربة واحدة. كانت تعلم أن زوجته تبيت الليلة في القصر؛ فوضعت السكين المُلطَّخة بدماء الملك بغرفتها وصرخت وهي تستدعي الحراس:

– كيف دخلت هذه المرأة قصري؟ لقد قتلت الملك.

كأنما الظروف قد تهيَّأت لتساعدها في تنفيذ خطتها الداهية وأفكارها الشيطانية.

استطاعت بسهولة أن تعتلي العرش؛ لأنها أم ولي العهد، وذلك ما ذُكر في القوانين، حكمت المملكة امرأة بلا قلب لأنها قد اقتلعته من صدرها بموت الملك، وتدهورت أحوال البلاد وباتت تسير من سيء إلى أسوأ إلى أن فرضت سيطرتها واستأصلت قوانين المملكة ووضعت أخرى أكثر صرامة لتلائم ما تمر به البلاد من خراب لا يتوقف، تشوَّهت براءة حُرة وبدلها غدر الحب والحُكم، فأصبحت ما هي عليه واستسلم شعبها قبل حتى أن يحاول تغييرها، الخوف يمكن أن يقتل صاحبه، فماذا بشعب كامل قرر أن يدفن رأسه في الرمال بدلًا من المواجهة؟ ما نفعتهم الرمال يومًا وخنقهم الموت ليُفقدهم متعة العيش والإحساس بالحياة.

***

تأخَّرت فترة الطمث عند بشرى لمدة تُقارب الثلاثة أسابيع، مع كل يوم تضطرب ويتغذى القلق عليها ببطء، تُكذِّب شكوكها وأفكارها التي لا توحي لها إلا بالحمل، أسوأ كوابيسها تتحقق وتُثبتها الأيام، إنها هالكة، لا مفر من مواجهة الحقيقة، وكان لا بُدَّ لها من الحيطة والحذر من الوقوع في شباك الموت الصائدة، لكنها لم تحسب حساب تلك اللحظة جيدًا وعليها الآن سرعة التصرف في الأمر، أو الاستسلام لمصير مشؤوم..

بشرى جالسة وحدها في زاوية الغرفة، تحمل بين يدَيها زهرة الشوكران القاتلة، تلك الزهرة التي اكتشفت أن لها القدرة على

إنهـاء معاناتها في صمـت، دون أن يتدخل أحد. قلبها مُثقل بالألم والخوف، انتابها شـعور متناقض بين حقها الطبيعي في الاحتفاظ بالجنيـن، وبيـن رغبتها في التخلُّص من هـذا الحمل الذي لم تعُد قادرة على تحمُّله، ورعبها من العواقب التي قد تحدث.

رفعـت الزهـرة إلـى عينيهـا، تتأمـل بتفاصيلها الغريبـة، تلك الأوراق الرقيقـة التي تخفي وراء جمالها سـمًّا قاتلًا، قاتلًا للبشـر وللأحـلام، لطالمـا كانت تظن أن الشـوكران مجـرد نبات، والآن صـار مصيـرًا بعدمـا ذكـر جـواد خطـورة هـذا النبـات، وأنـه من المحتمـل أن يسـبب إجهاضًا في بعض الحـالات وربما الموت، لكنها لم تهتم سـوى بالتخلص من طفل ينمو بأحشـائها حتى وإن كان الاحتمالان يحملان معهما رائحة الموت، ربما سـينقذها من هـذا الحمل الثقيل الذي يكبر في داخلهـا، مثل كابوس لا يمكنها الهروب منه.

وضعت بيدها المرتعشـة بضع أوراق من الزهرة بين شفتَيها، طعمها مرٌّ لاذع، أخذت نفسًـا عميقًا، وكأنها تتجرَّع قرارًا لا عودة عنه، وابتلعت الأوراق.

كانـت الدقائق تمرُّ كأنها سـاعات، قلبها يخفق بعُنف، وبدأت تشعر بالغثيان يتسلل إليها ثم بدأ الألم أسفل بطنها، احتضنت بطنها بكلتـا يدَيها، كانت تشـعر كما لو أن جسـدها يتمزَّق مـن الداخل، أغمضت عينَيها بشدة، وجرت الدموع على وجنتَيها، كانت تحاول أن تخنق شهقاتها، لكنها لم تستطع إخفاء صوت أنينها.

أخـذت بشـرى تتلـوى علـى الأرض، فـي صمـت مشـوب باليـأس، تحاول أن تصمت، أن تواجـه مصيرها وحدها. في تلك اللحظة كانت تدرك جيدًا ما هي على وشك أن تفقده.

حالفهـا الحـظ ونجت بشـرى من وعكتهـا الصحيـة، تقيَّأت الكثير من السـوائل، لكنها لم تفقد أي دماء تُشير لفقدانها الجنين، كانـت حالتها متدهورة وتشـعر بـدوار حاد وصـداع كاد أن يفتك برأسها، لكنها تمالكت نفسها، وفي الليل قررت الذهاب إلى شامة صديقتها التي لا يرتاح قلبها إلا بعدما تبوح إليها بكل ما يسـاورها من قلق، وكان فارس وجواد ونشـال هنـاك والذين راودهم القلق لتأخُّـر بشـرى عـن تواجدها معهم، حيـث كان الجميع قـد اتفقوا سـلفًا علـى أن يقتنصوا بضع لحظات سـعيدة تجمـع بينهم، وبعد فترة وجيزة وصلت بشرى.

تملَّك القنوط من بشرى وهي تبوح لشامة بشكوكها، أحسَّت الأخيـرة بالقهر وعليهـا أن تختار بين صديقة عمرهـا وبين الطفل الذي سوف يفضح كل شيء في غضون أشهر قليلة، وعلى جانب آخر باغتها وجَل يبعث إشـارات من الفزع خشـية أن تقع في نفس المصيبة عن قريب وتلحق ببشـرى، ربتت على ظهرها ومسـحت شـعرها بأناملها تحـاول تهدئتها رغم أنها تخفق في تنفيذ الشـيء ذاتـه لنفسـها، دخلت في دائرة من اللوم والنـدم، كم مقتت الحب وكابدت طوال سـنواتها التي تعدَّت العشرين، كيلا تكون خاتمتها تعيسـة بائسة تحتضن القبر، بينما أنفاسـها ما زالت تتمتع بالحياة، لكـن جوادًا أفسـد جميـع مخططاتها وركـع قلبها أمامه مسـلوب

الإرادة، يتبعه كظله ويهـواه دون أخذ الحذر أو التماس العواقب، كـم تمنَّـت شـامة أن تصبح شـخصية في عالـمٍ مـوازٍ، تتحول فيه الأمنيـات مـن كونهـا فكـرة إلـى حقيقـة ملموسـة كشـخصيات الحكايات الرحالة والسندباد وسحر الروايات، في خيالها عاشت قريـرة العيـن هانئة، هادئـة، تحلِّق بخفـة الطير في سـماء الحرية، الحريـة؟ شـيء صعـب المنـال فـي أرض تبخس بأبسـط حقوق أهلها، تُقيِّد كل شهيق وزفير يخرج من الإنسان، تُلجمه بأغلال لا تنفكُّ إلا بالموت، فلسفة مفادها أن الموت حرًّا أسمى من العيش بين قضبان زنزانة تحجب عن سجينها حُرية إطلاق سراح أنفاسه.

مسـحت شـامة عينَيها بسـرعة، ونظرت إلى بشـرى بتحدٍّ ثم زفرت بحنق:

– لربما تكون مملكتنا فاسـدة، لكن نسـلها طاهر، على الأقل نحـن كذلـك، وإن كان مقدرًا لنـا الموت لنموت بشـرف، وكفانا خَور وجُبن. يجب أن يسـمع العالم صوتنـا الذي انخرس لعقود، لا بُدَّ لهذا العذاب أن ينتهي.

تبسَّمت بشرى ابتسامة باهتة بلا أمل يُذكر، فقط مرارة تحاول محوهـا ببسـمة تؤهلها لاسـتقبال ما هـو زاحف إليهـا من خراب منتظر، يا ليت الأيام تُسقينا حلا بقدر ما نرتوي منها بشجا مرير.

الزاد يختفي تدريجيًّا من البلاد، والمحاصيل تذبل وتتسـاقط كما أوراق الشـجر فـي الخريف، جافـة وبلا روح، الماء ينحسـر والناس في غفلة. ما يشـغلهم هو قوت اليـوم، لم يحملوا أبدًا همَّ

الغد أو يخافوه، لذا مسألة انعدام كل شيء ستكون بمثابة كارثة حلَّت على الجميع. الذين لم يحسبوا يومًا أن ينتهي بهم المطاف من تدبير حصة اليوم من الغذاء إلى فنائها تمامًا.

صُعق فارس بالصدمة التي تهدد حياتهم وحياة الطفل، حادثة كتلك كانت شيئًا متوقعًا، وهما يعلمان أنه من المحتمل أن تحمل أحشاء بشرى طفلًا، لكن في بعض الأحيان العقل يرفض باستماتة احتمالية أن تصبح أكبر مخاوفه حقيقة.

احتضنها وتنهَّد، ذرف الدمع وبكت معه هي الأخرى، لقد تحكَّمت حُرة في إحساس المرء بالسعادة، وحكمت بالتعاسة على كل مَن يقرِّر أن يحيا دون رضا منها، تحدِّد المصائر وتتدخل في الأقدار، بل وتقطع الأرزاق، مَن هي لتُرزق وتهب في وجود الخالق؟ وكيف يرزقنا ونحن نقتل أطفالنا بدم بارد لنوفِّر لأطفال آخرين حياة رغدة، روح مقابل أخرى والفارق أنها مطابقة للقواعد والمواصفات، أكذوبة البلاد فلتُقهر الممالك ومَن يحكمها فليذهب الجميع للجحيم ليلاقي جرائم وقتلة من صُنع يدَيه، وحسب أنه يُحسن التصرُّف، فما له إلا جهنم وبئس المصير.

فارس المسكين أحسَّ بالكسرة؛ لأنه لم يعُد يملك طريقة يحمي بها حبيبته من شرور مهالك محتملة، أنقص ذلك من إحساسه برجولته، وقتل الأمل بداخله في آنٍّ واحد، أزاح عن رأسه فكرة أن يفقدها أو أن تصبح بين عشية وضحاها هدية تُقدَّم للجنود لتعبث بجسدها متى ما شاءوا، جنَّ جنونه وكاد أن يفقد

صوابه كلما فرض خياله المشهد، وعرضه مرارًا وتكرارًا حتى سئمه، شغلَت بشرى باله وتقلَّصت معدته ألمًا لأجلها، ونسيَ نفسه ولم يكترث أنه ينال من العذاب كأس العِلَّة، وتفوح منه رائحة الهزيمة والخيبة التي ستلحق به حتى قبره.

التقى جواد وشامة وكاهلهما مُثقل بالسقم ذاته، فنكبة فارس وبشرى يمكن أن تطيلهم بأي لحظة، فرض الحزن نفسه وخيَّم على قلوبهم، بكت بين ذراعَيه تناجي ربها لتجد مخرجًا، تضرَّعت واستغفرت عن ذنبها وتأمَّلت النجوم، تبحث عن إجابة أو إشارة رهن ضوء ساطع أو حتى خافت، أن يناديها صوت من السماء أو أن يتبدَّل النهار بالليل، لينتهي عذابها بأي طريقة؛ فهي على استعداد لخوض غمار أي سبيل يكون في نهايته راحة، وإن كان مُلبَّدًا بالغيوم أو تضيؤه النجوم. ستمشي بسلام كما الطفلة وتبتسم للموت بأكاليل نصر يشتهي مثلها البدر، فللحق النصر مهما جعجع الباطل.

قبَّل رأسها وضمَّها إلى صدره بقوة، رغب بعدها أن تتلاشى الموجودات حتى يتسنَّى له أن يذيبها بعشقه، وتذوب معه وبين يدَيه تلك المرأة التي هوت على قلبه بخفَّة رفيف فراشة وهتفت بها حواسه، إنها كل ما حلم أن يملُك يومًا، زفر بشرود والدمع يتساقط من مقلتَيه:

- سأحكي لكِ حكاية يجب أن تسمعيها يا شامة.

«جواد»

مـرَّ وقـت طويل منـذ آخر مرة قـررت فيها تدوين مشـاعري، الحيـاة في غسـق عصيبـة وممتلئة بالأحـداث على الـدوام، دائرة تُعيد نفسـها مرارًا وتكرارًا، تناسـيت معها كيف كان شـكل حياتي السـابقة! تراودنـي أفـكار غريبـة بيـن الفينـة والأخـرى، في حال نجحـت فـي العودة إلـى وطنـي، لا أدري إن كنت على اسـتعداد لمواجهـة التقـدُّم والتكنولوجيا من جديد أم لا، فـي بداية رحلتي كنـت أفتقدها وأتذمَّر مـن غيابهـا، والبدائية التي أعيـش فيها، أما الآن فبعدمـا أعـود ربما سأشـعر أنني غريب ينمتي إلـى عالمٍ آخر لا يقـل غرابة عـن عالمه، ربما نحن نألف الحيـاة التي نعتاد عليها بكل ما فيها، ومن الممكن أن تكون العدوى قد أصابتني وأحببت التغيير الذي طرأ على حياتي بقدومي إلى هنا، الأهم من ذلك كله هـو وجود شـامة بجانبـي، آهٍ من لوعـة الحب؛ تقتلنـي تلك الفتاة ببـطء أعشـقه! أنا مُـدرك أننا نسـير معًا بأقـدام عاريـة على أرض مُلغمة بشظايا زجاجية تجرحنا لكننا نستمر ونخطو، نذرف الدماء ونخطو ونرفض النظر إلى الأسفل، لربما تندمل الجروح وتصبح الأرض من تحتنا بنعومة الحرير وهشاشة القطن.

منـذ سـنوات، لا أذكـر عددها بالضبـط، فمنذ جئـت إلى هنا فقدت شـيئًا مـن ذكرياتي ودقـة تواريخي التي عهدتهـا، لكنني ما زلـت أذكـر مقتطفات تُعـرض أمامي مثل شـريط فيديـو قديم دقَّ

قلبي منذ وُلِدت مرتين، المرة الأولى كانت لفتاة رقيقة ربطتني بها الدراسة وتوطَّدت علاقتنا حتى وقعت في حبها، كانت جميلة بعيون واسعة وشعر أسود فاحم مموَّج وبشرة سمراء تفتن العاصي والطائع، تطورت الأمور بيننا بسرعة وأقمنا حفل خطبة بعد ثلاثة أشهر فقط من ارتباطنا، في بعض الأحيان شعرت أنني مهووس بها، لا أطيق أن تغيب عني أو لا تهاتفني، صباحاتي لا يلوِّنها إلا إشعار يضيء هاتفي برسالة منها فيدفعني قلبي دفعًا حتى أقفز من فراشي لأراها أو أراسلها، بادلتني الحب وأردتُ إيقاف الزمن ومنع عقارب الساعة من الدوران لنسطع نحن كالنجوم، وربما نخلِّد أسماءنا في سماء العاشقين، بعد خطبتنا بثلاثة أشهر أخرى قد أتممنا فيها تحضيرات الزفاف، جاء اليوم المنشود وهو عرسنا الأسطوري وليلة العمر، كما يُطلق عليها معظم الناطقين بلغتنا العربية، رباط مُقدَّس يجمع بين طرفَين متحابين، وحصن يحاوطهما من ضربات الفراق الغادرة.

بدت حبيبتي ملاكًا أبيض في هيئة عروس تتزيَّن بفستانها الحريري الناعم ورقتها المفرطة. جمال لا يقاومه بشر!

كنا قد اخترنا قلعة شاهقة الارتفاع لنقيم فيها حفل الزفاف، وعندما حان موعد التقاط الصور التي تسبق الحفل، يطلقون عليها (سيشن الفرح)، كان لدى المصور رؤية أن تصبح خلفيتنا السحاب، لذا طلب منَّا الصعود على حافة رفيعة يخلفها سور قصير نقف أمامه، وما هي إلا ثوانٍ وسنهبط، ثانية لنحتفظ بصورة

تتميـز عن أي ثنائي آخر، بالفعل اعتلـت حبيبتي الحافة قبلي أولًا وطلبـت مـن المصـور أن يصورهـا لتحتفـظ بصورتهـا كعروس بغرفتنا، رفعت إصبعَي السـبابة والوسـطى معًا تعبيـرًا عن النصر، ابتسمت بحنان ولمعت عيناها بُحب غمر فؤادي، حلَّقت بذراعَيها تحتضن الهواء، بادلتني النظرات وصاحت بجملة شهيرة للعرَّاب أحمد خالد توفيق؛ فكم كانت تعشقه:

- أُحبُّك حتى تحترق النجوم وتفنى العوالم.

فـي لمـح البصـر اختـلَّ توازنهـا، وانهـار جسـدها للخلـف لأشـاهده بأُمِّ عينَي يترنح في الهواء ثم يهبط أرضًا، لا أرى ملامح أو أسـمع إلا صراخ أناس يخلو من صوتها، راقدة بالأسـفل دون حـراك، بـدت مـن الأعلى بفسـتان الزفـاف كنقطة صغيـرة بيضاء حاوطتهـا دائرة أكبر من الدماء، تعرَّق جسـدي كلـه رغم الأجواء الشـتوية البـاردة، فركـت عينَيَّ لعلـي أحلم، أو ربمـا كانت مزحة تعود بعدها للحياة، عسـى خيالي يُجسِّـد لي مخاوفي، ولا بُدَّ من أن أسـتفيق لكن دون جدوى، لم يحدث شـيء، إنني أعيش واقعًا لا مهرب منه.

اقتلعـت قلبي مـن جذوره وانطفأت شـمس روحـي، لم يعُد هنـاك قيمـة للعيـش، بموتها ماتت كل الأشـياء فـي عينَيَّ وخفت بريقي، تحمَّلت الذنب كله وحدي، لقد فشلت في حمايتها. كيف أوافقها على تعرُّضها لخطر جسيم، ووقفت أشاهدها بغباء أُحسد عليـه! بغضت نفسـي وتقززت منهـا كلما رأيت انعـكاس وجهي

فـي المـرآة، كنت أطالـع قاتلًا، وأحيانًـا أخرى نـذلًا أخرق عديم المسؤولية، تسبب في موت حبيبته!

انعزلـت عـن الكون وانقطعـت فترة عن العمـل، كنت مجرد صنـم بـلا روح، وكائـن عديـم الفائـدة، تقبَّلـت حقيقتـي، لكـن والـدي أصرَّ على خضوعـي للعلاج النفسـي لأتخلَّص من عقدة الذنـب، أذكر أنني انهرت بالبكاء داخل العيادة وتنهنهت كالصغار بحرقـة، لن أنكر مسـاهمة ذلك في التعافي بشـكل أسـرع، لكنني ورغـم تجاوزي لتلـك الأزمة، غير أنها قد تركـت بصمة بصدري وذكرياتي، نقطة سـوداء سـتبقى معي ما دُمت أتنفس، ظننت أنني لن أعشـق بعدها أبدًا، وأن قلبي لا يصلح للحب أو أنه تميمة حظ خادعة لا تجلب معها إلا ما تيسَّر من المصائب.

تبدَّلت الدنيا بأسـرها في عيني حينما قابلت شـامة، وعشـتُ حالـة من نكران مشـاعري صوبها، وكنت ألوم نفسـي في كل مرة أغرق بها، فأحاول الطفو لكنها جذبتني واستسـلمتُ لها فوجدت أنني بصحبتها نجوت، ومعها أتنفس واندملت جراحي معها.

شـامة بالنسـبة لي بمثابة نسـمة هواء تُداعب الروح لتنتشـلها من حُزن ينهشـها ببطء، أو ضوء ينير المسـلك ليشعَّ توهجًا يمحو ظلامًـا دامسًـا، أحببتها وانتهى أمـري، وبات فراقها يمثِّل سـحابة سـوداء تعبُـر أحلامي كل يـوم لتذكِّرني وتجبرنـي أن أحافظ على حبـي هذه المـرة فأتعهَّد لنفسـي أنني لـن أُعيد الكَرة، سأتمسَّـك بهـا كمن يقبض على جمـرة من نار، ولن أكتـرث إن احترقت. لا

أبالي إن كان الموت حليفي، يكفي أنني لن أضطر للعيش مع أنين روحي من جديد.

حكيت لشامة جانبي المظلم الذي طالما حرصتُ على إخفائه عن الجميع، كنت قد أغلقت قلبي وتعهَّدت بعدم النبش في غبار ماضٍ وددتُ التخلص من آثاره التي دمرتني، بدا على محياها التأثُّر، وغمرتني بمودة ومواساة، عيناها تصرخ بالغيرة، لكنها أيضًا قد حزنت كثيرًا وأشفقت على حبيبتي السابقة، ثم ترحَّمت عليها وضمَّتني بقوة أكبر لصدرها، لسان حالها يخبرني دون الحاجة للإفصاح أنني مِلك لها وحدها وقلبي أسير بين كفَّيها الحنونتَين، رفعت رأسي كي أنظر إلى عينَيها وثبَّتُّ نظري، صرخت بداخلي آه مدوية، كم أحبها وددتُ لو امتلكت قلبَين لأضعهما بصدري الذي مَرَّت منه بخفَّة كالطيف؛ فوالله لعشقتُها بالاثنين. فواحد لم يعُد كافيًا. الحب في بلدها تطرُّف وفي قانوني عبادة، أرمق شفاهها التي تعصيني كلما اشتعل بركان بين ضلوعي، تقاومني بكل ما أُوتيت من حيل، همست وأنا أحدِّق بوجهها وعينَيها اللامعتين:

– لنُعلن زواجنا يا شامة أمام الجميع! ألا تعلمين كم يقتلني الحنين؟ يذبحني الشوق وأرتعب من الخسارة بُليت بحبُك شر ابتلاء، ولا أريد من الله أن يرفعه عني، تبًّا للملكة ولقواعدها لنكُن أول من يتقدَّم بطلب للزواج بعد ما صار مع أهل شامة، لن ننتظر عطف الملكة لنصبح معًا، وافقيني وسأُظلِّل عليكِ بجفوني

وأحميكِ بعمري.

ابتسـمت لي دون خوف وأمسكت بيدي، لا أحتاج لكلمات، نظراتهـا كانت تكفيني، تثق فـيَّ وتحتمي بي، ازدادت نوبة جنوني وأقسمت أنها لي وسأحافظ عليها حتى وإن كلَّفني الثمن حياتي.

الفصل العاشر

«الندم هو أخطر الأسلحة التي يمكن للمرء أن يُعاقب بها نفسه»

طلب جواد إذنًا من الملكة بالسماح له وشامة بمقابلة عاجلة، فوافقت معتقدةً أن الأمر يخص أحوال البلاد، ردهات القصر كانت مُقبضة للغاية لشامة، أحسَّت أن الطرقات تضيق عليها لتخنقها، سارت بجوار جواد وهي تحمل قلبها بين يدَيها، تعتصره حتى يتوقف عن التقلقل من موضعه، فيعصيها ويتمرد ويستطيل الرواق أكثر، أنفاسها تعلو وتهبط في توتر، يومئ جواد برأسه إيجابًا ليطمئنها، تستكين لكن دون أن يزول قلقها، خطواتها ثقيلة تخشى أن تدخل جناح حُرة فلا تعطيها فرصة للتردد أو الرجوع، يفتح الحرس الباب ويصبحان في الداخل.

جواد كان قد رتَّب كلماته سلفًا ليستهل بها الحديث ويختصر الطريق، لكنه نسيَ كل ما رتبه، لا يخشى الموت أو السجن، بل يخاف أن يصيب شامة أي مكروه، فضَّل المواجهة بدلًا من الهروب كالجبناء، استغرق صمته بضع دقائق، حدجت فيهم حُرة شامة بنظرة ذات مغزى، ثم زفرت مخاطبةً جواد:

- لماذا أنتم هنا معًا؟.

أجاب جواد بثقة ورباطة جأش:

- أتقدَّم لجلالتك بطلب للزواج من شامة، وأرجو ألا تردِّيني خائبًا.

تعجَّبت حُرة من جرأة جواد والثبات الذي يتكلم به، جاء بقدمَيه إلى قصرها ويصارحها برغبته ببسالة، داهم القوانين بطريقته في الإفصاح، أدهشها، بل وأُعجبت بمدى تساهله في

طلبه، كما لو كان يخبرها أنه يريد كوبًا من الماء بنفس البساطة!

ضحكت باستهزاء ثم تنهَّدت وهي ترمقه مندهشة وقالت بعصبية:

- يا لشجاعتك! حقًّا أنت رجل مغامر، لكن أتساءل هل أخبرتك شامة بالقواعد؟ دعني أخمِّن، أظن أنها لم تفعل، وإلا لما تجرَّأت وقادتك قدمَاك إلى قصري لتقف أمامي وتتفوَّه بهذا الهراء!.

لم يطرف لجواد رمش، مما أثار استفزازها أكثر، لاحقها بالرد وهو يحتفظ بهدوئه:

- أنا أعلم بالقواعد وعلى دراية بها، ومجيئي إلى هنا فكرتي، لا علاقة لشامة بالأمر، أنا مَن ضغطت عليها لتأتي معي، لا أفهم سر غضب سموك؟ ألا تريدين أن يتزوج طرفان متحابَّان بعلمِك، بدلًا من اللجوء للزواج بالخفاء ويلاقيان مصيرًا مأساويًّا؟

قاطعته بحِدَّة:

- الزواج سرًّا ليس خيارًا لشيء سوى الموت، لذا لا تضعه بالقائمة!

أومأ رأسه إيجابًا بتفهُّم:

- وأنا قدِمتُ إليكِ بود، كي تسمحي وتباركي الزواج.

اغتصبت ابتسامة ثم استطردت بمكر:

- سأبارك الزواج لشامة بالطبع، وستفعل أنتَ أيضًا يا جواد؛

لأن الوقت لم يسعفني لأعلن عن رغبة الأمير شاهر ولي عهد مملكة غسق بالزواج منها.

تبادل جواد وشامة النظرات واكتست وجوههما بملامح الدهشة والتعجُّب، كاد يتوقف قلب شامة، لكنها جمدت دمعها حتى إشعار آخر، أما جواد فلم يدُر برأسه شيء سوى اقتلاع رأس حُرة ليفصلها عن جسدها، لربما يهدِّئ ذلك من روعه ويشفي قليلًا من غليله!

لم يعُد يمتلك القدرة التي تجعله يطُوِّع غضبه أكثر من ذلك، فانفجر بها قائلًا:

– وهل ترتضين للأمير زوجة من العوام؟.

أجابته حُرة ببرود:

– مَن يختارها الأمير للزواج أمرٌ نافذ على الجميع بما فيهم أنا، عُد لقوانين البلاد التي لستَ واحدًا منها، لذلك أنا أعذُر جهلك.

صاح بها دون أدنى سيطرة منه على لسانه أو ما يندفع منه:

– هذا ظلم، أنتِ ظالمة وغطرستك تصوِّر لكِ أنكِ الملاك الأبيض الذي يرفرف على سماء المملكة لينصر كل مظلوم، ولكنَّكِ لا تنصفي سوى الظالم!.

أقامت من مخدعها وضربت الأرض بعصاها بقوة، اهتز توازن شامة بفعلها، أو ربما هكذا ظنَّت، هتفت بصوت عالٍ للحراس، وفي ثوانٍ كانوا يبدرون القاعة، يصطفُّون كما النمل.

وقـع صوتها تسـبَّب في حضور أغلب الحرس، أشـارت إليهم أن يمسكوا بجواد ثم قالت وهي تزمجر:

– أخرجـوه من هنـا! ألقوا به خـارج قصري وامنعـوا دخوله حتى أأذن ليبقى بشفق مع العامة.

لم تسـتطع حُـرة معاقبته أو سـجنه؛ لأنها ما زالـت في حاجة إليه.

اجتـرَّ الحرس جواد الذي جاهد للتشـبُّث بالأرض لكن دون جدوى، وقُبيل أن تغادر قدماه حدود جناحها باغتته حُرة آمرة:

– شـامة سـتبقى بقصري ولن تراها ثانيةً! التـزم بعملك حتى تنتهـي منه وتعود إلى بـلادك، وحتى لا أصيبك بنيران غضبي التي ستحرقك حيًّا!.

صرخ وقلبه ينفطر:

–شـامة لن تتزوج برجل غيري أتسمعين؟ لن أتركها، سأعود من أجلك يا شامة، لا تخافي حبيبتي لا تخافي!.

– معتوه!

تمتمت حُرة، ولم تحتمل شامة، خارت قواها وسقطت أرضًا مغشيًّا عليها.

***

في الليل اجتمع جواد وفارس ونشـال ومعهم بشـرى، الدماء تغلـي في عروق الجميع والقلـق رفيقهم، جواد يدور بالبيت جيئةً وذهابًـا يضـرب بقبضتـه الحائط، تسـتعر بصـدره نيرانًـا من لهب

تحرق قلبه وروحه، صرخ بصوت مشحون وانهار باكيًا، احتضنه فارس وربت على كتفَيه، رمقه جواد بحسرة كما لو كان يتوسَّل للقدر ثم قال:

– إذا قربها ذاك الحقير أموت يا رجل! إنني لا أعطيها له لو كان الثمن عمري.

أمسك فارس برأسه بقبضتَيه ورجَّها بحماس، ليُفيقَه من كابوس يُعاد أمامه، ثم زفر بيقين:

– شامة ستعود إليك ولن تكون لغيرك، نحن لا نسمح بذلك، ولا نقبل بالهزيمة، استرد صحتك وتماسك وسنعيدها، كفى ظلمًا واستبدادًا.

صدق نشال على كلام فارس قائلًا بنبرة أكيدة بعثت قليلًا من الأمان بصدر جواد:

– سنعيدها.

تحسَّست بشرى بطنها ويدور بخلدها ألف سؤال واحتمال لجنينها وحياتها، تفتقد شامة وتدعو الله ألا تلحق بها.

لم ينَم جواد هذه الليلة، مرت الساعات كالدهر وانشق النهار عن الليل يفكر كيف حالها؟ أهي خائفة؟ هل استطاعت أن تهرب من واقعها بالنوم، أو فشلت كما فشل هو في حمايتها!

استيقظ نشال وفارس واقتربا من جواد الذي كان شاردًا في ملكوت آخر، جسده حاضر وروحه غائبة، أشارا إليه لينتبه ثم استرسل نشال:

– سنستعيد شامة اليوم! لقد جهَّزنا خطة مُحكمة أنا وفارس بالأمس، لكن يجب أن تتم بدقة قصوى، فالخطأ يعني الموت.

اعتدل جواد في جلسته وابتسم كمن دبَّت فيه الروح، واستمع إليهما باهتمام، ثم أضاف فارس:

– لكن بمجرد أن نستعيد شامة سترحلان من هنا يا أخي، لا بقاء لكما بالمملكة. بقاؤكما يعني الموت حتمًا.

غمر جواد فارس ونشال في امتنان، اكتسب من غسق صديقَين، ربطتهم علاقة أُخوَّة رصينة، وأثبتت المواقف مدى صلاحهم وصفاء نيتهم، وقفوا معه في أزمته بقلب رجل واحد، وساندوه في محنته، كان حزينًا أنه سيضطر قسرًا لفراقهم، خسارة كبيرة ووجع جديد يُضاف إلى سلسال آلامه.

بالطبع لم يكُن هيِّنًا أن يعمل في نهار يوم قد سبقه فقدانه لشامة بين جدران القصر، لكن كعادة غسق تُجبر المرء فيها على أن يقوم بأفعال عكس إرادته على الدوام، تحرِّكه كالصنم وتدَّعي أنها تعامله كإنسان!

عمل بكد وجهد على إصلاح بعض الأماكن من التربة التي يتنبَّأ لها بالحياة، جرَّب زراعة محاصيل جديدة، لربما تُخالف توقُّعاته وتطرح، تصرَّف بهدوء ورصانة وعقد العزم أن الرحيل هذه المرة سيكون دون رجعة، شيء داخله حمل هم صديقَيه وبشرى، أحسَّ أنه من واجبه ألا يتركهم بغسق وحدهم يواجهون هلاكًا قادمًا إليهم، زاحفًا بسرعة، إعصار يأكل كل ما يقف بطريقه.

الخطة التي وضعوها كانت مُحكمة رغم ضيق الوقت للتنفيذ، بقاء شامة فترة أطول يشدد عليها الحراسة، لكن خطفها في يومها الثاني من مكوثها هناك شيء غير متوقع، ولن يفكر أحد أن يتجرَّأ جواد أو غيره، ويقترب من القصر بكل الهالة التي تحيطه والحراس الذين يصطفون من حوله، لذلك أرادوا أن يكون الأمر سريعًا وأن يضربوا الحديد وهو لا يزال ساخنًا كما يقولون، أفضل من تغيير مكانها أو أن يمسسها أحدهم، خاصةً شاهر فهي الآن في وكره، ولن يقدر عليه أو يردعه أحد، نشال وفارس قدَّموا يد العون وأثبتوا بجدارة رباط الأخوة الذي يربط بينهما وبين جواد.

انقسم ترتيب خطة الاختطاف لثلاثة أقسام، أولها هو إبلاغ شامة بما سيجري الليلة كي تستطيع مساعدتهم وتيُسِّر نقطة خروجها من الجناح الملكي، اقترح نشال أن تستأذن بشرى الأمير شاهر لترى صديقتها المقربة لخمس دقائق فقط، ظنًّا منهم أنه سيرفق بشامة وتتعهد له أنها لن تطيل الجلوس معها، وتُبلغها بما فكَّر فيه فارس سلفًا، والذي تعمل والدته مع طُهاة القصر، لذا هي على دراية كافية بالأجواء العامة للقصر وأماكن تواجد الحراس ومواعيد ظهورهم واختفائهم، بالفعل تتوسَّل بشرى الحراس برفع طلبها للأمير وأنها بحاجة ماسة للاطمئنان على صديقتها، ووعدتهم بالمغادرة السريعة، وافق الأمير لينال رضاء شامة، وأصبحت بُشرى بالداخل، دارت بعينَيها أرجاء المكان وترصَّدت بنظرات خاطفة ملاحظات صغيرة، ولكنها فارقة. وأولى الملاحظات هو جناح شامة بالجزء الغربي وهو

بالقـرب من جناح الأمير شـاهر، كما تواجد ثلاثة رجال بأجسـاد ضخمة ودون مبالغة وصفتهم بأبواب متحركة، ومن يدخل معهم في معركة خاسـر لا محالة، أدركت أن صديقتها في ورطة حقيقية قـد لا تفلح فـي الخروج منها، وحين قابلت شـامة التي احتضنت بشـرى بحـرارة واطمأنـت بوجودها، خلسـةً طبَّقت ورقـة مطوية لثنيـات صغيرة، وهمسـت بأذنهـا ألا تفتح تلك الورقـة إلا عندما تكـون وحدها تمامًا، وتتخلص منها نهائيًّا، أومأت شـامة برأسـها إيجابًـا ودقَّ قلبهـا، كانـت علـى يقيـن أن بشـرى تسـاعدها بتلك الورقة، ولكن لم يخطر ببالها الطريقة، أبدًا!

بعد مغادرة بشـرى بقرابة النصف سـاعة، قررت شامة دخول المـكان الوحيد الـذي يمكن للمـرء أن يمارس فيه حقـه بامتلاك الخصوصية دون أن يخترقها البشر، وهو دورة المياه.

فتحـت الورقـة والتـي كُتبت بخـط اليـد ((حـان الوقت، لن تنتظـري أكثر، الليلة سـينتهي فراقنا، اسـتدعي الأمير إلى جناحِك وحاولـي إغراءه، إنه مفتـون بكِ، اطلبي منـه أن يُبعد الحرس عن غرفتك، اطلبي الطعام ولا تأكلي منه، لا تأكلي منه يا شامة!)).

لاحظت شـامة شيئًا هامًّا، السطر الأول من الورقة كُتب بخط يد جواد، أما الشق الثاني منها كتبه شخص مختلف. من المستحيل أن يطلب منها جواد إعطاء شاهر فرصة الانفراد بها، أدركت أنه لا يعلـم ما يـدور، أو غير مُلم بـكل أجزائه، لكنها حسـمت قرارها، سـتنفِّذ ما كُتـب بالنص، مزَّقـت الورقـة وألقتهـا بالمرحاض، ثم

بعثت مع الخدم للأمير طلب خلوة الليلة.

الشق الثاني من الخطة هو منع الحراس من التعرُّض لهم أثناء هروب شامة من القصر، ولكن كيف؟ الحل الوحيد هو قتلهم وقتل احتمالات أن يراهم أحد، وهذا أشبه بالمستحيل ولكن كان لدى جواد رأي آخر حينما استخدم عِلمه، وأخبر فارس أن يستدعي والدته، شرح لها جواد كل شيء وحذرها من تفشِّي السر وخطورة ذلك على حياتهم جميعًا، بما يشمل حياة فارس ولدها الوحيد، بدت متوترة وتجول بعينَيها بحركات سريعة قلقة وجاهدت أكثر من مرة لإقناع فارس عن العدول عن الاشتراك في مهمة انتحارية كتلك، لكنه رفض بشكل قاطع وتصميم واضح، لذا استسلمت الأم بخنوع وهي تتمتم بدعوات سرًّا لتحفظ لها ابنها، أعطاها جواد عُشبة يُطلق عليها البنج الأسود، كان قد زرعها ضمن مجموعة أعشاب طبيَّة ينفع بها المملكة التي لم تُصبه سوى بالأذى، طلب منها طحنها جيدًا ودسَّها خلسةً بأي نوع طعام مذاقه قوي ورائحته أخَّاذة، ونبَّه عليها عدة مرات بضرورة إقناع أكبر قدر ممكن من الحراس والطُهاة أن يأكل من الصحن التي ستقوم بتحضيره، أوصاها بأن تُسرع في البدء، ليكون كل شيء جاهزًا على موعد العشاء.

والدة فارس أيضًا أعطتهم سرًّا لم يكُن ليدركه أيٌّ منهم، وهو ممر خفي قابع خلف الموقد بالمطبخ، صادفت ذات مرة جندي يعبر من خلاله وأنه مخصص لزوَّار لا تبتغي الملكة في الإفصاح عنهم، أو لأغراض حُرة الشخصية التي لا يعلمها إلا الله، مدخله

ممتد من خلف القصر، يوجد باب صغير يشبه النافذة يقتصر على جنـدي واحد فقط يحرسـه فلا يعلم أحد سـر هذا الممـر، بالطبع أضافـت تلـك المعلومـات للفريق. الكثيـر خطـرت ببالهم فكرة اقتحام القصر عبر ذاك المخبأ الصغير.

القسم الثالث من الخطة ينطبق على إخراج شامة من جناحها دون أن يلاحظهـا أحـد، وبـلا جلبـة تجعل مَـن بالقصر يحسُّـون بمـا يجري، الخطة بـدت مُحكمة وراجعها جواد ونشـال وفارس بدقة، لكن بشـرى لم تستشِـر أحدًا قُبيل الشروع في تنفيذ فكرتها، وراحـت تُبلغهـم بما صـار وعليهم الاسـتعداد، كتبت لشـامة في الرسـالة أن تسـتدعي الأمير لخلـوة، ارتفع الضغط بـأوردة جواد حتـى كادت عروقه أن تنبثق مـن مكمنها، وضرب بقبضته الحائط بغضـب ففزعـت بشـرى، هدَّأه فـارس وبصوت هـادئ طلب من حبيبته تبرير ما فعلت.

قالـت بشـرى بتـروٍّ وفخر يُفصـح عن مـدى براعـة تفكيرها ليصُفق لها نشال وفارس.

– ببسـاطة لأنه في المرة الماضية حينما طلبها الأمير بجناحه أخبرتني شـامة تفصيلة صغيرة، لكنها مهمَّة للغاية! الأمير لا يميل لرؤية الحرس يصطفُّون على باب غرفته، وحينما يأوي إلى فراشه أو يكون في خلوة يُصرِف حراسـه، ينهرهم بحزم ليتمتع بقليل من الخصوصية.

إنهـا فكـرة عبقرية بحـق، لكنهـا بالنسـبة إلى جـواد محفوفة

بالمخاطـر لذا لم ينبهر كثيرًا بقدر ما خشـيَ أن تُفسـد تلك الفكرة كل شـيء، أوصـى فارس بنبـرة تحذيريـة أن تُضاعـف أمه جرعة الأعشاب في طبق شاهر، وعليه أن يلتهمه كله وقبل الجميع!

أومأ صديقه رأسـه بالإيجاب تأكيدًا علـى كلامه، وطلب منه التحلي بالصبر والحفاظ على هدوء أعصابه قدر المستطاع.

حـلَّ الليـل ضيفًا سـاكنًا يسـمح للمـرء بممارسـة الكثير من الأفعـال تحـت سـتار الظـلام الحاني، رتَّبـت والدة فارس عشـاءً فاخـرًا كانت تعلـم أنهم يحبونه، صينية بطاطـس بعصير الطماطم وقطع من الدجاج المُقطَّع مطهوَّة بالفرن للأمير والملكة، وقدَّمت للحـراس وجبة أخـرى مكونة من قطع الدجـاج المحمر، وبعض الخضـراوات، كانت كفيلة بأن تسـيل لعابهم، وحين دقت سـاعة العشـاء أمـرت الخدم بتوصيـل الطعـام الخاص بالأميـر لجناحه خصيصًا، وأيضًا الملكة، ثـم دعوة الحراس والخدم كلهم لمائدة جماعية كبيرة نظمتها السـيدة كريمة لتعويضهم عن قلة الغذاء في البلاد، وملء بطونهم بطعام فاخر مقارنةً بما هو متداول هذه الفترة بالأسواق.

ارتـدى كلٌّ من جواد وفارس ونشـال قناعًا لإخفاء ملامحهم وتقليل فرصة التعرُّف عليهم في حال إذا تدهورت الأمور وفشلت الخطة.

أعـدَّت السـيدة كريمـة العشـاء ودعـت الجميـع. بالطبع لم يكُـن لينصرف الحراس كلهم في آنٍ واحد، قسَّـموا أنفسـهم على

مجموعات بالتناوب، انطلقت الدفعة الأولى وتلتها الدفعة الثانية. التوقيت الزمني الذي من المفترض أن ينشط فيه المخدر هي مدة تتراوح من ساعة إلى ساعة ونصف، ليبدأ تأثير المخدر في الظهور ويغفو الحراس جميعهم في ثبات عميق، في ليلة غير مسبوقة للقصر رقد فيها حصنها المصون من الجنود وارتصَّ أرضًا. الجدير بالذكر أن عشبة البنج الأسود يستمر مفعولها لقرابة الثلاث ساعات تقريبًا، وهي المهلة التي يجب أن يخمد خلالها كل شيء.

تسلل جواد وفارس من الباب الخلفي بتأنٍّ وحذر شديدَين، يراقب نشال الأجواء بالخارج تحسُّبًا لأي ظرف قد يطرأ بغتة، بعد دقائق أصبح الاثنان يتجوَّلان بأروقة القصر بحثًا عن الجناح الذي تقبع شامة بداخله، يحتمون بالجدران ويعتمدونها كساتر ودرع يحتمون به، ردَّدوا الدعوات بتضرُّع وتوسُّل بالغَين، يناجون الله كي يحفظهم ويغادروا ذاك القصر المشؤوم بسلام آمنين.

المشكلة الحقيقية التي واجهتهم ولم يكتشفوها إلا متأخرًا واصطدم جواد من حقيقتها، هي تواجد شامة مع الأمير بنفس الجناح، وتفاجأ أنه لم ينَمْ بعد، وظل مستيقظًا في كامل نشاطه.

شاهر اتبع الدهاء هذه الليلة وأسبابه تندثر تحت البقاء مع شامة لأطول فترة ممكنة، حينما دعته للخلوة لم يصدِّق، وظل متسمرًا بمكانه لا يفهم كيف، ساوره الشك أنه ربما تتلاعب بمشاعره لمساعدتها في خلاصها من قضبان قصره الكبير، لكنه

سرعان ما قرر أن يذهب ليراها وتتضح له الصورة كاملة.

شـامة تصرَّفت بذكاء وحنكـة كعادتها، هـي محتجزة بقصره والوضـع ينـدرج تحت قائمة السـوء ليصـل لوقاحـة مُطلقة ليظن أن مطلبهـا حقيقـي، لكنهـا تتقـن فنًّا خاصًّـا بها منذ وُلـدت، وهو التفاوض لتحصل من خلاله على كل ما تريد.

فـي البداية وضَّحت له أنها أرادت رؤيته ومحادثته في الخلاء بعيـدًا عن أنظار الجميع، وأن يكون سـحر الليل ثالثهما، انفرجت أسارير شاهر في تلك اللحظة، ولكنه لم يُبدِ أيَّ تعبير يوحي بذلك. بدا هادئًا ورزينًا رغم أن صدره يُقيم حفلة شواء على شرف أشواقه المُلتهبة.

ظلَّا معًا تناقشـه شامة بأشـياء بلا معنى تُحدثه تارةً عن جواد، وهل الضغينة التي نشـأت بينهما قد زالـت أم أنه يظل يحتفظ بها، وتـارةً أخـرى عن أحـوال البـلاد ومدى درجـة هلعه ممـا يجري حوله، شـاهر كان أسـيرًا لعينَيها مفتون بجسدها وثرثرتها. الفائدة الوحيدة منها هي سماعه لصوتها الذي يعشقه، حينما جاء الحرس بالعشاء وضعوه على طاولة مقابلة للسرير وانصرفوا بهدوء، دعته شامة لتناول الطعام جلس جوارها، كان سعيدًا ومنتشيًا ورفض أن يأكل، بل أصر أن تأكل شامة، ثم قالت بدلال:

– لن آكل من دونك يا مولاي، سأنتظرك.

زاد توترها وارتعشـت يداها خشـية ألا ينـام ذاك الثور الهائج الليلة.

مـرت سـاعة كاملـة ولـم يتناول شـاهر شـيئًا، لم يترك لشـامة خيارًا آخر، قررت أن تستعمل معه أسلوب المفاوضة، اقتربت منه بحنو، وتحسَّست شعره برقَّة ثم همست:

- إذا أعطيتك نفسي، هل تضمن لي الأمان والزاد؟.

قبَّل كفها بحب وتلهُّف ثم أومأ موافقًا، وقال:

- أفديكِ بروحي يا شامة.

بميوعـة أخبرتـه أنها تتضور جوعًـا، ويمكنهما البـدء بالأكل أولًا، وأنهـا لـن تتنـاول ولو لقمة بدونه، سـال لعابه وسـار خلفها معصـوب العَينَيـن، وأكل حتـى شـبع ريثمـا تناولت شـامة بعضًا مـن الخضـراوات بتوجُّس، ولكن لحُسـن حظهـا وضعت كريمة الخضـراوات سـليمة، ولـذا تأكَّـدت شـامة أنهـا غيـر مختلطـة بالأعشـاب، وأوهمتـه أنها قد أكلت مـن الطعام معـه، تحجَّجت بعدهـا أن عليهـا أن تتجهز وتتعطر، لذا سـتذهب إلـى دورة المياه وطلبت منه أن ينتظر، طال انتظاره ولم تخرج شـامة، حتى تسطح على ظهره وغاب تمامًا عن الوعي.

مـرَّ الوقت كأنه دهر على شـامة وجواد. توخـوا الحذر وفتح فارس باب جناح شـامة ببطء والذي قد وصفته له بشـرى سـابقًا، جناح مميز مرسـوم أعلاه طائر يحلِّق في الهواء، ومُدوَّن على بابه ((جنـاح ملكي للضيوف)). اختبأت شـامة خلف سـتائر الشـرفة ورمقـت بطـرف عينَيهـا أن الطـارق لم يكُن سـوى حبيبهـا جواد وصديقـه فـارس، ركضت مسـرعةً بتوق واحتضنت جـوادًا الذي

ضمَّهـا إليه بقوة أذابت عظام صدرها وقلبها معًا، يستنشـق عبيرها ويتفحصهـا، يتفقَّدها بعيونه ولا يصدِّق أنها بين يدَيه. لبرهة أحس أنه حلم وسيستيقظ منه لامسها من جديد وقرص نفسه وتيقَّن أنها معـه، أفاق من لوعته ورمق شـاهرًا الراقد فـوق الفراش كالخنزير المنقلب على ظهره، ثم اتَّسـعت عيناه وانطلق منها الشـرر. ربتت شامة على كتفه بحركة سريعة وهمست بنبرة أسرع:

– سأشـرح لـك كل شـيء، أعدك، لكـن دعنا نخـرج من هنا أولًا.

أمسـك بيدَيها وانطلقوا معًا مغادريـن القصر، هبطوا درجات السلم والتي كانت عددها بدا وكأنه بلا نهاية، وقبل أن يبلغا الباب الخلفي سـمعوا صوت صـراخ حُرة، والتي ظنَّت مـن الصدمة أن شـاهر قد قُتـل ولم يخطر ببالها أنه نائم فحسـب وسيسـتيقظ عما قريب، والتي كانت مسـتيقظة لأنها لم تـأكل بعد من الطعام الذي قُدِّم إليها، صياحها أثار انتباه الحرس على البوابة الرئيسية للقصر، والـذي كان بعضهـم قـد بدأ فـي الاسـتفاقة واسـتعادوا بعضًا من نشـاطهم، هرولوا إلى القصر، فأسـرع جواد وشـامة بالخروج من البـاب قبل أن يلاحظهم أحد، أما فـارس فقد لمحه أحد الحراس المتجوليـن بالقصـر، فلم يبتغِ المغامـرة بحياة أمـه والهروب من نفـس الباب، حاول الهرب من النافذة، ولكنه لم يفلح، فقد كانت موصدة وانتهي به الحال أسيرًا بين أيادي الحراس...

الفصل الحادي عشر

«ألم الفقد لا يتمثَّل فقط في الغياب، بل هو
ثُقب يتَّسع في كل مرة نحاول فيها غلقه»

انطلق جواد ونشـال وشامة مسـرعين ليبلغا النهر، سيسبحون ليلًا للهرب وعبور الضفة الأخرى التي تُعتبر أقصى حدود المملكة والتي عادةً لا يقربها أحد. هذا كان سبيل نجاتهم الوحيد، حاملين معهم حسـرة تعتصر القلب على صديقهـم فارس وحيرة لا تنتهي بشـأن مصيره، وللحظات فكـروا بالعودة لإنقاذه، ولكن ذلك كان يعني هلاكهم جميعًا..

الميـاه باردة بشـكل قارص تخترق الأضلع، والمسـافة كبيرة ليسـت كمـا ظنـوا، والأنفـاس تنقطـع والأعضـاء تتجمَّـد ببطء، يتحركون ويتوقفوا دقائق يلتقطون أنفاسـهم، ثم يعيدون الكرة من جديد، يسيرون صوب أرضٍ يجهلون كُنهها، ولكنها أرحم عليهم من وطن غادر يكيد لهم كيدًا، حتى بات الهروب منه أسلم وأصلح الحلول، وحشة أن يستحيل الوطن بغتةً من الأمان للذعر، ويصير الفرار من الدار أفضل اختيار، يتفتت القلب وينهار وتسـبر النفس أغوارها، وتصبح الروح حائرة معلقة بين أرضين، إحداها يملكها القلب والأخرى يقبع فوقها الجسد.

بعـد قرابـة الخمـس سـاعات انقضـى خلالهـا الليـل وحـل الشـروق بدلًا منه، أخيرًا بلغت أجسـادهم اليابسـة المنتظرة على ضفافها انحسـر النهـر بدرجة أكبر مـن مملكة غسـق وذاك أمر لا يبشر بالخير!

الخـواء يحيـط بهم مـن كل حدب وصوب، لا شـيء سـوى صحـراء خاويـة وضفاف النهـر وغابة صغيرة بها بعض الأشـجار

فـي مزيـج عجيب جمع بين الأجـواء الصحراوية وأجـواء الغابة، احتضن جواد شـامة وحاول أن يطمئنها ويهدِّئ من مخاوفها التي فضَّلت عدم الإفصاح عنها، لكنه كعادته أحسَّ بها دون أن تنتبه أو تطلب.

جواد ونشال دار بخلدهم الشيء نفسه، البحث عن قوت يوم وإيجـاد طريقة للزاد وسـط هذا الكـم الهائل من الفضـاء، وتوفير مكان آمن للمبيت يحميهم مـن أخطار الطبيعة وبرودتها القارصة ليـلًا، دار برأس جواد سـؤال مُلِح، تُرى هل مكث بشـر على هذه الأرض من قبل؟ وهل ما زال يسكنها أحد؟

لا يخشى المرء شيئًا أكثر هولًا من التيه وفقد شعور أمن زاده وبيت يأويه، يشـعر كأنما قد أُلقي بقبر يعيش فيه المتبقي من حياته حتـى ينفد وقته في الدنيا ويرحل على الحال ذاته، السـؤال الأكثر أهمية هو لماذا يُكافح الإنسـان بشـتى الطُّرق للحفـاظ على بقائه حيًّا؟

إن كانـت الحياة هي أعز ما يملك لما يسُـب ويلعن حاله بين الفينـة والأخرى؟ إن كانت الحياة تُقدر بعدد الأنفاس أو بالخوف مـن الموت فهـي بلا قيمة. مـا يُضفي إليهـا معنى حقيقـي هي أن يحياها الإنسـان سـعيدًا هانئًا، دافئًـا، مطمئنًا، ممتلـئ الجوف بما تشـتهي به نفسـه، إنها الطريقة الوحيدة الجائزة للتمسُّـك بالحياة، فما فائدة إضافة سـنوات لعمرك إن كانت بلا هوى وهوية؟ مجرد رقم ينخفض ويرتفع كما الموج، لا يلحظ اختلافه أحد.

أرضهم الجديدة كانت منطقة تُشبه الغابة إلى حدٍّ كبير، شجر طويل، عدد ضئيل منه لا يحتوي إلا على بضع أوراق وأرضها من طين ضحل، ويحدها من الخلف ظهير صحراوي برمال غير مرتفعة، ولكنها ساخنة وناعمة، وهناك الكثير من الأعشاب الصغيرة التي من الممكن أن تحوي الزواحف كالسحالي والثعابين، وبجوار الغابة قبع النهر في صورة تسُر الناظرين وتُفزع الحاضرين، حتى أقصى حدود غسق تحمل بين جعبتها مفاجآت. كم هي عجيبة تلك البلاد!

أجسادهم مُنهكة، ونفدت منها الطاقة بسبب الجهد المبذول بالسباحة، لكن عليهم شق طريقهم لإيجاد طريقة يحتمون بها من أخطار التواجد دون ساتر يأويهم من أخطار الطبيعة، سلكوا اتجاه الغابة. بدت أكثر عمرانًا من الاتجاه الآخر، الأعشاب كثيفة تلتصق بالأرض على مساحة شاسعة مهيبة، آثار أقدامهم تتبيَّن من الطين، مع ذلك تملَّك منهم خوف الضياع وفقد طريق العودة، وللأسف لا بديل. عليهم خوض غمار التجربة ليحظوا بقليل من الدفء والأمان، طالت مدة بحثهم دون جدوى حتى انجلى لمرمى بصرهم كوخ خشبي صغير توسَّط الأدغال، والذي من المنطقي أن يكون قد بناه إنسان، لذا تساءلوا تُرى هل ما زال ساكنه على قيد الحياة؟ وهل سيرتضي أن نبيت عنده؟

تحسَّسوا خطواتهم واقتربوا ببطء. كانت شامة تلتصق بظهر جواد الذي تصدر المقدمة لتحتمي به، ومن خلفها نشال، دقَّ جواد الباب ثلاث مرات ولم ينفتح، ولاحظ نشال أن شرفة الكوخ

ليست موصدة بالكامل، بها ثقب صغير يسمح لمن بالخارج فتحه، ترددوا للحظات ثم اتخذا القرار، فلا سبيل آخر، ما هي إلا ثوانٍ وأصبحوا بالداخل. المكان لا يُبشر بوجود ساكن، يستحيل أن يعيش إنسان وسط هذا الكم الهائل من الأتربة والعفن، مساحته صغيرة ولا يشمل الكثير من المحتويات، سرير مصنوع من الخشب ومُبطن بالقطن! لكن أين وجد صانعه القطن؟ تُرى هل قام بزراعته؟ وأريكة من نفس الطراز اليدوي وموقد من الحطب وإناء وملعقة خشبية، بسيط وغريب ورائحته عطنة، يحتاج الكثير من الجهد للتنظيف، لكنه يمثِّل ملجأهم الوحيد لتخطِّي مأزق البقاء في أحضان الطبيعة.

***

حادثة الهروب أثارت البلبلة بالمملكة، وظلَّت الفكرة تراود العقول للخلاص من الظلم السائد بأراضيهم، فإذا استطاع أحدهم الرحيل، فلِمَ لا يفعلها آخرون ويغادروا فارِّين بحياتهم من هذا الهراء كله؟

الألسنة تناقلت التساؤلات والأفكار لم تعُد سرية، والأدمغة تعجُّ بالمزيد من الوساوس التي بلغ صداها القصر الملكي، الأجواء داخله كانت نارية، والغضب ينبثق من أعين حُرة وشاهر، وكأنما بساط السُّلطة قد شرع في الانسحاب من أسفلهما بتؤدة حتى يسقطا أرضًا. ولم تكُن لترتضي الملكة ذلك أبدًا. بالنسبة لها الموت أهون وأشرف من هدم كل ما شيَّدته طوال السنوات

الماضيـة، لـذا عقـدت العـزم على إخـراس ألسـنة الجميـع وبتر أفكارهـم العقيمة التي تُوحي إليهم بالخـروج عن طاعتها، أو ظنًّا منهم أن بإمكانهم تذوُّق الحرية دون أن تأذن لهم بذلك.

شاهر أحسَّ بقلبه يحترق مرتين، الأولى بضياع شامة، والثانية بخداعها له. ورغم مكرها معه إلا أنه لم يستطع التوقُّف عن حبها، والرغبة في استعادتها من جديد، شيء بداخله همس له أن أمه لن تسـمح لها بالعيش لثانية واحدة بعد ما ارتكبته من أفعال، لكنه رد بشكل قاطع على ذلك الصوت، أنه سيضحي بكل شيء في سبيل أن يحظى بشامة كزوجة له، أي شيء!

أما فارس، فقد ذاق من التعذيب كؤوسًـا مُرة كالعلقم، تركت علامـات تترسَّـخ على جلده ومُنـع عنه الماء والطعام، وتشـقَّقت شـفاهه مـن الرعـب، ومن عـدم الارتواء ولـو بنقطة مـاء واحدة! وحيد بسـجنه، عاري الجسـد، يرتجف من شـدة البـرد، وأطرافه كادت تتجمَّـد، وقـارب علـى فقـد إحساسـه بها، كلما حـاول أن يُغمض عينَيه سكب عليه الجندي الأصلع ذو الوجه المربع كوب ماء ساخن يكوي بدنه، لكنه يدفئه في الوقت ذاته..

سـعت حُرة للانتقام سـريعًا لتثـأر من أولئك الذين اسـتخفوا بقدرتها، وقللوا من شـأنها وكسـروا هيبتهـا برحيلهم، تعهَّدت أن تلقِّن كل من سـاورته الفكرة من شـعبها درسًا، وتبُثَّ في نفوسهم رعبًا سيتذكَّره كل مَن يمد الله في عمره ما حَيِيَ!

صبـاح الليلة الماضيـة التي اختفى بها ثلاثة أفـراد من مملكة

غسق التي لا يجرؤ على مغادرتها أحد، أقامت حُرة محاكمة علنية ودقَّت الأجراس ليحضر الجميع كما تفعل دائمًا، ولكن نظرًا لحالة التمرُّد أو الاعتراض التي من الجائز أن تصيب البعض، وتتفشَّى العدوى، شددت أن كل من تسوِّل له نفسه رفض الحضور أو عدم المجيء، أقسمت أنه لن يرى شمس الغد!

لبَّى نداؤها كل الشعب، وبشرى على رأس القائمة، عيناها حمراوان منتفختان تُشاهد فارس الذي اعتلى المنصة مصلوبًا من ذراعَيه وقدمَيه، جسده مقلوب لأعلى ورأسه لأسفل على ارتفاع نصف متر تقريبًا، تضع يدَيها على قلبها، تصرخ بداخلها وصوتها منقطع، الجلاد وقف خلف حُرة التي تصدَّرت المشهد واستندت على عصاها التي تتكئ عليها، ثم تنهَّدت واستهلت كلامها بلهجة متوعِّدة غاضبة:

– شعبي الذي أكرمته وضحَّيت بعمري لأجله يُخيل إليه أنني سأسمح باعتداء أغبياء مثل هؤلاء على قواعدي وحدودي، والأكثر فكاهة في الأمر مَن يظن منكم أنني ربما أستسلم لإرادتكم بتخطي ما عِشتُ لبنائه، هيهات! يا لكم من حمقى! في نظري تشبهون الفئران في جُبنها، وهذا الولد المصلوب أمامكم جرذ ضئيل، أدهسه وقتما أريد، أنتم لا شيء بدوني، ولولاي لما عِشتُم، ومتم من قلة الموارد والمياه، وسيصير ذلك عما قريب. نجاستكم لوَّثت التربة وحسرت المياه، إن لم تموتوا من الجوع والعطش سينال منكم عقاب خرق قواعدي، لن يحدث أبدًا أن أرتضي مخالفة أيٍّ منكم أمري وإمارتي، حتى وإن كنتم في

قبوركم سأجدكم وسأقتلكم جميعًا.

بدت مهووسة ومُغيبة، تتكلم كمن فقد عقله، ولا تريد التسوية أو المساواة أو تطبيق العدل، كل ما تسعى لأجله هو إثبات وفرض سلطتها على الجميع، تتحكم بهم كالدُّمى وتتسلَّط عليهم كما الشيطان.

تراجعت للخلف وألقت بعصاها ثم أمسكت السيف الحاد وقرَّبته من عنق فارس الذي كان يتبادل النظرات مع بشرى بحُب، لا يرى الموجودين أو الموجودات، يراها فحسب، ويُملي عينَيه منها لآخر مرة، حرَّك شفتَيه المُشققة ودون أن يُصدر صوتًا همس:

- أُحِبُّك يا بشرى انفجرت بشرى بالصراخ وتقدَّمت الصفوف، التفتت إليها حُرة وانتظرت حتى بلغت الفتاة خشبة الإعدام، بكت وركعت وتوسَّلت ألا تقتله، تنهنهت والدمع يتدفَّق من مقلتَيها فأغشى البصر، قبَّلت قدمَي الملكة التي راحت تبادلها بنظرات تتخللها شفقة، ثم قالت حُرة بحزم وهي تستعرض الكلمات لتبتر ظنونها من الآمال الزائفة:

- الخائن والعاصي يُقتل، العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم.

بكل قوة وعافية أُوتِيَت بها، رفعت السيف وأنزلته بسرعة ليفصل رقبة فارس عن جسده بطرفة عين، وتنبثق نافورة دماء من عروقه لا تتوقف، وتبلل كل ما يحيطها من أشياء وأشخاص، أما بشرى فقد فُصل قلبها عن ضلوعها بنفس اللحظة، أو هكذا ظنَّت،

لكنه كان شـعورًا أقوى من أن تصفـه أو تُنصفه الكلمات، أن تفقد الرجـل الـذي أحبته بهذه الطريقة الوحشـية، فُتِّـتَ فؤادها ومزقها إربًا، لم تدرِ بنفسـها إلا وهي تلتقط رأسـه وتحملهـا، تُدقِّق النظر بمقلتَيه الجاحظتَين، وتغلقهما بحنان ثم تقبِّل جبهته وتبلل شـفتَيه بدمعها ثم تهمس:

– لن أتقبَّل خسـارتك، أعدُكَ أنني سـأقتصُّ من كل مَن أسهم في إهدار دمك يا حبيب روحي.

مـرَّرت كفَّيهـا علـى بطنهـا كمـا لـو كانـت تحتضـن جنينهـا وتشكوه، ألمٌ ينحر روحها بلا رحمة!

الفصل الثاني عشر

«يُعيد الفقد تشكيل أرواحنا بصمت مُوجع»

تمكَّنت شامة بمساعدة جواد ونشال من تحويل الكوخ الخشبي ذي الرائحة العطنة إلى مكان يسمح بالعيش، واختطاف بضع ساعات للنوم، الليلة الأولى مرت بسلام ولم يأكلوا فيها شيئًا، اكتفوا بالماء من النهر فحسب، وفي اليوم التالي انطلق جواد ونشال معًا في رحلة استكشافية لمحاولة الحصول على الطعام، تجولوا بنفس منطقة تواجد الكوخ الطينية وسط الأعشاب والشجرات، في بداية الأمر بدت الأرض فقيرة معدومة المصادر لا تختلف عن غسق كثيرًا في شحيح مواردها، ولكن يبدو أن هذه الأرض تطرح أكثر مما توقعوا..

شامة لم تبرح الكوخ، وأثناء حملة التنظيف التي قاموا بها عثرت على رسالة مكتوبة بخط اليد، لم تتمكن من قراءتها الليلة الماضية، تذكرتها وقامت بفتحها وشرعت في القراءة، اندهشت مما كُتب! ساكن الكوخ هو من دوَّنها، حكى عن بنائه للكوخ، وأنه كان يعمل بالنجارة وجمع كثيرًا من الأخشاب، وصنع قطعًا أخرى لكي يتمكن من صُنع مأوى له، وذكر أنه كان من سُكان شفق، وهرب عبر النهر، ونظرًا لأنه وحيد بلا عائلة أو أصدقاء وتمثَّلت حياته بالانطوائية، لم يسأل عن غيابه أحد، وأُعلن خبر وفاته للتكتُّم على هروبه، غادر وهو في عقده الرابع وقضى المتبقي من عمره على هذه الأرض المنسية التي لم يهتم بها أحد، واعتبرتها حُرة أرضًا بورًا، لا تصلح للحياة، وعلى أطراف البلاد تحدها الصحراء، فكيف يمكن أن يزرع بها أحدهم الأمل!

لكنه وجد بها جنة صغيرة تسعه، كل ما حمله معه هو بعض

البـذور التـي زرعها بعدما قضى ثلاثة أشـهر يتابـع المزارعين كل يوم ويراقب كل ما يقومون به من عمل، زرع القطن والخضراوات وبعـض الفواكـه، كما أنه وجد أشـجار تطـرح جوز الهنـد حينما وصـل، وكان ذاك غـذاؤه حتى يكبر ما زرعه ليحصد ثماره، عاش وحيدًا ومات في مكان لا يعلمه أحد ولا يذكره أحد أو يبكي عليه، لكن حين فارقت روحه جسده ماتت بأسمى درجات الشرف التي من الممكن أن ينالها إنسان، لقد عاش حُرًّا وانتهت حياته وحريته تطوف من حوله، تبتسم له وتهنِّئه بما حقَّق.

طوت شـامة الرسالة التي بللتها نقطة دمع خانت عيون شامة، تملَّكهـا التأثُّر ثم تكركبت معدتها وأصابهـا الغثيان مع دوار حاد، كادت أن تسـقط أرضًـا، لكنهـا اسـتندت علـى الجـدار وغادرت الكوخ لتُفرغ ما في معدتها كله بطين الغابة.

***

بالفعل عاد جواد ونشال وقد انتابتهما فرحة عارمة، لقد عثروا علـى بعض ثمرات ليسـت بالحالـة الجيدة وقد بدا عليهـا أنها لم ترتوِ منذ مدة ليسـت بالقليلة، وسـاعد على بقائها ماء المطر، لكن ببعض الاهتمام ستعود إليها الحياة وتطرح ثمارًا أفضل من أفضل ثمار طرحتها غسق!

هكذا وصفها جواد، كان يتكلَّم بحماس شـديد، وأباح إليهم أنـه ربما تعبر طائرات من هنـا ويمكنهم المغادرة، ويصحبهم معه إلى وطنه؛ لأن الطائرات لا تعبر من فوق أراضي غسـق، فقط عبر

الحـدود، تكلم والحب يشـع مـن مقلتَيه، لم يتحمَّس نشـال كثيرًا للفكرة، فجواد قد سـرد له التقدُّم الموجود بعالمه من هواتف إلى سيارات وطائرات وأشياء لا يتذكَّر أسماءها، اختراعات عجيبة قد لا يتمكَّـن من التوافق معها أو مع عالمه، لكن كل ما جال بخاطره هو مذاق الحرية، ومدى براعة إحساسه! أن يُخطط المرء للرحيل، ويسـعى مـن أجله، ويتنقَّل من بلد إلى آخـر دون أن يصير مجرمًا، أشياء لا يدركها إلا من عاشها..

مرَّت الأيام على نفس النهج، الفارق الوحيد هو نعيم السكينة والهدوء، التحليق بخفة طيرٍ حُرٍّ طليق!

فـي ذاك الصباح ألحَّت شـامة على جواد التحـدث معه على انفـراد، بـدت طيلـة الأيـام الماضية في حالـة إعياء مسـتمر، قيء وغثيان ملازمان لها، مما أثار قلق جواد وفكَّر جديًّا بالعودة لغسق حتى يُحضر لها دواء يُسرع في عملية شفائها، لكنها منعته، واليوم أبلغته بسـبب منعها، وأنها كانت تشُك بشيء وهي الآن أكيدة منه، ضمَّتـه بحنو، وطوَّقته بذراعَيهـا ثم ألصقت وجهها بوجهه وتبادلا الأنفاس معًا وهمست:

– جـواد.. أظـن أنني حامـل، تأخَّر الطمث مـدة كبيرة، أظنها قرابة النصف شهر، أنا على يقين مما أقول!.

تبدَّلت ملامحه ولم يسـتطع تحديد مشـاعره، تُرى هل يسعد بالخبـر؟ سـينجب من الفتـاة التي أُغـرم بها بصدق وكل حواسـه صرخت بعشـقها، أم يحزن لأنهم ما زالوا على أراضي غسق حتى

وإن مكثوا بأقصى حدودها!

الحيـرة والخوف يلازمـان بعضهما والخلاص منهما أقسى مما يبدو عليه الأمر، أشـبه بحسم قرارك بالقفز من فوق جبل دون أن تخشى الموت.

***

مرَّت أربعة أشـهر كاملة وبطن شـامة بدأت بالظهور وحملها أصبـح واقعًا يعيشـونه كل يـوم، وكل ليلة قد مرت طوال الأشـهر الماضيـة سـرقت معهـا النـوم من عيـن جـواد، كلما غفـت عيناه اسـتيقظ على كابوس مُفزع يؤرِّق راحته، وحين يهدأ يعود ليراوده مـن جديد كل ما يدور بخلـده هو خوف منقطـع النظير، يصوِّر له عثـور حُـرة وجيشـها عليهم وقتـل شـامة وجنينهم أمـام عينَيه بلا رحمـة، لم يفكِّر بنفسـه أو بما سـيحل به رغم فظاعتـه، لا يحتمل فكرة فقدها أو أن يمسسها رجل سواه.

بالنسـبة لامـرأة حامل بالطبع لن يكفيهـا التغذي على ثمرات الفواكـه والخضـراوات، وكانـت تلـك مـدة كافيـة للتكيُّـف مـع متغيـرات الطبيعـة وعواملهـا واستكشـاف الحيوانـات والطيـور التي تتردد بالقرب منهم واسـتطاع جواد ونشـال صيد بعض منها، كمـا صنعوا أدوات بسـيطة تمكِّنهم من الصيد فـي النهر لتمديدها بالطاقة والغذاء اللازم لها في تلك الفترة، ولكن كل تلك العوامل لم تكُن مصدر أمان، ففي ظل انحسار المياه والترقُّب طوال الوقت والخوف من أن تصل إليهم أعُين الملكة، كما أنهم كانوا يشعرون

بالذنب بسبب فارس وأرادوا معرفة ما صار معه، لعلهم ما زال بإمكانهم المساعدة وفك أسره إن كان قد سُجن أو التخفيف من عذابه إن كانت حُرة تنتقم منهم فيه.

مع حمل شامة فكرة التنقُّل كانت مستحيلة، لن تستطيع السباحة أو بذل جهد جسدي كبير ولن يقوى جواد على تركها وحيدة هنا، لن يطمئن، ويخشى ألا يعود إليها وقد لا تنجو أبدًا، لذا اتخذ نشال هذا القرار بالنيابة عنهم، أقنعهم بخفة حركته وسهولة تنقُّله، وأنه لا يملك عائلة يخشى فقدانها أو قد يقلق أحد بشأنه إذا غاب، ربتت شامة على كتفه بحنان وقالت بصدق نابع منها:

– والله لا يغمض لي جفن إن مسَّك سوء يا رجل، أنت أخ لنا ورفيق محنتنا.

أعاد جواد عليه كلامًا يحمل نفس المعنى، الإطراء الذي وقع على مسامع نشال جعله يُدرك قيمة الحب والعائلة التي لم يعرفهما قَط؛ لأنه نشأ وحيدًا وماتت أمه وهو لا يزال صغيرًا، وأبيه لحق بها بعدها بفترة قصيرة، عاش حياة مريرة، لكن حسَّه الفُكاهي وفطرته التي دفعته لخدمة من حوله، جعلت الناس التي عرفته عن قُرب تتغاضى حتى عن اعتياده السرقة، وأيضًا اعتاد استرجاع ما سلب، هو لا يسرق بغرض السرقة بقدر ما يريد أن يشعر بالاهتمام وبالالتفات إليه، ومنذ اقترب من شامة وفارس وتعرَّف بجواد توقف عن ممارسة ذلك، وأحس بالمحبة والأمان

الكافي للتخلي عن فعل السرقة.

شيء بداخله صرخ ألا تذهب إلى هناك، لربما لن تتمكن من العودة إليهما وينتهي بك المطاف وحيدًا، وصوت آخر ظل يناجيه كل يوم بالرجوع لغسق لتفقُّد أحوال صديقه فارس.

بالأخير حسم نشال قراره، ورأى أنه لا مفر من المواجهة، رحل في سلام بعدما ودع صديقَيه بحرارة ووعدهما بالرجوع رغم انعدام يقينه بالوفاء بالوعد أو بنقضه تمامًا، يريد أن يصل إلى غسق قبل بزوغ الفجر ليتحرك بحرية أكبر، ودعا ربه ألا يكون الحرس في انتظاره حين يصل.

الرحلة وحدها لم تكن سهلة والغوص في الماء ليلًا شيء مُفزع يصدح بالصدور، وشعور عدم ملامسة القدم أو أن تبصر العين اليابسة مرعب بحق ضائع وتحده المياه من كل حدب وصوب، الماء الذي سيجف قريبًا لربما يحوي الآن سمكة قاتلة أو تمساحًا يفتك بجسده، لا يدري لماذا بات يطارده الموت وعليه الهروب قبل أن ينال منه؟

ولِمَ الهرب إن كان الموت قدره فليكُن، ليتخلص من عذابه ويتحرر من خوفه. هكذا حدَّث نفسه وبثَّ في أوصاله الحماس لطالما رفض تعلُّم السباحة لأن والده أجبره عليها في صغره، لذا كان يبغض المياه ورفضها أن تلامس جسده، لكنها الآن السبب الذي دفعه للصمود طوال هذه المسافة واحتواء هلعه قدر استطاعته.

بعد عناء وإرهاق ووقت كبير قد مضى لمست قدماه النحيفتان أراضي غسق، نفض الماء عن جسده ككلب غمرته المياه، وقال بتهكُّم:

– مرحبًا غسق اللعينة! ها قد عُدت إليكِ من جديد وأتمنى البقاء حيًّا.

لمح بعينَيه جنديًّا يقف على أقصى يمينه يتابع ما يجرفه النهر بخفة تحرك مسرعًا واختبأ خلف جزع شجرة كبير، سار على أطراف أصابعه محتميًا بالطبيعة ومتستِّرًا بظلام الليل القاتم حتى توارى عن الأنظار، كان قد حدد وجهته سلفًا وانطلق بحذر، وقد التفت خلفه وراقب اتجاهاته مئات المرات واضطر لخداع الحرس، والتخفِّي منهم حتى وصل بعد شقاء إلى بيت بشرى ودقَّ الباب.

استغرقت عدة دقائق لتفتح له الباب، لم يعطِها فرصة للاستيعاب، أحكم راحة يده على فمها كيلا تُصدر صوتًا، ودفعها برفق للداخل ثم أغلق الباب، اتسعت حدقتاها من هول المفاجأة، فأرخى راحته ليستكين صدرها من هبوط وصعود درجات الخوف التي تسبب لها بها نشال، بتر جسور الصمت:

– هل أنتِ بخير؟ كيف حال فارس؟ هل هو محتجز أم استطاع نيل العفو؟.

خرجت منها الكلمات متقطعة ونبرة الاستهزاء صاحبة الصدى الأعلى:

– خيـر؟ عـن أي خيـر تتحـدث وأي عفـو تأمل! لقـد فررتم كالجـرذان وتملَّك الجُبن منكـم، وكان فارس هو الضحية الأمثل وكبـش الفداء الذي مـن دونه لا خلاص لكم، عـار عليكم، غادر منزلـي أيهـا اللص الحقير، وإيـاك والعودة، واللـه أبتر لك قدمك دون أن يرمش لي جفن! سمعت؟.

تسـمَّر نشـال أمامها غير مصدق أنها بشـرى التـي تتلفَّظ بهذه الكلمـات، وتبدَّلـت نظـرات عينَيهـا الحنونتَين إلى نظـرات مليئة بالقسـوة، واكتسـبت قسـماتها جمودًا وغليـلًا ثائرَيـن. حاول أن يربت على كتفها، فأبعدت يدَيه بقوة وصرخت بوجهه:

– لقد مات فارس! فُصلت رأسه عن جسده أمام عيني. اللعنة عليكـم جميعًـا وعلى صداقتكم! سـيُربَّى ابني بـدون أب أو أم أو سـأُضطر لإلقائه بالنهر؛ لأنه غير شرعي؛ لقد دمرتم حياتي وحياة طفلي.

ذُهل نشـال مما ألقته بشـرى على مسامعه وسـقط عليه الخبر كالصاعقة، خانته قدماه وافترش الأرض، أجهش في البكاء وانهار تمامًا، لقد فقد صديقه ولن يراه مرةً أخرى للأبد!

اختطفه الموت بلا وداع سابق، ودون غمرة أخيرة...

جرحًا عميقًا يتغلغل في كل جزء من روحه، يُمزقها ببطء.

عينـاه لم تدمع فورًا، بل تجمَّدتـا في صدمة ثقيلة، وكأن عقله يرفض تصديق الحقيقة. مشاعر الحزن والغضب امتزجت معًا في دوامة مظلمة داخله، كيف يمكن أن يرحل فارس، وهو الذي كان

السند، الضحكة التي تخفف عنه ثقل الأيام؟ كل ذكرى جمعتهما كانت تهاجمه في لحظة، وكأنها سهام تُغرس في قلبه بلا رحمة!

كان يريـد أن يصرخ، أن يحطِّم كل شـيء من حوله، لكنه كان عاجزًا. الحزن جعله ضعيفًا، كما لو أن قوته قد سُـلبت منه تمامًا، أقدامه بالكاد تحمله، وكأن الأرض التي يقف عليها لم تعُد ثابتة.

قال في تأثُّر وقد خرج صوته حانقًا:

– لا عزاء يمكن أن يرثيكِ يا بشرى، ولكنني أُقسم لكِ أننا لم نُلقِ بفارس إلى التهلكة، إنه نصيبه.

نظرت إليه بقلب يحترق وسألت:

– أين شامة وجواد؟

– على أطراف غسـق بأقسى الحدود، لقد اكتشفنا شيئًا يمكنه أن يُحدث فارقًا، ويغير الكثير يا بشرى.

ضحكت بسخرية، بينما عيناها ما زالت تبكي، أصبحت لديها يقين راسـخ أن الأحوال في بلادها تسـتحيل من سـيء إلى أسـوأ منعدمة الأمل، والبقاء فيها هو عقاب دنيوي حتمًا سيناله الجميع.

صمت نشـال لدقائـق وفكَّر مليًّـا قُبيل إخبارهـا، لربما حينها تغير رأيها في الصورة التي كوَّنتها عنه وعن أقرب صديقاتها، لجم لسـانه وتـردَّد بين البـوح والكتمان، لكنه بالأخير قـرَّر أن يملأ لها السطور الفارغة التي لا تعلم عنها بشرى شيئًا.

– حال شـامة من حالِك يا بشرى، هي أيضًا تورطت في طفل تجهل مصيره، ويسرق من عينَيها النوم كل يوم.

أطرقت رأسها بعدم فهم، فبادرها نشال بالإجابة:

– شامة حامل منذ أشهر، لذلك لم يتجرَّأ أيٌّ مِنَّا على المجيء إلى هنا.

اعتلت قسمات بشرى الدهشة ولم تنبس ببنت شفة، استدارت ودخلت غرفتها ثم أغلقت الباب، استأذنها نشال أن يبيت بالصالة هذه الليلة فقط حتى يتدبَّر أمره، وسيغادر مساء الغد؛ فوافقت على مضض.

***

ما حدث في البلاد لم تطوِه الأيام في دفاتر النسيان، ظلَّت قصة شامة وجواد تتنقَّل بين أفواه أهالي المملكة ويدوِّنها سحر الحكايات، ولكنها لا تُذكَر إلا همهمات؛ خشية أن ينتشر صداها ليبلغ أرجاء البلاد، وهي التي تُعد من المحرمات.

أما حُرة، فلم تستطع أبدًا الغفران، وحارت وتحيَّرت؛ كيف تجرَّأ هؤلاء وعصوا أمرها دون خوف؟ بحثت عنهم لتجعل منهم عبرة لغيرهم، لتكسر أنوفهم وتدهس كرامتهم بطرف حذائها، ظنَّت أنهم ربما غرقوا بالنهر، أو ماتوا برًّا جوعًا، لم تنسَ، لكنها تناست؛ لأن مصيبتها كانت أكبر في ظل الجوع والعطش ورائحتهما التي فاحت في البلاد.

كانت تعتلي كرسيها الملكي بجناحها، تُفكر في طريقة تمكِّنها من النجاة بنفسها وشعبها من موت يقترب وهلاك قد دقَّ أجراسه منذ أشهر مضت، ربما تستعين بإمدادات بداعي الشفقة من بلدان

مجاورة، لكن من سيوافق على إعطائها؟ وكم من الوقت يمكنها أن تصمد حتى تحل المشكلة من جذورها؟ صوت أفكارها أشبه بضجيج مُزعج يصمُّ الآذان، ولا يسمعه سواها، قطع شرودها دقَّات الباب، أمرت الطارق بالولوج، فكانت إحدى الخادمات تُخبرها أن هناك امرأة تقف بالخارج تريد رؤيتها لأمرٍ ضروري، لا يحتمل التأجيل. وتستأذن جلالتك بالسماح لها بالدخول وترجوكِ ألا ترديها خائبة.

أثارت المرأة فضول حُرة فوافقت، وبعد دقائق ولجت المرأة الجناح وانحنت احترامًا للملكة، أناملها ترتعش وقدماها ثقيلتان، رفعت رأسها ووثبت بجسدها لينفرد، سألتها الملكة:

- لماذا أنتِ هنا؟.

ردت بتلعثم وهي تدور بعينَيها أرجاء الحجرة، قلبها يدقُّ بعنف وتخشى التلفُّظ بما تعرف، حسمت أمرها وقالت:

- علمت البارحة أين يختبئ شامة وجواد.

نهضت حُرة من مخدعها وقد اتسعت حدقتاها وتصلَّبت نظراتها لتقول في حزم:

- أين؟! ومن أخبرك؟.

قالت بثبات مفتعل:

- نشال وصل غسق بالأمس وهو يعرف جيدًا أين يمكثان، أيضًا أخبرني بشيء أظنه يهم جلالتك، لكنني آمل في الحماية منكِ يا مولاتي، حمايتي أنا وجنيني، لا أريد له الموت.

انبهرت حُرة من جرأتها ومساومتها على تأمين حياة طفل غير شـرعي بهذه البسـاطة، لكنها تُدرك أنها بحاجة إليها، فلا مانع من التخلي عن مبادئها لمرة، وتستثني منها بشرى.

- لكِ الأمان أنتِ وطفلك.

تنفَّسـت بشرى الصعداء، ونكَّسـت رأسها في امتنان ثم قالت بمكر:

- شامة تحمل جنينًا بين أحشائها منذ أشهر.

الفصل الثالث عشر

«أكثر الصدمات ألمًا تلك التي يتركها أكثر من كنت تظنهم ملاذك»

جـواد لـم يكتـفِ بجولاتـه التي جـاب فيها مـا أحاطـه، وما حصده من اكتشـافات، ورسالة الشـخص الذي عاش هنا كان بها سطر أخير أراد جواد أن يفهم مغزاه، وهو

– هذه الأرض هي بئر من النعم.

فهو لم يكتب أي جملة بلا معنى أو كناية عن شـيء آخر، كل ما كتبه موجود بالفعل، لذا لم يستسـلم وبحث طويلًا وسط الغابة وتمَّشـى مسـافات كبيرة، وقدمه غُرسـت في الطين تـارة وعلقت بالأعشـاب تـارة أخـرى، كان علـى وشـك الموت حينمـا حاول ثعبان مهاجمته من فوق جزع شجرة، لكنه أدرك الخطر في الوقت المناسب وابتعد، ثبت نظره على فروع الأشجار خشية أن يصطدم بلدغة دون سابق إنذار تُنهي حياته.

توقَّـف جواد لبرهة يتأمَّل الطير يعتلي شـيئًا ويشـرب ثم يطير ويعاود تكرار الفعل نفسـه أكثر من مـرة، أثار ذلك انتباهه ولاحظ فجوة مستديرة عملاقة تتوسَّط الأرض، اقترب بحذر ونظر داخله، فوجد ماء غزيرًا وعميقًا ممتلئًا! بئر من النعم، نعم يا ربَّاه!

إنـه بئر مياه عذبة وفيـرة! اقترب وشـرب ومذاقها كان أطيب من تلك التي على وشـك أن تنحسـر، ترقرق الدمع في عينَيه، نظر إلى السـماء ورفع ذراعَيه وشكر ربه ممتنًّا لحجم الهبة التي أعطاه إياها، كل ما ردده لسانه كان:

– حمدًا لله، ضاقت ولما اسـتحكمت حلقاتها فُرجت وكنت أظنها لا تُفرج.

عـاد فرحًا لكوخهم الصغير ليُبشـر شـامة بما اكتشـفه وكيف يمكن لذاك البئر أن يُغيِّر كل شيء!

فتح الباب وهو مبتهج يهتف باسمها في فرح، لم ترد، وجدها متسـطحة أرضًـا فاقـدة للوعي حرَّك جسـدها ومـرر أصابعه على وجنتَيها وتفحَّص نبضها، تتنفَّس بشـكل جيد، لكنها لا تسـتجيب لنداءاتـه المتكـررة، أحسَّ بالذعـر، إنها راقدة بلا حـراك لا يوجد هنـا حكماء أو أدوية يمكنها أن تُجـدي نفعًا، بلحظة واحدة أحسَّ أن دنياه قد ضاقت عليه حد الاختناق وأنفاسـه تنسـحب منه ببطء مميت.

مـا هـي إلا ثوانٍ وباغتتـه ضربة قوية على مؤخرة رأسـه بدرع حديدي أمسـكه جنـدي من حراس المملكة، سـقط جـواد جوار شامة فاقدًا للوعي..

***

رأسـه يدور ومطـارق حديدية تفتت جمجمتـه، والصداع قد أحـاط فصـوص دماغـه وجبهته وعينَيـه، الألم يطرق بـلا توقُّف، الرؤية مشوشة ولا يقوى على فتح عينَيه بشكل سليم، الأشياء من حوله غائمـة، ذراعاه معلقتان في الهواء، تحكمها الأغلال وأمامه بالضبـط اسـتطاع تمييز شـامة تقف بنفس وضعية جسـده، وبدت هزيلـة وبطنهـا المنتفـخ يتقدمهـا ويظهر جليًّـا، لم تسـتيقظ بعد، فارتخى جسـدها وتحمَّلت عبـأَهُ ذراعاها الضعيفتَين والسلاسـل الغليظـة التي منعتها من السـقوط، لكن حبسـت الدماء وشـقّقت

الجلد على رسغيها الرقيقَين.

فجيعـة كبيـرة، تقلَّصـت معدة جـواد، أثرها لقد تم الإمسـاك بهمـا وانتهى أمرهما بزنزانة عطِنة مظلمة وجدرانها متصدعة، إنها المكان المثالي الذي يمكن أن يجسِّد معنى كلمات الألم والرعب لتصبح واقعًا ملموسًا.

اعتصـر الألـم قلبـه وهو يبصرهـا في حالـة يُرثى لهـا، تُعامَل كالحيوانـات، ولا يراعـي أحـد حملهـا ومـدى خطـورة وضعها وتقييدها بهذه الطريقة الوحشـية، ناجى ربه ألا يضطر أن يشـهدها تصـرخ مـن الألـم ويعجز عـن إنقاذها، تضـرَّع كـي لا يخرج من معركتـه خاسـرًا كل شـيء، فإمـا النجاة معهـا أو الموت، السـبيل للخلاص، فلا يليق به العيش بشـقٍّ في صـدره فبعد فناء الروح لا تبقى قيمة للجسد.

لـم يفلـح في السـيطرة على دمعـه، تركه ينسـاب فبلل وجهه وتمنى ألا تسـتفيق شـامة سـريعًا كيلا تشـعر بعمـق آلام ذراعَيها، انفتـح البـاب ودخلـت حُـرة وبصحبتها الأميـر شـاهر واثنان من الحرس يسـحبون نشـال من قدمَيه ويجرونه أرضًا حتى أسـقطوه لترتطـم رأسـه بالحائط، كان فاقدًا للوعي هـو الآخر، أحسَّ جواد كأنما يبصر العالم من ثقب صغير يتضاءل حجمه كل يوم..

مرر شـاهر أصابعه برفق يتحسَّـس خصلات شامة التي تغطِّي نصف وجهها، عن عمد أراد أن يثير غضب جواد الذي لم يكذب خبـرًا، وانطلق الشـرر من عينَيـه وجهر بحِدَّة كي يبتعد، فأشـارت

حرة لحراسها الأوفياء، فركلوه بمعدته وفخذَيه لينخرس متألمًا.

اقتربت منه حُرة تلاحقه بعينَيها بشماتة لا تخلو من إحساسها بالنصر:

- أرأيت يا جواد؟ أنت هنا تحت رحمتي، من تظن نفسك لكي تطاوعك على الهرب وتوهمك أنني لن أجدك؟ هل ظننت حقًّا أنه بإمكانك الفرار من عقابي؟ سأجعلك تعاني حتى تتعفن هنا، تلوذ من الندم ولن يجدي ذلك نفعًا.

ضحك جواد بصوت مرتفع ثم بصق على الأرض دماء متجلطة بحلقه وأردف:

- لا تستهيني بي، قلاع الجحيم التي نصبتِها لن تحرق أحدًا سواكِ.

ابتسمت حُرة بتشفٍّ ورفعت طرف ثوبها من الأرض وقبيل رحيلها همست:

- لا يمكن للمرء لوم غريق ألقى على الأحياء السُباب قبل موته، فهو يدرك تمامًا أنه لن يلقاهم مرة أخرى!.

***

انفرد شاهر بأمه وعاتبها على طريقة معاملتها لشامة، خاصةً في حملها، وأنها تعلم جيدًا مدى تعلقه بتلك الفتاة، وراح يطالب بنقلها إلى جناح خاص رفقًا بحالتها، لكنه تفاجأ برد فعل عنيف من حُرة تنهره على خنوعه لقلبه وتسبُّه لضعفه أمامها، وبحزم أخبرته أن ينسى أمر تلك الفتاة للأبد، وأنها صفحة كان عليه إغلاقها من

البدايـة، وإن تطلَّب الأمر سـتقتلع قلبه من بيـن ضلوعه كيلا يدق إليها، وتمحيها من ذاكرته قبل أن يتذكرها، وأي تذمُّر منه سيُعاقب كالغرباء دون أن تضع أي اعتبار لهيبته كأمير وسـتُلقيه كالمشردين في السجن بلا شربة ماء.

قسـوتها في الحديث معه كانت غير معهـودة، وكيف يمكنها أن تتلوَّن كالحرباء في مختلف المواقف كي تحقق ما تسـعى إليه، نبرتهـا الآمرة لم تعُد تعني شـيئًا لشـاهر حينما يتعلق الأمر بشـامة تُطمس كل العوائق في سبيلها، نفد صبره وضاق خلقه من تسلُّطها وجحودهـا، يجب عليه أن يضع حدودًا بينهما لا يمكنها تخطيها، ويثبـت لهـا أنه يملك السُّـلطة بنفس قدرها، بل عليها أن تخشـاه، فهـو الوريث الوحيد وولي العهد الذي يهدِّد عرشـها، سـتنفِّذ كل ما يريد ولن تعترض، هكذا حسـم قراره وأمر الجند بفتح الزنزانة وفك قيود شامة.

أحـسَّ جـواد بالهلع يدنو منـه ويقترب ليصيبه بغصة يتحسَّـر بأثرهـا علـى روحـه وهـو يبصر شـاهر يسـلب فتاتـه منـه بمنتهى البساطة. تلاعبت برأسه الأفكار الشيطانية وجزع وفزع كلما خُيِّل إليه أنه بصدد أن يستقبل خبر مصيبة تحل بها، هنا لم يتمالك نفسه وصرخ حتى انشـق حلقه وُشـرخت حنجرته ظـل ينبح كالكلاب ويعوي كذئب جريح لا يداويه شيء.

توقَّف شـاهر هنيهة وأطلق رصاصة الرحمـة وهو يقول بنبرة صدق:

– أنـا لن أؤذيهـا أيها الغبي! أنـا أرحمها مما تعانيـه، ألا ترى كيـف حالها؟ لن تصمد كثيرًا أم تريـد أن تعذبها لتظل أمام عينَيك وتُرضي أنانيتك؟ أنا لن أسمح بإيذائها.

بادله جواد نظرة ممتنة وقد التمس صدقه واغتصب ابتسـامة، أومأ برأسه إيجابًا واختنق صوته وهو يقول برجاء:

– اعتـنِ بهـا، في ظـروف أخرى لكُنَّـا صديقَيـن اجتمعا على حماية مَلاك مثلها.

وافقـه شـاهر الرأي وغـادر، لكنـه أحس بالتعاطـف مع حال جـواد، وتذكـر قلَّة حيلته حينما كسـرت حُرة قدمـه ورجولته أمام الجميع، شـاهر بعد هذه الحادثة تجرَّع من ظلم أمه مثلما يتعرض لـه الآخرون، وتذكر كم تملكه اليأس وسـيطر عليـه الوهن، وهو حـال جواد وهو هَش ضعيف، يقف متفرجًا ويرضخ على مضض لـذل الأيـام من أجل سـلامة حبيبته، غـار كثيرًا منـه، ولكنها غيرة يشـوبها احتـرام وتقديس، بـل وإعجاب بعشـقه لهـا، ألا يقولون أحب الناس إلى قلبي أحباب حبيبي!

بقيَ جـواد وحيدًا بالزنزانـة وعظام ذراعَيه تكاد تنكسـر، فقد الإحسـاس بهمـا الدمـاء تتدفـق عكـس اتجاهها فيسـري الخدر بجسده، ونشال غائب عن الوعي ولم يستفِق بعد.

الأمـور بالقصر تـزداد تعقيدًا أكثر من ذي قبـل، حينما اطمأن شاهر على وضع شامة ورآها تغفو في ثبات عميق وجسدها مستلقٍ على فراش ليِّن يحتضن عظامها تسرَّبت إلى أعماقه السكينة، وكل

ما جال بخلده هو ضرورة إخبار أمه كيلا تقوم بأي حماقة من دون علمه تؤذيها بها.

لـذا توجَّه على الفور لجناحهـا وكان يعلم عواقب فعله، لكنه لم يأبه وهو على اسـتعداد لخسارة أي شيء مهما بلغت قيمته، إلا أن يخسر شامة مرة أخرى أو يشهدها تتأذَّى أو تُصاب بخدش.

بالقـرب من بـاب جناحها الفاخـر تعالت الأصـوات فتوقَّف خلفه يسترِق السـمع، وأثاره فضوله للاقتراب أكثر ليستنبط سبب هذا الضجيج، أمر الحراس بالانصراف وبقيَ وحده صوب الباب، كانت حُرة تتكلم بصوت باكٍ مع أحد، وتتوسَّل إليه أن يصدِّقها.

تتوسـل! هل اقتـرب العالم مـن نهايته! هل الزمـان قرر عدم المضـي قدمًا في سـنوات جديـدة! لا بُدَّ أن شـيئًا خارقًـا للطبيعة يحـدث بالداخـل، ولكن ما هـو الأمر الـذي يجعـل الملكة حُرة المتكبـرة ذات الأنـف المرفـوع بالسـماء علـى الـدوام، تتوسـل وتـذرف الدمـع؟ كيف لها أن تكشـف هشاشـتها بهذه البسـاطة؟ أثـار الحديث اهتمامه فتسـلل بالداخل وأغلق الباب بحرص كيلا يُصدر صوتًا، ثم اختبأ يحتمي خلف مرآة ضخمة مجاورة للباب.

راقب شـاهر خلسةً ما يجري، كانت حُرة تقف خلف بشرى، تلـك الفتـاة صديقة شـامة التي ترافقهـا معظم الوقـت، رآهما معًا عدة مرات، بدت في حالة صدمة وحُرة قسـماتها حنون وعطوفة، تقتـرب صوبهـا خطـوة فتبتعد بشـرى خطـوات، التفَّـت الأخيرة ليشـاهد دمعها ينهمر، لم يفهم سـببًا واضحًا لذلك التأثُّر الغريب،

ثم بدأت الألغاز في التفشِّي والأسرار تطمس قدسيتها مع جملة ألقتها، وقع صداها كان قويًّا للدرجة التي جعلته يشعر بالأرض تهتز من تحته والجدران ترتج من حوله:

– أُقسم لكِ يا بشرى أنكِ ابنتي، هل تظنين حقًّا أنني كان من الممكن أن أثق بشخصٍ سواكِ لأزرعه بشفق، ويصبح عيني هناك طوال هذه السنوات إلا أنتِ!.

تجمَّدت ملامح شاهر ولم يعُد يفهم ما يجري، وكيف ابنتها؟ هل تكون بشرى شقيقة شاهر؟ وإن كانت، فهل يُعقل أن تتركها لعائلة فقيرة تربيها، تُلقي بها في غياهب الفقر والجوع، عن أي أمومة تتحدث وأي قلب تمتلك!

بشرى باغتتها بسؤال اصطدم بها كجوارح صقر يهبط على فريسته ليفتك بها:

– لو كنت ابنتك حقًّا، فلماذا ذبحتِ الرجل الذي أحببت أمام عيوني؟ كيف لكِ أن تقومي بفعلٍ تعلمين معه أنكِ ستُدمين قلبي، ثم تخبريني فيما بعد أنَّكِ أمي؟ إنْ كانت هذه تُسمَّى أمومة فمرحبًا باليُتم!.

أطرقت رأسها في خجل وخفضت صوتها لتُعقِّب:

– أُقسم لكِ أنني فعلت ذلك لأجلِك، إنه خائن لا يستحقك؛ لقد ساعد رفاقه على الهرب. تعلمين.

احتدَّ النقاش، فانفعلت بشرى وانطلقت كلماتها كطوفان ثائر:

– مَن أنتِ لتقرري لي المصير؟ ماذا تظنين نفسك؟ أنتِ مجرد امرأة رخيصة تصدَّرت الحكم لسنوات من الاستبداد والتعنيف والقسوة، سنوات من المرارة ذاقها شعبك وعانى منها بسببك، أنتِ في نظرهم شيطانة لا تفلح جميع تعاويذهم ودعواتهم في طردها، يتمنون موتك مع غروب كل شمس.

انفجرت بشرى تقذف بالكلمات كالحجارة وهي مُغيبة تمامًا لا تُدرك مدى خطورة ما تقول من فرط تأثير الصدمة عليها، فهي لم تعُد قادرة على تحمُّل المزيد وكادت أن تفقد صوابها.

لم تتمالك حُرة السيطرة على راحة يدها التي رفعتها لتصفع بها بشرى، وارتعش صوتها وهي تعاتبها:

– إن كان يهمك أمر قومك بشفق إلى هذا الحد، فلماذا وافقتِ على أن تتعاوني معي، وتنافستِ في إخباري بكل سر يقع في جُعبتِك! لا تدَّعي الفضيلة! تجري في عروقنا الدماء نفسها.

اجترَّت بشرى خلفها خيبات وندم لا يُعد، ولم تكتفِ حرة وباغتتها قبل رحيلها:

– آخر ضحاياكِ صديقتك التي أوشيتِ لي بمكانها.

استدارت بشرى ورمقتها باستحقار، وجفَّفت دمعها وردت بثقة مصطنعة:

– أنا لم أكُن لأفعل ذلك بشامة قَط! هي من اضطرتني، ولم تترك لي خيارًا آخر، تملَّك اليأس والقهر مني، وأنتِ السبب، أنا أبغضُكِ.

رحلت بشـرى ولبث شـاهر يحاول اسـتيعاب ما دار بالغرفة، وتمنـى لـو أنه حضر النقـاش من البدايـة، لربما حينهـا تتصل كل خيوط الحكاية أمامه، مسـح على شعره وانتظر حتى تهدأ الأجواء ليتسـلل ويخرج بهـدوء، قادته قدمـاه لزنزانة جـواد، وأمر بفتحها وولـج إلى الداخل وكان نشـال قد اسـتعاد وعيه، شـد كرسـي ثم جلس أمامه محاولًا عدم الانهيار، وسأله باهتمام:

– ماذا تعرف عن بشرى؟.

أطرق رأسه بعدم فهم وأردف:

– ماذا؟.

فسأله:

– هل تشـاجرت الصديقتـان في الفترة الأخيـرة؟ هل حدث بينهما خلاف أفضى لخصام؟.

كان شـاهر مقتنعًا أن ذاك الفُجر الذي اندلع من بشـرى سـببه الخصومـة، لكـن الأمر أبعد من ذلك، أنكر جواد وعاد يسـأله عن السـبب، فأجابه أن الأفضل أن يوجِّه أسـئلته لنشـال صديقه الذي ابتلع ريقه بعدما حصره شاهر بالزاوية، ولن يفلح في التملُّص من جواد.

تركهما شـاهر يواجهان الحقيقة ليفسِّر له نشال أن لولا بشرى ما كانوا هنا.

عاد شـاهر لحُرة من جديد لا يحتمل صخب الأسـئلة برأسـه التـي كادت أن تطرحـه أرضًا، يريد إيضاح الصورة حتى يسـتكين

ويفهم، من حقه عليها، أبسط الأشياء هو الشرح!

اقتحم الجناح بلا استئذان وتصلَّب جسده أمامها، عيناه تنضح بالأسئلة وتتوسل الإجابات.

– هل حقًّا بشرى تكون ابنتِك؟ ورجاءً لا تحاولي الإنكار، لقد سمعت كل شيء.

بلا مقدمات أو معارضات لن تُحدث فارقًا، استسلمت حُرة وأجابته:

– نعم ابنتي.

سألها شاهر باهتمام:

– ولماذا أخفيتِ عني وجود شقيقتي طوال هذه السنوات؟ لماذا سمحتِ بفراقها لنا وبنشأتها مع عائلة أخرى؟ كيف ارتضيتِ لها الجوع وتمتَّعنا نحن بالنعيم!.

ضجرت حُرة وصاحت:

– يكفي! أنت تجهل الحقيقة فلا تُلقي عليَّ اللوم قُبيل أن تفهم، بين سطور المعرفة تتضح الحقائق ويُسدل ستار الغموض.

الفصل الرابع عشر

«الحقيقة قاسية، لكنها تبقى الخيار الوحيد الذي يستحق أن نحيا به»

قبل أكثر من عشرين عامًا..

كانت حُرة تدرك جيدًا مدى أهمية تعزيز علاقتها بالملك، حينما تنجب له ما يصبو إليه وهو ولي عهد يتولى الإمارة والمُلك من بعده، وحينما أتت اللحظة المنتظرة يوم الولادة أنجبتُ فتاة، وخيَّبت آمالها التي شيدتها طوال أشهر الحمل، أوصت القابلة بعدم فتح فمها وإلا قتلتها هي وطفلتها، لم تكُن القابلة أمًّا بعد، فلم تفهم ما ترمي إليه حُرة بذكرها كلمة

– طفلتِك، أمرتها أن تُربي الفتاة معها، وأنها من الآن وصاعدًا ستكون تلك الفتاة الصغيرة ابنتها وسوف تعتني بها ما حيَت، خاصةً أنها لا تُنجب، وتلك فرصة بمثابة عطية كبيرة أهدتها لها حُرة، ثمن أن تُطبق فمها وتنخرس عن أي ما تنوي الملكة فعله.

اتفقت معها أن تخبر الملك أن ما صار اليوم لم يكُن سوى آلام وتشنجات قبل ولادة الجنين وأنه لم يحِن موعد ولادتها بعد!

صدَّقها الملك وخرجت وبصحبتها الطفلة في حقيبتها القماشية الكبيرة، تتمتم بالدعوات ألا تبكي الصغيرة وتفضح كل شيء، ويذهب مخطط حُرة سُدى، وتنحرم القابلة من شعور الأمومة للأبد، أمرت حُرة الحراس بعدم تفتيش القابلة وبالسماح لها بالمغادرة السريعة، مرت الأمور بسلام واتفقت القابلة مع زوجها أن يحفظا السر، وأنها هدية من السماء لتطيب جروحهما، وعليهما الحفاظ عليها، وافقها بفرحة عارمة وأعلنت للقوم باليوم التالي أنها حامل في أربعة أشهر، ولكنها أخفت الأمر خشية

الحسـد، وكـم لبثت وانتظـرت وكابدت مـن أجـل أن تظفر بهذه اللحظة، المباركات انهمرت عليها وأحسَّـت القابلة بمدى قدسية الأمومة، وكم هو شعور يستحق الألم والعناء والتبجيل.

مـرض الملك في تلك الفترة وطلب مـن حُرة أن تتولى زمام الحكم حتى يتم شـفاؤه، ففعلت ووضعت وسادة أسفل ثيابها كي لا يفضـح أمر حملها الزائف، وفي غضون أيام اتخذت حُرة قرارًا بتبنِّـي طفـل، وعلى القابلة أن تُوجده في الحال، شـريطة أن يكون صبيًّا، ولكن القدر أوقع في طريقها طفل آخر جرفه إليها بالتوقيت المثالي، ودبَّرت كل شـيء تحت إشـرافها وأوهمت أم الطفل أنه قد فارق الحياة، لينسـوا أمره تمامًا، وتضـع الصبي بين أحضانها، وتصطنع آلام الولادة ليعلم الملك أن ولي العهد قد وصل للدنيا، ويعُم السـرور بالقصر والبـلاد بولادة عزيز جديـد، بينما تبكي أم أخرى مكلومة لفقدان ضناها.

لطالما كانت السعادة في أراضي غسق مشروطة بطبع التعاسة على شخص آخر، دائمًا ما كان هناك ضحية، بعد ثلاثة أشهر أخرى أعلنـت القابلة ولادتها المبكرة في الشـهر السـابع من فترة حملها ومنعت القوم من رؤيتها إلا بعدها بشـهر لأنها بالطبع سـتبدو أكبر مـن طفل حديـث الـولادة، ظلت تثرثر عـن كم هـي معجزة بكل المقاييس وبشرى سارة غيَّرت مجرى حياتها.

خارت قوى شاهر الثائرة بداخله بعد ما سمعه من المرأة التي من المفترض أن تكون أمه، تمعَّن النظر بها يدقق بقسـماتها، بدت

كمـا لو أن قناعًا قد سـقط عـن وجهها للتو، وتبدلـت نظرته إليها، أحسَّ أن مشـاعره الدافئـة التي تمنَّى أن يحسـها بجوارها قد فنت للأبـد، ورحلت كطير يرتفع عن الأرض ليبتعد عن الخطر، حاول اسـتيعاب أنها لم تعُد أمه وتحولت لشخص آخر أكثر وحشية كما تحوَّل إبليس من ملاك إلى شيطان ملعون.

هبطت من عينه اليسـرى دمعة فمسـحها فورًا، ثم أطال النظر إليها وسألها والتيه يملؤه:

– ومن هي أمي الحقيقية؟.

أجابته مستنكرة:

– لا يهم، ولن يفيد أن تعرف، أنا أمك التي صنعت منك ولي عهد للبلاد من بعدي.

ضحك بمرارة ليسخر منها ومن الجحود الذي أصبحت عليه معه، وكأنها تسـعى لمحو أي رباط بينهمـا، وأي ذرة حب يمكنها أن تشـفع لها عنده، لم تكافح من أجل الحفاظ على بقايا صورتها كأم بداخلـه، لم تُبالِ، وبقيَت صامدة تقف بصلابة كما الجماد، لا فارق بينهما كلاهما لا يشعر.

انقضـى الليـل بكل الألـم الذي احتوتـه سـماؤه، الجميع نام علـى صدمـة في هـذه الليلـة، انصدم شـاهر فـي أمه التي لـم تعُد كذلـك، وانصـدم جـواد حينما قـص عليه نشـال ما فعلته بشـرى وكيـف تجرَّأت على خيانة صديقة عمرها، أما شـامة فاسـتيقظت صبـاح اليـوم التالي علـى أيادي الحـراس تجترها لزنزانـة منفردة

تمكث بها وحيدة، لم يُدرك شـاهر خبـرًا بأيٍّ مما آلت إليه أحوال شامة، وبالطبع جواد أيضًا، ظنَّ كلاهما أنها تنعم ببعض الراحة.

عندما اسـتيقظ شـاهر، أول ما جال إلى ذهنه هو الذهاب إلى شـامة لتفقدها، وحينها اكتشـف عدم وجودها واستنبط أمر نقلها، ومن هنا تولَّدت شرارة قابلة للانفجار، وراح يصبُّ غضبه بأكمله لحُرة، وصاح بحنق جلي ينبثق من عروقه:

- أين شامة؟ لقد حذرتُكِ من الاقتراب منها، لِمَ تصرِّين على هدم جميع جسور الثقة التي بيننا؟!.

انتصبت واقفة وهمَّت لتجيبه بصوت جهوري:

- مَـن تظن نفسـك لتتحدث إليَّ بهـذه الطريقة! أنـا الآن من أُحذرك يا شاهر، عُد إلى رشدك وانسَ أمر تلك الفتاة نهائيًّا.

- تذكَّري أنك أول من طعنني بظهري يا.. حُرة!.

أسـرع شاهر بالتوجُّه إلى زنزانة شـامة، ولكن الحراس منعوا دخولـه، نهرهـم وأمرهـم أن يطيعـوه لكـن دون جدوى، لـم يقوَ أحدهم مخالفة أوامر الملكة، فقد شـاهر أمله في الوصول لشامة، لكنـه سـرعان مـا توجَّـه إلـى جـواد ونشـال ليخبرهم بمـا يجري بالقصر، وما وصلت إليه شامة.

لـم يصدِّق جواد، وراح يهذي بكلمات غير مفهومة، بدا عليه هو ونشـال إرهاق جسدي شديد وشـحوب في البشرة بسبب منع الميـاه والطعـام عنهمـا منـذ البارحة، إضافـةً إلى ذلـك، تقييدهم وذراعَيهـم الاثنَيـن مرفوعَين، وأجسـادهما واقفـة على الأرض،

حرمهما من النوم. اختفت الحيوية من وجهيهما، وصارا كموتى ما زالوا يتعلقون بالحياة.

حرَّر شاهر وثاق جواد ونشال، أحسَّ كلاهما أن ذراعَيهما قد بُترت، أو ربما جزء منهم قد سبقهما إلى الموت، خدر هائل يسري بهما. بعد دقائق بدأ الدم يتدفَّق في مساره الصحيح رويدًا رويدًا، وقف شاهر أمام جواد ونظر إليه نظرة تحدٍّ وإصرار، نظرة عدم الاستسلام للهزيمة، وأن يعودوا ليمسكوا بزمام المعركة، والتي يكون شاهر طرفًا رئيسيًّا فيها.

قال بحزم:

– يجب أن نتَّحد جميعنا، لا بُدَّ وأنك تملك شيئًا يمكننا مساومة حُرة به يا جواد، فأنت وحدك تعمَّقت في معرفة الكثير من أسرار الأرض وخبايا المملكة.

سأله جواد بتهكُّم:

– وكيف من المفترض أن أصدقك؟ ما الذي يمنع أن يكون كل ما حدث لنا هي مسرحية كبيرة من تدبيرك! لماذا تقفز بغتة إلى قاربنا؟ أعطِني سببًا واحدًا.

استطرد دون تفكير وبلا مشاعر أيضًا:

– حسنًا، ببساطة اكتشفت للتو أن حُرة ليست أمي، اختطفتني عنوةً من أسرتي الحقيقية ووهبتني للملك كهدية، وابنتها الحقيقية التي تحمل دماءها هي بشرى، والتي تخلَّت عنها فقط لكونها فتاة، لا فائدة منها في الحُكم!.

تبادل جواد ونشال النظرات في ذهول وهلع، انفغر فاه نشال، فهو قد وُلد بالمملكة وتلك هي أول مرة يتعرَّف فيها على معلومة كتلك. كيف! انصدم كلاهما، استشفَّ جواد الصدق في حديث شاهر، ولكنه عقد حاجبَيه وسأل:

– ماذا عن شامة؟ ستساعدها بصفتك مَن؟.

أجاب شاهر وقد اتسعت حدقتَيه:

– أنا أحبها بجنون، لكني لن أجبرها على العيش معي، إن كانت سعادتها معك وكانت مشيئة الله، سأقص جذور عشقها من الأعماق، وسأترك الزمان يداوي هوان روحي. اطمئن أنا لست ضدك، بل معك، ولكن علينا أن نُسرع؛ حُرة تخطط لقتل شامة! لأنها تدرك مدى وقع مصيبة كتلك على أفئدتنا.

ردد جواد بثقة:

– أريد رؤية حُرة على الفور.

نفَّذ شاهر طلب جواد، ولكن بحنكة ودهاء أمير يعرف جيدًا كيف يبلغ هدفه بأفضل طريقة، كان تحالفه مع جواد سريًّا، لذا لم يبتغِ الظهور في الصورة، ودفع أحد رجاله ليهرول إليها، ويبلغها أن ذلك السجين جوادًا يريد رؤيتها على وجه السرعة، فهو قد أوجد حلًّا لأزمة المملكة الراهنة.

أدركت حُرة بلحظتها أن جوادًا يريد المساومة، ولكنها لم تمانع أن تسمع عرضه، وبناءً عليه تقرر خطوتها التالية، غادرت جناحها وتوجهت إلى السجن وتواجهت مع جواد من جديد:

– بلغني أنك وددتَ رؤيتي، وأنك أيضًا قد أوجدت طريقة تنقذ بها بلادي، آمل ألا تكون خدعة، هل تعلم عقوبة الكذب في مملكتي، أم عليَّ تكليف نفسي بالشرح؟.

أومأ جواد رأسه إيجابًا واستطرد بحماس:

– عندما هربنا قطعنا مسافة كبيرة نسبح بالنهر حتى بلغنا أقصى حدود المملكة، ومكثنا هناك لأشهر ونجونا بمعجزة ربانية هدية من الله لنا ولجميع الشعب، أرض صالحة للزراعة وخيرها وفير، ولكنها تفتقر للرعاية، وهنالك شيء آخر في مكان خفي يمكنني أن أقودك إليه، إنه....

– بئر مياه، أليس هذا ما ترمي إليه؟.

قاطعته حُرة بجملة واحدة شتَّتت عقله وأتعبت ذهنه، أفقدته حماسه وخفُت أمله، أتعلم بأمر البئر؟ إذن لِمَ تُشيع الذعر بين الناس بسبب اقتراب انحسار المياه، ولم تكلِّف نفسها لتطمئنهم ولو مرة واحدة أن هناك بديلًا!

لا تفشل هذه المرأة أبدًا في إبهاره بمدى حقارتها!

تلجلج وعقدت الدهشة لسانه، فسألها بصعوبة:

– أتعلمين؟.

قهقهت حُرة بخبث، وأفرجت ذراعَيها في الهواء لتردد، كأنما تقف على خشبة مسرح وتستعرض غرورها:

– إنها أرضي، مملكتي، أتظن أنني أجهل شبرًا واحدًا بها؟ هل غباؤك صوَّر إليك أنني بهذه السذاجة! حقًّا؟.

حُرة كانت على دراية بالبئر، بل هي أيضًا أسهمت في إخفائه، وجعلت منه مكانًا سريًّا، لا يبلغه إلا من يعرف وجوده، حتى إنها أحاطته بالأشجار لتظلل عليه، أتمَّت كل ذلك بمساعدة رجال من جنودها، وعند عودتهم استدعت كل الرجال الذين علموا بأمر البئر وقدَّمت إليهم وليمة من كل ما لذَّ وطاب، وما هي إلا دقائق وأصاب الجميع إعياء وألم شديد، التهموا الطعام بِنَهَم وسار في أمعائهم كالنار في الهشيم، ينهشها السم بشراسة وماتوا جميعًا، أقامت الملكة مذبحة بقلعتها الصغيرة مُستوحاة من مذبحة خلَّدها التاريخ في الأذهان، سفَكَ بها محمد علي دماء المماليك، وكررتها حُرة مرة أخرى دون الحاجة لبُقع حمراء تتناثر في الأرجاء، أو ضجيج صاخب.

وبالطبع علمت بصلاح التربة بأقصى حدود البلاد، وكان لديها البديل للتقليل من حِدَّة الكارثة التي حلَّت على سماء المملكة، كان من الممكن أن يصبح حلًّا جذريًّا لهذه الأزمة. لماذا لم تنقذ شعبها من ذلك الكابوس؟ وكيف ارتضت أن تستحل جوعه وعطشه بهذا الجمود، كيف استطاعت أن تسدل جفونها كل ليلة رغم إدراكها الكامل بما يمُر به قومها مِن مُر وتنغيص في العيش، ومن أحلام تلاشت مع الأيام، وغربة في الوطن أذاقته أشد السقام!

سألها جواد بنبرة هزيمة:

- لماذا؟ لماذا فعلتِ ذلك وحرمتِ قومَكِ!.

أجابت بجرأة:

– لأنني أستطيع. أستطيع أن أمنحهم الخير بوفرة، وأن أذيقهم الشُّـح والقحط، والإنسان لا يقدِّس إنسانًا مثله إلا إذا احتاج إليه، يخشونني ويهابون غضبي لأن بيدي مصائرهم وحياتهم ومماتهم، شرابهم وطعامهم، كل شيء يحلمون به أعطيهم منه الفُتات ليظلوا بحاجة للمزيد، إن تشبَّعت رغباتك ستكتفي، ستكُفَّ عن طاعة الأوامر وتتمرَّد، أسخِّر جنودي بضمان غذائهم، أن تكون مهدَّدًا على الدوام وتفكيرك مُنصب بتدبير قوت اليوم، يلغي بدوره أن يعبث بك عقلك بأشياء أخرى، وهذا بالضبط ما أريد.

ازدرد نشال ريقه بصعوبة، الصدمة منعته من المشاركة في الحديث، تجمَّدت أطرافه وتشبَّثت بالأرض، أفكاره تفتك بعقله، والمصائب لا تأتي فرادى. تصلَّب ولم يفلح لسانه التلفُّظ بكلمة واحدة، أما جواد فكل ما شغل فكره وأثار حفيظته وقلقه أنه لم يعُد يمتلك شيئًا يساومها به، تنهَّد مستسلمًا يعتصر دماغه، ويلوذ من أجل حل ينقذ به حبيبته ويخلصها مما يمكنها أن تفعله بها حُرة.

لا شيء، لقد أحرق جميع حِيَله في آنٍ واحد، كل دقيقة تمر تشكِّل خطرًا جسيمًا يقترب ظله كشبح ينتظر إشارة لاختطاف هدفه، جواد بات يقع تحت رحمة حُرة، ويمكنها قتل شامة بالوقت الذي تريد.

مرَّت ليلة كاملة عاشها جواد نصف حي، ينتظر حكم الإعدام،

والآخر صدر به الحكم مات فلم يعُد يشعر به، انتظار الموت بحد ذاتـه بمثابـة أسـلوب قتل بطـيء، عذابـه وألمه لا يضاهيه شـيء، المتبقـي من الحياة لا يحياه، فقط في انتظار الدقيقة التي ينتهي بها كل شيء، يموت العالم في عينَيه قُبيل أن يفارق هو العالم.

يآزره نشـال في محنتـه رغم إدراكه أنه لن يخـرج من هنا حيًّا هـو الآخـر، إلا أنـه طلب منـه التريُّـث، وعـدم تقديم البـلاء قبل وقوعـه؛ لعل الله يحـدث بعد ذلك أمرًا، القنـوط تملَّك من جواد وكان على ميعاد مع جلاد يأتي إليه ليُبلغه بخسـارة حبيبته وطفله، فيرجـوه ليقتلـه هـو الآخـر. لا يطيق أنفاسـه التي يزفرهـا وبغض الدوار المسـتمر على الدوام، فلم يدخل جسـده الماء هو ونشـال إلا ليلة أمس بدفقة مياه بسـيطة ليضمنوا بقاءهما أحياء، ومعدتهم مـا زالت تصرخ، لعل أحد يغيثها بكسـرة خبز تنعـق كما الغراب، وتقيم العزاء رثاءً لما فقدته من سوائل.

***

في أعماق القصر المظلم، كانت شامة وحيدة في زنزانة ضيقة، باردة، ومغلقة تمامًا. جدران الزنزانة كانت شـاهدة على صرخات المعذبيـن، وعلى قصص الحب التي تحطَّمت على عتبات الظلم. لم تكُن شامة ترى أي وجه مألوف منذ سُجنت، فقد قررت الملكة أن تُعـزل شـامة عن كل شـيء، حتـى ابنها الأمير شـاهر، لـم يكُن يستطيع زيارتها. كانت الملكة ترفض أي فكرة للتواصل مع شامة، وكأنها تحاول دفنها في الظلام قبل موتها الحتمي.

شـامة علمت أن ذلك اليوم سـيأتي لا محالة، لقد شـهدته من قبل مع والدَيها، تفتت قلبها قبل عقود مضت، وما زالت حتى الآن تلملـم أشـلاء الفؤاد، بقيَـت وحيدة خلف السـياج تحتضن بطنها وتُربـت براحتها علـى جنينها، لا تدري هل تطمئنـه أم تطمئن هي بـه، لم تكُن مذعـورة. كانت هادئة ومسـتكينة، حتى هدوؤها كان صامتًـا خافتًـا خاضعًا، أدركت أنها قد بلغت نهاية لكل ما عايشـته من ألم، هي شـاردة واردة، هي فقط نادمة تشـعر بالحسرة تجوب حواسـها، وغُصَّـة تقتلع روحها علـى مهل، تستسـلم لكل الآلام وتنتظـر بتـؤدة المصير والقدر الذي اختارها لتنال قسـطًا كبيرًا من عذابهـا بالأرض، قبل أن ترتفع روحها إلى السـماء، تُلقي بأسـهم اللوم على نفسـها لأنها ورَّطَت ملاكًا صغيرًا لم تتمنَّ له أن يلاقي حيـاة مماثلـة لحياتها، تمنَّت أن يحظى طفلها بسـعادة مكتملة، لا تنتـزع منهـا أوراق الفـراق فصلًا أو شـخصًا، إلا حينما يشـاء الله ذلك.

العمر كالشـجرة، والأيام أغصانه إن صلحـت الذكرى توطَّد عضـده، وإن فسـدت عاثت الذكرى وانشـدخت الأغصان، تذبل الأيـام ويغيب الفرح، تتسـاقط أوراق الأمل في خريف دائم يخيِّم على الأحلام.

كم اشـتاقت لضمـة واحدة من جـواد تُضمِّد جرحهـا الغائر، وتنقـذ عينَيها المُسـمرتَين على الحائط، تتـوق لحديثٍ طويل معه يشـحذ فيـه بذهنهـا بعيـدًا، ويغيث حالتهـا المشـدوهة تلك. فهو وحـده القـادر علـى انتشـالها مـن أرض ظنونهـا الوعـرة وحزنها

القاتـم، نهنهت بحرقـة وفاض من عينَيها الدمع، تمنَّت ألا تسـمع خبر تعرُّضه للأذى أو موته، أن ترحل هي أولًا كيلا تشـهد وتشعر بروحهـا تُقتلـع ولا تزال حية، تريـد الموت حتى تفقد إحساسـها بالفؤاد إن مات بموته.

يتحوَّل العشق لنصلٍ حاد يذبح بلا رحمة، حينما يتعلَّق الأمر بفقـد من نحب، يسـتهين المـرء أحيانًا بآلام الروح؛ لأنها ليسـت مرئيـة لا تتبعهـا إراقـة دماء أو كدمة جسـدية جليـة، لكنها تُحدث شـرخًا عميقًا بالنفس مهما تنفَّس الإنسـان بعده لا يلتئم أبدًا، ندبة سرمدية أثرها لا ينقضي إلا بانقضاء العمر بأكمله.

فُتح باب زنزانة جواد ونشـال، اللذَين فقـدا وعيهما تمامًا من قلَّةِ التغذية وندرة شـرب الماء، لقد كان الزائر هذه المرة هو شاهر الذي سكب على وجهَيهما قطرات من الماء لكي يستفيقا وينتبها، وبالفعـل اسـتيقظا بفزع، فحـاول شـاهر تهدئتهما، حـل وثاقهما للمـرة الثانيـة وأعاطاهمـا مـاءً وزادًا وفيـرًا ليسـتعيدا صحتهمـا، ويتخلصا من حالة الضعف والهوان التي أصبحا عليها، بنهَم أنهيا الماء وصحون الطعام، أكلا بشـراهة كما تفعل المواشي بالعلف. عـادت إليهمـا دفقة من الروح، والأعين تُبصر بشـكل جيد بعد أن غربَ ضياؤها الأيام الماضية.

ربت شاهر على كتفَيهما وزفر بحماس:

- سينتهي عذابكما اليوم، يكفي ما ذُقتما من ألم.

لـم يفهم جواد ما يرمـي إليه، انقبضت روحه وهو يسـأله عن

شـامة، وامتصَّ القلق رحيق آماله حينما تيقَّن أنها ما زالت حبيسـة وخائفـة ووحيـدة. كانت عينـاه مترعتَيـن بالدمع، دفن رأسـه بين قدمَيـه وأطلق سـراح دموعه بنصر مُسـتحق، لقد كابـد كيلا تغادر مقلتَيـه، لكن إرادة القدر كانت أقوى من مقاومته، فقرر الاسـتلام لها هذه المرة..

بقلـب القصـر البارد وعلـى الجانب الآخر مـن الزنزانة، كان جـواد وصديقـه الوفـي نشـال مقيدَيـن معًـا، يتشـاركان لحظات الصمـت والقلـق في انتظـار المصير المجهول، صـوت الحراس الخـارج من الممـرات كان يتردد بيـن الحين والآخـر، لكن تلك الأصوات كانت تـزداد اضطرابًا مع كل يوم يمر. كان هناك همس يتناثر في أروقة القصر، حديث عن تمرُّد قادم أو كشـف للحقيقة، مجـرد ترهـات، أو ربمـا خيَّلـت إليهمـا آمالهمـا ذلـك، فقد كان مصيرهما معلقًا بخيط رفيع بين الحياة والموت.

جواد لم يكُن ليترك نفسـه تغرق في اليأس، لكن العزلة كانت تلتهـم روحه ببطء، أما نشـال، الـذي كان مرحًا ومفعمًـا بالحيوية والنشاط فقد تغيَّر وتبدَّدت نكاته، وسرقت ابتسامته قسوة الواقع.

وفي ليلة حالكة حين كان اليأس فيها يزحف نحوهما، حدث شـيء غير متوقع. صوت فتح باب السجن الحديدي، شقَّ الظلام ليظهر الأمير ولي العهـد محطمًا قيود الزيارة التي فرضتها الملكة علـى الجميع، لم يتوقَّع جـواد أن يرى الأمير بهذا الشـكل، رجل شاحب وعيناه تعكسان ألمًا عميقًا لم يعُد قادرًا على إخفائه، تقدَّم

نحوهما بخُطًى حذرة قبل أن يقف أمام جواد، ونظر في عينَيه بحزم لم يعهده جواد من قبل:

– أمي لن تتوقف عن ظلمها، ولن تسمح لك بالخروج ما دُمت هنا، لكنها ليست قوية كما تبدو، لقد كانت تخفي مصادر المياه والطعام عن الشعب، تعلم تمامًا أين توجد تلك الثروات، لكنها تركت المملكة في حالة من الجوع والعطش لتضمن هيمنتها.

قال جواد بحذر:

– إلى الآن لا أصدق أن الملكة كانت تعلم ولم تفعل شيئًا.

أجاب شاهر بصوت منخفض لكن ملأه الغضب:

– رأيتها بأم عيني. لقد كانت تمنح القصر حصصًا ضئيلة مما تملك، وتُوهم الحراس والعاملين بأنهم يعيشون حالًا أفضل من الشعب، بينما الحقيقة أن ما تمنحهم إياه ليس سوى جزء مما كان يمكن أن تصبح المملكة عليه. الحراس بدأوا يكتشفون هذا الآن، والكثير منهم ضدها.

اتسعت عينا نشال بالدهشة، وقال:

– إذن هم ليسوا فقط عبيدًا للأوامر، هناك من يقف ضدها بالفعل!.

أومأ شاهر برأسه إيجابًا وقال:

– نعم، وكثير منهم مستعدون للتحرُّك إذا أُتيحت الفرصة. القوة التي بيدها تضعف يومًا بعد يوم، لكنها ما زالت تتحكَّم في

خوفهم. إن استطعنا حشد الناس وخرجوا إلى الشوارع مطالبين بحريتهم وكشف حقيقتها، فلن يكون أمامها سوى الرضوخ.

صمت جواد للحظات، مشاعر الغضب والأمل تتلاطم داخله، شعر بأنه أقرب للحرية من أي وقت مضى، لكنه أيضًا كان يعرف مدى جبروت الملكة، ومدى قدرتها على سحق أي تمرد، سأل جواد بصوت متهدِّج:

– وماذا عن شامة؟ هي وحدها، كيف نصل إليها؟.

تنهَّد شاهر وقال:

– أمي تمنع أي شخص من رؤيتها، حتى أنا لم أتمكَّن من ذلك، لكنني سأفعل كل ما بوسعي لتحريرها فور أن نبدأ، لديَّ بعض الحراس المخلصين الذين سيؤمنون طريقنا. لا أريد أن أراها تُعذَّب أكثر.

بالخارج، كان الهمس يتحوَّل إلى صرخات، الحراس الذين اكتشفوا خيانة الملكة لشعبها لم يعودوا يحتملون المزيد! كانوا يتحدثون فيما بينهم عن مئات العائلات التي ماتت من الجوع والعطش، بينما كانت الملكة تحتفظ بالمياه والطعام، غضبهم كان أشد من أن يتم احتوائه وبدأ يتحول إلى تمرُّد، وكانت شرارة ثورة على وشك الاشتعال.

خلال أيام قليلة، انتشرت الأخبار في المملكة وخرج الشعب إلى الشوارع مطالبًا بإطلاق سراح جواد وشامة ونشال الذين فضحوا وحشية الملكة في حرمان شعبها وكشفها أمام الملأ!

أصوات الهتافات لم تعُد همسات، بل تحوَّلت إلى عاصفة تجتاح المدينة، وأصبحت تهدِّد عرش الملكة.

وفي القصر، كانت الملكة تعلم أن الأمور خرجت عن سيطرتها، حاولت إقناع الحراس بالقمع، لكن الكثير منهم رفض الأوامر، مفضِّلين الوقوف إلى جانب الشعب، ولم تفلح في ضم الكثير إلى صفها لذا كان عدد حراسها ضئيلًا جدًّا مقارنةً بالحراس والشعب الذي وقف ضدها بالمرصاد، وتحرر من صمته وأضحى صوت الحرية يتردد صداه بالأرجاء كمعزوفة تستسيغها النفوس وتُذيب القلوب. شعرت حُرة لأول مرة بأن قبضتها على المملكة قد بدأت تنفلت.

الملكة حُرة التي تُرهب القلوب تجلس في عرشها الملكي بنظرات شاردة عبر النافذة الكبيرة التي تُطل على مملكتها، القصر محاط بجدران شاهقة الارتفاع، لكنها لم تكُن كافية لحجب الصوت المتعالي بالخارج.. هزائم متتالية تتراكم أمامها ليس فقط في الحروب أو المؤامرات، بل في ولاء الناس، قلبها يضطرب بشدة، شعور غريب يتسلل إلى أعماقها كأنها لأول مرة تتذوق طعم الخوف، لم يكُن خوفًا من الموت أو الفقد، بل كان خوفًا أعمق، خوفًا من زوال السُلطة، من انهيار عرشها الذي لطالما حكمت به بقبضة من حديد، وفي تلك اللحظة الحاسمة شعرت بشيء غريب يتسلل إلى أعماقها؛ الخوف.

عيناها الشاردتان تتابعان المدى البعيد من خلف نافذة

العـرش، وتعيـد إليها ذاكرة الأيـام التي كان ذكر اسـمها فيها كافيًا لإرعـاب كل من تسـوِّل له نفسـه الاعتراض، كانـت أوامرها تُنفَّذ دون نقاش، وحاشـيتها تتسـابق لنيل رضاها، أما الآن، فإن العيون ذاتهـا التـي كانـت تطأطـئ لهـا الـرأس أصبحـت تحمل الشـك والجـرأة، حتـى المخلصـون من رجالهـا باتت كلماتهـم مترددة، وكأن سلطانها لم يعُد يملأ صدورهم كما كان.

قلبهـا يخفق بقوة، ليس بسـبب الخوف مـن الموت أو فقدان العرش، ولكن بسـبب إدراكها أن الزمن قد انقلب عليها. جسدها المهيب الذي كان يبدو دائمًا قويًّا وغير قابل للانكسـار بدأ يشـعر بثقـل السـنين، وبثقـل قراراتهـا القاسـية التـي تلاحقهـا كأشـباح الماضي.

تشـبَّثت بأطـراف العـرش، وكأنها تبحث عن ثبـات، عن قوة تسـتمدها مـن المـكان الـذي كان رمـزًا لهيمنتهـا، إلا أن العرش ذاتـه لم يعُـد يمنحها القـوة، كانت تعلـم أن الزمن قد تبـدَّل، وأن الصرخات في الخارج كانت تعبِّر عن حقيقة لا يمكن الفرار منها. الصرخـات لم تعُد صرخات الخوف والرهبة، بل كانت صرخات تطالـب بالحرية، بالعـدل، بالماء والطعـام بالتعويض عن حرمان وفقـد الأحبـاب. كانت تلـك الهتافـات إعلانًا عن نهايـة حكمها الذي عاش على الترهيب والجوع.

فـي كل يوم كان الخطـر يقترب، وكأن جـدران القصر تتقلَّص حولها، تضيق كما لو أنه بين عشـيةٍ وضحاها، اسـتحال من قصرها

لقبرها الذي ينتظرها أن تأوي إليه في مثواها الأخير. الشعور بالعجز كان أقوى من أي شيء آخر. علمت أن النهاية تقترب، وأنها لم تعُد سيدة القرار، بل أصبحت مجرد ملكة سابقة تنتظر السقوط.

الأصوات الغاضبة تتردد في الأرجاء بلا توقف أو هوادة، أصوات لم تكُن تعرفها من قبل. تجرَّأ شعبٌ تجرَّع القمع والظلم والمهانة، شعبها الذي كانت تسيطر عليه بالزاد بات الآن متحدًا في صرخات تدوي تطالب بالحرية والعدالة، كانوا يجتمعون ببطء، ولكن بثبات، كل واحد منهم يعلم أنه لم يعُد هناك ما يخسره، الجوع الذي عانوا منه لسنوات قد قسا على أرواحهم، لكنه الآن قسا على الملكة نفسها، يهتفون باسم «الماء» و«الطعام»، وكأنها لم تعُد رمزًا للسلطة، بل صارت رمزًا للجفاف والخراب، للهلاك والموت.

الفصل الأخير

«الحرية لم تكُن أبدًا بمثابة هدية، بل هي حق
يجب دائمًا أن نكافح من أجله»

وقفت الملكة حُرة في شرفة قصرها العالية، جسدها منتصب كتمثال من الحجر، لكن داخلها كان يتهاوى تحت ثقل اللحظة.

أمامها، كانت الجموع الثائرة تتدفَّق كالأمواج الغاضبة، وجوه مشتعلة بالاحتجاج والأيدي مرفوعة في السماء تطالب بالحرية والعدل، وقد انقلب الخوف إلى تحدٍّ صريح لسلطانها. لم تكُن تلك اللحظة التي تخيَّلتها يومًا، يوم أن ارتقت العرش كانت تتصوَّر نفسها حاكمة لا تُقهر، أما الآن فقد باتت تشعر بأن التاج الذي على رأسها أثقل مما تحتمل.

تململت الملكة قليلًا، قبضت أصابعها على حافة الشرفة وكأنها تبحث عن شيء يمسكها، شيء يمنعها من السقوط في هاوية اليأس التي شعرت أنها تقترب، لم يعُد بإمكانها الفرار من مواجهة الحقيقة؛ قوتها تتلاشى، والأرض من تحتها تهتز بفعل تلك الصرخات المتحدية.

رفعت يدها في محاولة يائسة لتهدئة الغضب المتفجر أمامها، ثم تكلَّمت بصوت هزته الرياح، لكنه سرعان ما ارتفع مع قسوة ألفاظها:

- أيها الجاحدون!

بدأت كلماتها كصاعقة محاولة أن تستعيد الهيبة التي كانت لها يومًا، لكن نبرتها تحمل ضعفًا خفيًّا، وكأنها تعترف دون أن تُفصح بأن الأمور خرجت عن سيطرتها.

- أنا التي حميتكم من شرورٍ تجهلونها، أنا التي حفظتكم من

أعدائكم، وجعلت هذه المملكة صرحًا عظيمًا! كيف تجرؤون اليوم على الوقوف أمام قصري، مطالبين بحريَّة لن تعرفوا كيف تتعاملون معها؟!.

كانت كلماتها تحمل قمعًا زائفًا، مغلفًا بحقيقة أنها لا تزال متمسكة بموقعها، ولكنها تدري أن قبضتها على الحكم قد ارتخت وقواعدها التي لطالما حرصت على تطبيقها آن الأوان أن تُخرق، ظلمها للعشاق جريمة، وحرمان أهالي المملكة من الزاد كارثة كان عليها أن تُدركها من قبل.

– هل تظنون أن هذا الغضب سيجلب لكم ماءً أو طعامًا؟ هل تظنون أنكم، بدون حِكمتي، ستجدون من يحميكم من البؤس والجوع؟ لقد أعطيتكم كل ما أملك، حتى عندما كنتم تظنون أنني أخذت الكثير.

أخذت نفسًا عميقًا، وعيناها تلمعان بالشرر وهي تضيف بنبرة مختلطة بين التعالي والخوف:

– لقد كنتم تأكلون، وتشربون، وتعيشون بفضل قراراتي، نعم! ربما كان ما نلتموه قليلًا، لكنني ضمنت لكم البقاء. أنتم لم تروا ما رأيته من تهديدات، لم تعرفوا كم من التضحيات قدَّمتها من أجلكم. الآن... تطالبون برأسي؟.

ثم حاولت اللعب على وتر المصالحة، بضعف ظاهري، ولكن بخُبث مقصود، وكأنها تُلقي بشباكها الأخيرة للنجاة:

– لكنني، برغم كل شيء، لم أفقد الأمل بكم، أنا أم لهذه

المملكة، وقلب الأم لا يعرف القسوة الحقيقية على أبنائها... إذا تكاتفتم، إذا عاونتموني على تخطِّي ما فات... فسأفتح صفحة جديدة. سأطلق سراح جواد ونشال، وأعدكم أيضًا بإطلاق سراح شامة إن كانت هذه هي رغبتكم. فلنهدم جدار الحقد، ولنبدأ من جديد!.

كانت كلماتها أشبه بمحاولة أخيرة للنجاة من الغرق، وكأنها تدعوهم، ليس حبًّا في التغيير، بل إنقاذًا لما تبقى من مملكتها المتداعية، وتلك النظرات التي كانت تلقيها على الجموع أسفل الشرفة، لم تكُن إلا محاولة خائبة لاستعادة السيطرة، ولترويض العاصفة التي باتت على وشك اقتلاعها من عرشها.

– افتحوا قلوبكم لي، وأعطوني فرصة واحدة. لا تُسقطوا حكمًا أقامكم بين الأمم، لا تدعوا هذه الغضبة تعميكم. سأكون معكم، سأرعاكم، سأعطيكم ما تستحقون إن سامحتم، وإن قدَّمتم لي ولاءكم مرة أخرى.

نبرتها المتعالية التي مُزجت بالقمع والرجاء محاولة يائسة، لكنها كانت تعلم، في قرارة نفسها، أن الشعب أمامها لم يعُد ذاك الذي كان يرتعد لمجرد ذكر اسمها.

***

كان الليل قد أسدل ستاره على المدينة المتعبة، لكن القصر لم يكُن ينعم بالسكينة المعتادة. في أرجاء الساحة الكبرى، تجمهر الشعب وعيونهم ترقُب القصر بترقُّب وقلوبهم مليئة بالغضب

والانتظـار بعدمـا ألقـت الملكة حُرة التـي كانت يومًا رمـزًا للقوة والسـلطة المطلقـة خطابهـا أمامهم محاولةً اسـتعادة مـا تبقَّى من حكمها، متوهمةً أن كلماتها ستعيد السيطرة، عرضت المصالحة، وأعلنت أنها ستطلق سراح جواد ونشال لإظهار حُسن النية، موقنةً أن التهديد والوعود الزائفة سيُخضعان الناس من جديد.

لكـن هذه المرة كان الوضع مختلفًا، فالذين عاشـوا سـنوات من العـذاب والجوع والعطش لم يعودوا يرضـون بوعود خاوية، لـم يكُن هنـاك تصفيـق أو هتافات تأييـد. فقط صمـت مرير يملأ الهواء، يشير إلى أن الغضب وصل إلى حدٍّ لا يمكن العودة منه.

فـي القصر جلسـت على عرشـها تراقب بصمت بقايـا قوتها وهي تتلاشـى. دخل شـاهر إلى القاعة ببطء، ملامحه مليئة بالقلق والتوتر، لكنه بدا واثقًا من خطته. اقترب من والدته ثم قال بصوت يحمل مزيجًا من الحذر والاحتيال:

– لقد تحدثتُ مع الشعب، الأمور تحت السيطرة، وقد وافقوا على عرضك، المصالحة ستتم قريبًا.

ابتسـمت الملكة، أول ابتسـامة منذ أيام، شعرت للحظة بأنها اسـتعادت زمام الأمور. اقتربت لتضم شـاهرًا، لكنه أبعد يدَيها في هدوء.

أصدرت الأوامر بإطلاق سـراح جواد ونشـال، وهي تظن أن كل شـيء سـيعود كما كان. لكنها لـم تكُن تدرك أن هـذه اللحظة كانت بداية النهاية.

فـي تلـك الأثنـاء، اجتمعـت المجموعـة المقربـة مـن جواد وشـامة ونشـال، بقيادة شـاهر، لتخطيط الهجوم الأخيـر. لم يكُن هجومًـا تقليديًّا بالأسـلحة، بـل كان هجومًا بالتلاعـب والخداع، تمامًـا كما تعلَّموا من أسـاليب الملكة نفسـها، قـرروا أن يحطِّموا قـوة الملكة بهدوء، بأن يتركوها تسـقط في فـخ الوهم الذي نصبه لها ابنها وشعبها.

عندمـا أُطلـق سـراح جواد ونشـال، لـم يكُن هنـاك ضجيج، أو هتافـات، فقـط تحـركات هادئة ومخططـة، وبينمـا كان الناس يتظاهرون بالاستسلام، كان يجمع قواه في الخفاء.

انتظر جواد لحظة الإفراج عن شـامة بنفـاد صبر، كم تمنَّى أن يضمها إلى صدره دون خوف، طمأنه شـاهر أن شامة سوف يُطلق سـراحها الليلة، وأن الوقت قد حان لمواجهة حُرة، شـامة ستكون المفتاح، لكنها لن تواجهها وحدها.

كانت لحظة الحسـم تقترب وشاهر الذي تغيَّرت ملامحه بين غمرة الهموم والشـجاعة المكتسـبة، نظر إلى جـواد وهو يتحدث بصـوت خافت، يحـاول أن يتحكَّم في الانفعال الذي يسـري في أوصاله:

– جواد، هذه فرصتنا الأخيرة. حُرة ليست فقط ملكة متكبرة، إنها امرأة بلا قلب، وإن لم نضربها في أعماقها، ستعود أكثر قوة.

عينا جواد تحملان مزيجًا من الغضب والحزن. كل ما عاشه، كل ما ضاع منه، كان يُشكِّل هذه اللحظة، قال بصوت متهدِّج:

– أعلم، لكن كيف سنواجهها؟ الشعب معنا الآن، لكنها ما زالت تمتلك النفوذ، وقد تلتف حولنا إن لم نكُن حذرين.

شاهر أومأ برأسه موافقًا، لكن في قلبه كان يُدرك أن هناك قوة واحدة لم تُستخدم بعد، وهي شامة. تابع بنبرة أكثر جدية:

– إنها تخشى شامة، ليس لأنها مجرد امرأة ثائرة، بل لأنها تمثِّل ما حاولت حُرة طمسه لعقود، شامة هي تجسيد للظلم الذي سقط على الجميع، إذا واجهت حُرة مباشرةً، ستنهار.

قاطع كلماته جواد مشيرًا إلى نقطة أكثر خطورة:

– لكن شامة ليست هنا لتنتقم، هي لا تريد أن تكون مثلها. شامة تبحث عن العدالة، وليس الانتقام. يجب أن نفهم ذلك جيدًا قبل أن ندفعها لمواجهة لن تكون على استعداد لها.

ابتسم شاهر ابتسامة خفيفة، وكأن هذا الأمر لم يكُن خافيًا عليه:

– لهذا تحديدًا هي المناسبة، الملكة لا تفهم الرحمة، وإذا واجهتها شامة بالعطف والمغفرة، لن تعرف كيف ترد، حُرة اعتادت القسوة، لكن في وجه اللطف، ستتحطم.

أخذ جواد نفسًا عميقًا، ثم نهض واقفًا:

– إذن، لننتظر خروجها من القصر. سندع شامة تواجهها، لكننا لن نتركها وحدها. عندما تحاول الملكة اللعب بورقة المكر من جديد، سنكون مستعدين، بالنهاية لقد خسرت حُرة أهم درع تملكه، وهو شعبها، وأصبح رحيلها مسألة وقت فحسب.

***

كانت الليلة ساكنة بشكل مخيف، وكأن السماء تترقَّب النهاية الحتمية، والمدينة كلها قد حبست أنفاسها. القصر الذي كان يومًا رمزًا للقوة المطلقة بدا اليوم خاليًا من الحياة.

وقف الشعب محتشدًا أمام بواباته الكبيرة، في انتظار لحظة الهزيمة لتلك المرأة التي أذاقتهم العذاب والذل والجوع، لكن داخل تلك الجدران، كان اللقاء الذي سيحدد مصير الجميع.

شامة، بخطوات بطيئة لكنها ثابتة، تقدمت نحو قاعة العرش، المكان الذي حمل أثقال سنوات من القسوة والظلم، كان وجهها يحمل مزيجًا من القوة والحزن العميق، عند وصولها، وجدت الملكة حُرة جالسة على عرشها، تلك المرأة التي كانت ذات يوم ما، لا تقهر بدت الآن منهكة وكأنها هُزمت قبل أن تُهزم، كانت عيناها خاليتَين من بريق السلطة، ممتلئتين بالخوف والندم والحسرة.

توقَّفت شامة أمام العرش، نظرت إليها، وكل ما مرَّ في حياتها من معاناة وألم تدفَّق في نظرتها. كانت تريد أن تتحدث منذ زمن، لكن تلك اللحظة حملت وزن الماضي كله، بعد صمت طويل، كسرت شامة حاجز الصمت بصوت هادئ لكنه كالسيف:

– لقد وقفتِ هنا، على هذا العرش، وأنتِ تظنين أن لا شيء قادر على زعزعة حكمك. قتلتِ أمي وأبي بدم بارد، دون أن تنظري في أعينهما، حكمتِ عليهم بالموت، كما حكمتِ على هذا الشعب بالجوع والعطش والقهر، رأيتِنا كما لو كنَّا أرقامًا بلا

مشاعر، بلا أرواح. لكن اليوم، حان وقت الحساب.

بـدت الملكـة مرتبكة، لوهلة كانت على وشـك أن ترد، لكن صوتها خذلها. لم تستطع أن تجيب، كانت الحقيقة أكثر قسوة مما تخيلت، ولم يكُن لها مفر من الهرب.

أكملت شامة، ودموع قديمة لم تظهر على وجهها منذ سنوات بدأت تلمع في عينَيها:

– أمـي وأبي لم يكونا سـوى ضحايا لنظامك القاسـي، كبرنا نحـن أطفـال القهر والجوع، تحت ظلمك، واليـوم نقف هنا ليس فقـط لنحاكمـك، بل لنضع نهايـة لهذا الألم، أنتِ تسـببتِ في كل هذا، أفسدتِ كل شيء.

تراجعـت الملكة فـي مقعدها، وكأن الكلمـات كانت تطعنها في قلبهـا، للحظة تبين عليها مظاهر الضعف الذي حاولت طويلًا إخفاءه خلف قناع القوة، همست بصوت ضعيف:

– فعلـتُ ما فعلتُه لحمايـة المملكة... كنت أحاول أن أضمن بقاءها.

قاطعتها شامة بصوت يفيض بالحزن والغضب المكبوت:

– بـأي ثمن؟ كم من الأرواح أغرقتِ؟ كم من الأمهات فقدن أبنائهن؟ كم من الأطفال عاشوا في الجوع بينما كنتِ تشربين أنتِ من الكأس الذهبي؟ لم تحمِ المملكة، بل دمرتِها من الداخل، كل ذلك بسبب أنانيتك ورغبتكِ في السلطة.

نظرت حُـرة إلى الأرض، وكأن الكلمات قد أسـقطت تاجها

عن رأسها، ثم نظرت إلى شامة يائسةً:

– وماذا تريدين مني الآن؟ أن أُقتل؟ أن أُحاكم؟.

هـزَّت شـامة رأسـها ببـطء، وقالت بصـوت حـازم: «لا، لن أمنحكِ تلك الراحة؛ الموت سـهل، والهروب من تبعات أفعالك سـيكون هدية، ما أريده منك هو أن تعيشـي ما تبقَّى من حياتك لا كملكة، بل كإنسـانة عادية في منفى بعيد، محاطة بالندم والوحدة. سـأمنحكِ فرصـة لتتذكَّـري كل يوم الوجـوه التي دفعـتِ بها إلى الهلاك، اتركي هذا العرش الآن، انتهت قصتُكِ.

أحنَـت الملكة رأسـها وكأنها قبلت الحكـم الذي لا مفر منه، شـعرت أن العالم بأسـره قـد تخلَّى عنها حتى ابنهـا، وأنها تحصد ثمار ظلمها، الأمير شـاهر والـذي لم تقدِّر قيمته أبـدًا وقف بعيدًا يراقب المشهد، لم يتحرَّك لنجدتها، كانت وحيدة تمامًا كما كانت ستترك شعبها لولا هذه اللحظة، تحرَّك شاهر ليسألها سؤالًا واحدًا أطاح برأسه بالفترة الماضية، سألها بوجه مكفهر:

– مَن هي أمي الحقيقية؟ أخبريني!.

أجابته ببرود:

– أمـك هي من يحكـي عنها الناس ومصـدر رعبهم الأبدي، إنها المرأة التي جسَّدت الخطيئة، أمك هي مرجانة.

فسَّـرت له أن أمـه لطالمـا كانت أمامـه، إنها مرجانـة، المرأة التـي ألقـت بالطفل بالنهر وتجـردت من ملابسـها، وتناوب على اغتصابها الحراس، إنها المرأة التي جاهدت جميع نسـاء المملكة

ألا تلاقي نفس مصيرها، وشاهر هو طفلها الرضيع الذي أُلقيَ بالنهر واستخدمته كورقة رابحة للحكم، وقد التقم جندي من جنودها الأوفياء الصندوق الخشبي قبل أن يجرفه النهر وأحضره إليها بالتوقيت الذي كانت تبحث فيه عن صبي وُلد لتوه، قتلت حُرة الجندي بنفس الليلة، وطمست معه كل شيء.

ببطء، قامت الملكة من على عرشها، خطت خطوات مُثقلة نحو باب القاعة، وعندما مرت بجانب شامة نظرت إليها للمرة الأخيرة، لم تكُن نظرة غضب أو تحدٍّ، بل كانت نظرة خالية من أي شيء... كانت نظرة الهزيمة.

خرجت حُرة من القصر وسط صمت مهيب من قومها، لم يصفِّق أحد أو يهتف معلنًا الانتصار. فقط نظرات تحمل آلاف القصص من الألم والحرمان، من المعاناة والظلم، ومع كل خطوة تخطوها، كانت تشعر بأنها تترك خلفها كل شيء: تاجها، سلطانها، وحتى ماضيها.

شامة، التي وقفت شامخة أمام العرش الفارغ الآن، لم تبتسم. لم تكُن هذه لحظة انتصار، بل كانت لحظة التحرر من القهر، لحظة تبدأ فيها المملكة عهدًا جديدًا، بلا ملكة ظالمة، بل بشعب يعرف معنى العدل والرحمة والحياة.

كانت بشرى تقف وسط الحشود تتابع بصمت وهدوء ما يجري، وحينما التقت أعينهما أشاحت بنظرها بعيدًا عنها، فقد تسبَّبت حُرة في فقدها رباطًا قويًّا بينها وبين شامة، وقتلت زوجها

وحبيبها فارس أمام عينَيها، ولم يطرف لها جفن! لم ترفق بها قَط، فلن ترفق بشرى بها أبدًا.

لقد خسرت حُرة كل شيء ودمَّرت كل ما حولها، ما خطوة خطتها إلا وكانت نهايتها خرابًا.

تجلَّت السماء بألوان الشفق الذهبي، وكأنها تنسج لوحة جديدة من الأمل، اجتمع جواد بشامة على نفس الأرض التي شهدت على آلامهما، لكن اليوم تبدَّد الظلم القاسي وبدأت شمس الحرية في البزوغ.

أقبل جواد وملامح وجهه تعكس شوقًا وتوقًا عميقًا لاحتضان شامة، عانقها بشغف وكأن الوقت توقَّف في تلك الحظة، وكأن كل المعاناة التي مرَّا بها قد ذابت في أحضان هذا اللقاء، نظر في عينَيها فرأى فيهما أحلام الغد الذي سيبدآن معًا في تشييده، عالمًا خاليًا من قيود الماضي.

أحسَّت شامة بلمسة يدَيه الحنونتَين وهما تسندان بطنها المنتفخ، تدفَّق العشق بوريدها وهمست برقة وبصوت هادئ، يملؤه الإيمان بأن الحياة ستأخذ منحنًى آخر:

– سنعيش معًا ونرسم مستقبلًا أفضل لأطفالنا، مليئًا بالحرية والأمل.

ابتسم جواد وانهمرت من عينَيه الدموع، دموع الفرح التي تروي حكاية النضال والتحدي وقال بدفء:

– أعدكِ، لن أسمح للظلم أن يعود إلينا، سأكون دائمًا إلى

جانبكِ، إلى جانب طفلنا. سنقف معًا، نبني هذا العالم الذي نستحقه.

اليوم تبدأ غسق عهدًا جديدًا تتنفس فيه نسمات من الحرية، يتزوج أهلها دون قيود ويطلق العنان للعشق بأن يتفشَّى وينتشر ويعلو صداه، أن يخرج للنور، وألا يعود للظلام مرة أخرى، فالعاشق ليس بآثم، والحب أبدًا ليس بخطيئة، إنما نحن من ندنِّسه بأفعال لا ولن تنتمي للعشق قَط، فهو أسمى الأشياء التي من الممكن للمرء أن يحياها ويشعر بها.

تشابكت أيديهما في تلك اللحظة، كأنما أبرما عهدًا جديدًا يؤكد أنهما لن يقبلا بعد اليوم أي قيد يحجّر أحلامهما، ويطويان سنوات من المعاناة تحت سماء تتزيَّن بألوان الأمل الذي صنعاه بأنفسهما، وبدماء نفيسة لمن رحلوا وضحوا، ولكن ستخلد ذكراهم في الأذهان للأبد كصديقهم الوفي فارس.

بعد اليوم، جواد وشامة تنتظرهما حياة مليئة بالحرية، وبالحب، وبأحلام لا تنتهي.

***

تمَّت بحمد الله

سما هاني